بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأعراف (١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: تفسير سورة الأعراف، وهي مكية.

{بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ* المص* كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ* اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ} [(١ -٣) سورة الأعراف].

قد تقدم الكلام في أول سورة البقرة على ما يتعلق بالحروف.

{كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ} [(٢) سورة الأعراف] أي: هذا كتاب أنزل إليك أي من ربك {فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ} قال مجاهد وقتادة والسدي: شك منه، وقيل: لا تتحرج به في إبلاغه والإنذار به {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ} [(٣٥) سورة الأحقاف] ولهذا قال: {لِتُنذِرَ بِهِ} أي: أنزلناه إليك لتنذر به الكافرين {وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ} [(٢) سورة الأعراف].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فالكلام على الحروف المقطعة سبق في أول سورة البقرة بشيء من التفصيل، وسبق بيان القول الذي قد يكون أقرب الأقوال، وذلك أن هذه الحروف هي من حروف المعجم -حروف التهجي- وأنها ليس لها معنى في نفسها وأنها تشير إلى الإعجاز بالقرآن، فكأنه يقول: هذا القرآن مركب من هذه الحروف التي تركبون منها الكلام فأتوا بمثله، ولذلك لا تكاد تذكر هذه الحروف إلا ويذكر القرآن أو الوحي بعدها، كما في قوله هنا: **{كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ}** [(٢) سورة الأعراف] وذكرنا أن الحروف المقطعة تمثل نصف الحروف الهجائية وأنها تمثل من الحروف الهجائية أشرفها، وبالنسبة لما عدا ما ذكرنا في معناها فقد ذكر بعض أهل العلم عشرات الأقوال في تفسيرها ولا حاجة إلى التطويل في هذا.

وقوله -تبارك وتعالى-: **{فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ}** [(٢) سورة الأعراف] يقول الحافظ: **"قال مجاهد وقتادة والسدي: شك منه"** وعلى هذا تكون هذه الآية كقوله -تبارك وتعالى-: **{الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ}** [(١٤٧) سورة البقرة] والممتري هو الشاكّ.

يقول: **"وقيل: لا تتحرج في إبلاغه والإنذار به"** أي: لا تتحرج مخافة التكذيب والإيذاء والمخالفة والكفر بما جئت به، كما قال -صلى الله عليه وسلم- في الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه: ((إذن يفلقوا رأسي فيجعلوه خبزةً))[1]، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- كان يتحرج من تكذيبهم حتى أنزل الله عليه مثل هذه الآية.

أو يكون المعنى لا يضيق صدرك لعدم استجابتهم وإيمانهم كما قال الله -عز وجل-: **{فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا}** [(٦) سورة الكهف] فقوله: **{بَاخِعٌ نَّفْسَكَ}** أي: مهلكٌ نفسك، كقوله تعالى: **{فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ}** [(١٢) سورة هود] وكقوله تعالى: **{وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ}** [(٩٧) سورة الحجر] فهذا تفسير للحرج بالضيق، ويدل على أن الحرج يأتي بمعنى الضيق الآية التي سبقت في سورة الأنعام وهي قوله تعالى: **{يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا}** [(١٢٥) سورة الأنعام] وقوله تعالى في سورة الحج: **{وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ}** [(٧٨) سورة الحـج] يعني ما جعل عليكم من ضيق، وإنما وسع عليكم بتيسير هذه الشريعة.

الخلاصة أن المعنى الأول لقوله: **{فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ}** [(٢) سورة الأعراف] يعني لا يكن في صدرك شك منه، والمعنى الثاني لا يكن في صدرك ضيق مما يقع بسبب تكذيب المكذبين.

والحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا ذكر القول الأول، فإن كان المختصر دقق في نقل عبارة ابن كثير حيث ذكر القول الآخر بـــ قيل، أي إن كان كذلك في الأصل فمعنى ذلك أن الحافظ -رحمه الله- يرجح القول بأنه الشك.

وبالنسبة لكبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- فقد جمع بين المعنيين، وهذا وجه حسن من التفسير، وذلك أن القرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، فقد تكون الكلمة في الآية تحتمل معنيين وكل معنىً من هذه المعاني يشهد له آيٌ من القرآن وفي هذه الحال تحمل الآية على ذلك جميعاً، ولذلك يقال في قوله تعالى: **{فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ}** [(٢) سورة الأعراف] أي: لا يكن فيه شك ولا ضيق.

والجمهور من المفسرين يفسرون الحرج بالضيق، وكأن الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- يميل إلى تفسيره بالضيق أيضاً.

يقول ابن كثير: **"ولهذا قال: {لِتُنذِرَ بِهِ} [(٢) سورة الأعراف]"** أي: أنزلناه إليك لتنذر به الكافرين، كما قال الله -عز وجل-: **{وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا}** [(٩٧) سورة مريم] وقوله تعالى: **{فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى}** [(١٤) سورة الليل].

قال تعالى: **{لِتُنذِرَ بِهِ}** [(٢) سورة الأعراف] ولم يذكر المنذَر ولا المنذَر منه أي لم يذكر المفعول الأول ولا المفعول الثاني، لكن المراد معلوم أي لتنذر به هؤلاء الكافرين الذين يخاصمون خصومةً شديدة في الحق ويردونه مع وضوح دلائله، وتنذرهم من عذاب النار كما قال تعالى: **{فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى}** [(١٤) سورة الليل] وكما قال: **{لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِن لَّدُنْهُ}** [(٢) سورة الكهف].

وعلى كل حال الإنذار في القرآن يأتي عاماً كما في قوله تعالى: **{لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ}** [(١٩) سورة الأنعام] فالنبي -صلى الله عليه وسلم- منذرٌ بهذا القرآن لجميع الناس سواء الأبيض أو الأحمر أو الأسود.

---

[1] - أخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها - باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (٢٨٦٥) (ج ٤ / ص ٢١٩٧).

ويأتي الإنذار أيضاً بمعنىً خاص وهو إنذار المكذبين، وأما أهل الإيمان والتصديق والانقياد فإنه يبشرهم، وبهذا الاعتبار يكون القرآن منذراً لقومٍ ومبشراً لآخرين كما قال الله -عز وجل -: {فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا} [(٩٧) سورة مريم] فهذا بالنظر إلى الإطلاق الثاني للإنذار وهو أنه يأتي للمكذبين خاصة.

ومن الإنذار العام قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ} [(١-٢) سورة المدثر] يعني أنذر جميع الناس.

وأصل الإنذار في كلام العرب هو إعلامٌ خاص، فهو الإعلام المقترن بتهديد، وبهذا الاعتبار يكون الإنذار إعلاماً خاصاً، فكل إنذار إعلام وليس كل إعلامٍ إنذاراً، فحينما تخبر إنساناً بقولك: جاء زيد فهذا إعلام وليس إنذاراً، وحينما تقول لإنسان: الموت قريب والساعة حق، والله -عز وجل- قد أعد النار للمكذبين، فهذا كله من الإعلام لكنه إعلامٌ خاص، وحينما تقول لإنسان: سترى مغبة فعلك وعاقبة جريرتك، فهذا كله إعلامٌ يقال له إنذار؛ لأنه إعلام مقترن بالوعيد والتهديد.

وعلى كل حال فإن قوله -تبارك وتعالى- في هذه الآية: {فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ} أي: لا يكن فيه شكٌ ولا ريب ولا ضيق من تبليغ الناس به وما تضمنه.

وقوله: {لِتُنذِرَ بِهِ} [(٢) سورة الأعراف] أي: من أجل الإنذار.

وإذا قلنا: إن الحرج بمعنى الشك فيكون ذلك متوجهاً إلى الأمة بحيث لا يقع من أحد شك في هذا القرآن بحال من الأحوال، ومن آمن ببعض القرآن وكفر ببعض فإنه يكون في صدره شيء من الحرج بقدر ما رد منه وكذّب، كما يقول الحافظ ابن القيم -رحمه الله-: من لم يؤمن بأسماء الله وصفاته ففي صدره حرجٌ منه؛ لأن القرآن دل على هذه الأشياء، ومن لم يرض بالقرآن حاكماً يتحاكم إليه، فإنه قد وقع في صدره حرجٌ منه، ومن شك في أخباره فقد وقع في صدره حرجٌ منه، والناس يتفاوتون في ذلك.

ثم قال تعالى مخاطباً للعالم {اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ} [(٣) سورة الأعراف] أي اقتفوا آثار النبي الأمي الذي جاءكم بكتاب أنزل إليكم من رب كل شيء ومليكه {وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء} [(٣) سورة الأعراف] أي لا تخرجوا عما جاءكم به الرسول إلى غيره فتكونوا قد عدلتم عن حكم الله إلى حكم غيره.

هذه الآية {وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء} [(٣) سورة الأعراف] تدل على أن كل من لم يتبع القرآن فهو متبعٌ لأولياء من دونه، فليس هناك إلا اتباع القرآن واتباع الرسول -صلى الله عليه وسلم- أو اتباع الأولياء، فليس هناك شيء وسط بين هذا وهذا.

{قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ} [(٣) سورة الأعراف] كقوله: {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} [(١٠٣) سورة يوسف] وقوله: {وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ} الآية [(١١٦) سورة الأنعام] وقوله: {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ} [(١٠٦) سورة يوسف].

{وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ * فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا إِلاَّ أَن قَالُواْ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ * فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ} [(٤-٧) سورة الأعراف].

يقول تعالى: {وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا} أي: بمخالفة رسلنا وتكذيبهم، فأعقبهم ذلك خزي الدنيا موصولاً بذلّ الآخرة، كما قال تعالى: {وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} [(١٠) سورة الأنعام] وكقوله: {فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ} [(٤٥) سورة الحـج] وقال تعالى: {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ} [(٥٨) سورة القصص].

وقوله: {فَجَاءهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ} [(٤) سورة الأعراف] أي: فكان منهم من جاءه أمر الله وبأسه ونقمته {بَيَاتًا} أي: ليلاً.

{أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ} من القيلولة وهي الاستراحة وسط النهار، وكلا الوقتين وقت غفلة ولهو كما قال: {أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَآئِمُونَ * أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ} [(٩٧ -٩٨) سورة الأعراف] وقال: {أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُواْ السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللّهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} [(٤٥ -٤٧) سورة النحل].

وقوله: {فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا إِلاَّ أَن قَالُواْ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ} [(٥) سورة الأعراف] أي: فما كان قولهم عند مجيء العذاب إلا أن اعترفوا بذنوبهم وأنهم حقيقون بهذا.

قوله تعالى: **{فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ}** [(٥) سورة الأعراف] فسره بعض أهل العلم بالدعاء كما قال الله -عز وجل -: **{دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ}** [(١٠) سورة يونس] أي: دعاؤهم، وفسره آخرون بالادعاء، يعني أنهم اعترفوا وأقروا بأنهم كانوا على باطل وأن المعبودات التي كانوا يعبدونها من دون الله لا حقيقة لها ولا نصيب لها في الإلهية، وأقروا على أنفسهم أنهم كانوا على ظلمٍ وباطلٍ.

وهذا المعنى في قوله: **{قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ}** [(١٤) سورة الأنبياء] بينه الله -عز وجل- في الآيات الأخرى، كقوله: **{وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ * لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ}** [(١١ -١٥) سورة الأنبياء] فهذه هي دعواهم، وأخذ من هذا بعض أهل العلم أن الله -عز وجل- قد بعث لجميع الأمم رسلاً فلم يعذبهم حتى جاءهم الرسل -عليهم الصلاة والسلام- لأنهم أقروا على أنفسهم بالظلم ولم يحتجوا فيقولوا: ما جاءنا من رسول وإنما قالوا: **{إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ}** [(١٤) سورة الأنبياء] بمعنى أنه قد بلغهم ما تقوم عليهم به الحجة، ولم يعذبهم حتى بعث إليهم رسولاً فكذبوه.

كقوله تعالى: {وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً} [(١١) سورة الأنبياء] إلى قوله: {خَامِدِينَ} [(١٥) سورة الأنبياء].

وقوله: {فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ} الآية [(٦) سورة الأعراف] كقوله: {وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ} [(٦٥) سورة القصص].

هذا سؤال متوجه للمرسل إليهم: ماذا أجبتم المرسلين؟ وهذا من النماذج والأمثلة الواضحة جداً في تفسير القرآن بالقرآن، وقد ذكرنا مراراً أن تفسير القرآن بالقرآن يدخله اجتهاد المفسر وبالتالي قد يصيب وقد يخطئ، لكن توجد أمثلة تكون في غاية الوضوح، فقوله: {فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ} [(٦) سورة الأعراف] أي: {مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ} [(٦٥) سورة القصص].

وقوله: {وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ} [(٦) سورة الأعراف] أي يُسأل الرسل -عليهم الصلاة والسلام- عن البلاغ، إلا أن هذا السؤال ليس سؤال استثبات واستعلام؛ لأن الله -عز وجل- لا تخفى عليه خافية، وإنما المقصود بذلك معنىً آخر، وحينما يقال لهؤلاء: {مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ} [(٦٥) سورة القصص] فهذا سؤال تقريع، كما قال الله -عز وجل-: {وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ} [(٢٤) سورة الصافات] وهكذا يقال في مواضع متعددة من القرآن كقوله: {مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ} [(٤٢) سورة المدثر] يعني ما الذي أدخلكم النار؟، فهذه أسئلة تقريع لا أسئلة استثبات واستعلام.

وبالنسبة للمواضع التي نفى فيها السؤال كقوله: {فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ} [(٣٩) سورة الرحمن] فالمعنى أنه لا يسأل سؤال استعلام واستثبات لكن لا ينفي ذلك أنه يسأل سؤال تبكيت، كما أنه لا يسأل سؤال استعتاب من أجل أن يذكر عذره فيقبل منه، لا، وإنما يسأل لتبكيته، فإن من وقع في ورطة ثم قيل له على سبيل التبكيت: ما الذي أوقعك في هذا؟ ألم نقل لك كذا؟ ما الذي أدخلك في هذا؟ فإن هذا يكون فيه مزيداً في ألمه وعذابه.

وقوله: {يَوْمَ يَجْمَعُ اللّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُواْ لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ} [(١٠٩) سورة المائدة].

هذا سؤال للمرسلين {مَاذَا أُجِبْتُمْ} [(١٠٩) سورة المائدة] يعني ماذا أجابكم قومكم؟ كما أنه يسألهم عن البلاغ.

فيسأل الله الأمم يوم القيامة عما أجابوا رسله فيما أرسلهم به، ويسأل الرسل أيضاً عن إبلاغ رسالاته.

هذا كقوله -تبارك وتعالى-: {لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ} [(٨) سورة الأحزاب] فيدخل فيه الرسل -عليهم الصلاة والسلام- هل بلغوا قومهم؟ وماذا بلغوهم؟.

والنبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر في الموقف الأكبر يوم عرفة أننا مسئولون عنه، فقال: ((ماذا أنتم قائلون؟)) فقالوا له -عليه الصلاة والسلام-: نشهد أنك قد بلغت الرسالة وأديت الأمانة، وكان -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((ألا هل بلغت؟)) قالوا: نعم، نشهد أنك قد بلغت، فكان يشير بأصبعه إليهم ويرفعها إلى السماء يقول ((اللهم اشهد))، فالناس يُسألون عن الإجابة، والرسل -عليهم الصلاة والسلام- عن البلاغ.

ويدخل في قوله: {لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ} [(٨) سورة الأحزاب] سؤال أتباع الرسل من الدعاة إلى الله -عز وجل- عن الإيمان وعمَّا يتعلق ببلاغ الناس ودعوتهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر.

ولهذا قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في تفسير هذه الآية: {فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ} [(٦) سورة الأعراف] قال: عمَّا بلغوا.

وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ} [(٧) سورة الأعراف] يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون.

{وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ} [(٧) سورة الأعراف] يعني أنه تعالى يخبر عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا من قليل وكثير وجليل وحقير؛ لأنه تعالى الشهيد على كل شيء لا يغيب عنه شيء ولا يغفل عن شيء بل هو العالم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور، {وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ} [(٥٩) سورة الأنعام].

قوله تعالى: **{فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ}** يعني نخبر بما وقع منهم، فالله -عز وجل- قد أحصى ذلك جميعاً وكتبه كما قال سبحانه: **{وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ}** [(٤٩) سورة الكهف] فهو يخبر الناس بما عملوا ويحاسب كل إنسان -عملت كذا وعملت كذا وعملت كذا- وهذا هو العرض، فإذا نوقش الحساب عذب، وهذا يدل على أن السؤال في قوله: **{فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ}** [(٦) سورة الأعراف] ليس سؤال استعلام واستثبات وإنما هو سؤال تقريع؛ لأن الله -عز وجل- يعلم ما عملوا وما حصل منهم، ولذلك قال بعده: **{فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ}** [(٧) سورة الأعراف].

وهناك جملةً من الآيات التي جاء السؤال فيها للتقريع والتبكيت، منها قوله تعالى: **{مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ}** [(٤٢) سورة المدثر] وقوله تعالى: **{أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ}** [(١٠٥) سورة المؤمنون] وقوله تعالى: **{أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ}** [(٥٠) سورة غافر] فهذا كله للتبكيت، أما سؤال الأمم عن بلاغ الرسل فهذا بالنسبة للمؤمنين ليس سؤال تبكيت، وكذلك حينما أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- أنهم مسئولون عن البلاغ فهذا ليس سؤال تبكيت، لكن حينما يسأل الكفار ويقال لهم **{مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ * فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاء يَوْمَئِذٍ}** [(٦٦) سورة القصص] فهذا سؤال تبكيت.

والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأعراف (٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى - في تفسير قوله تعالى: {وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يِظْلِمُونَ} [(٨ -٩) سورة الأعراف].

يقول تعالى: {وَالْوَزْنُ} أي: للأعمال يوم القيامة {الْحَقُّ} أي: لا يظلم تعالى أحداً، كقوله: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ} [(٤٧) سورة الأنبياء] وقال تعالى: {إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا} [(٤٠) سورة النساء] وقال تعالى: {فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ} [(٥ -١١) سورة القارعة] وقال تعالى: {فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءلُونَ * فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ} [(١٠١ -١٠٣) سورة المؤمنون].

فصل:

والذي يوضع في الميزان يوم القيامة قيل: الأعمال، وإن كانت أعراضاً إلا أن الله تعالى يقلبها يوم القيامة أجساماً، قال البغوي: يروى نحو هذا عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما - كما جاء في الصحيح من أن البقرة وآل عمران يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف[1].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى -: {فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ} [(٨) سورة الأعراف] فسره بعض السلف بالحسنات، أي: فمن ثقلت حسناته، وبعضهم يقول: فمن ثقلت موازينه أي ما يوضع في الموازين فيرجح بالميزان، وهذا بمعنى القول الأول في الواقع -فهو من اختلاف التنوع - أي: هي الحسنات.

وبعضهم يقول: {فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ} [(٨) سورة الأعراف] أي: رجحت كفة على كفة، فهو ميزان حقيقي له كفتان، وهذا أيضاً لا ينافي ما قبله، فإذا وضعت الحسنات والأعمال الصالحة وكانت مرجحة لإحدى الكفتين فإن العبد يكون ناجياً.

ولا شك أن الأعمال توضع في ميزان حقيقي له كفتان، وهذا الذي عليه عامة أهل العلم من السلف -رضي الله تعالى عنهم - وهو الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله - عند تفسير هذه الآية، والمسألة معروفة في كتب

---

[1] - أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة (٨٠٤) (ج ١ / ص ٥٥٣).

العقائد، وقد دلت الأدلة على أن هذا الميزان ميزانٌ حقيقي، فقد جاء في الحديث: ((ما وضع في الميزان شيء أثقل من حسن الخلق))[٢] وجاء في الحديث أيضاً: ((يؤتى يوم القيامة بالرجل السمين فلا يزن عند الله جناح بعوضة))[٣].

وجاء كذلك حديث السجلات المليء بالأعمال السيئة المشهور بحديث البطاقة، حيث توضع في كفة الحسنات تلك البطاقة المكتوبٌ عليها "لا إله إلا الله" فترجح، وتطيش الكفة التي فيها السجلات التي دونت فيها تلك السيئات.

والمقصود أن الميزان هو ميزان حقيقي توضع فيه الأعمال، وأما قول من قال: إن الله -عز وجل- لا حاجة به إلى ذلك، وإنما يزن من لا يعرف مقادير الأشياء على حقيقتها، فهذا قولٌ معارضٌ للنصوص؛ فالله -تبارك وتعالى- لا شك أنه قد أحصى كل شيء عداً وقدراً، ولكن من كمال عدله -سبحانه وتعالى- ومن حكمته البالغة أن جعل الأعمال توزن بالميزان، كما جعل الإنسان ناطقاً شاهداً على نفسه بما عمل مع أن الله قد أحصى عمله، كما جعل أيضاً الأرض شاهدةً عليه، وجعل الجوارح والجلود تشهد على أصحابها، فالله -تبارك وتعالى- حكمٌ عدلٌ حكيم، يفعل ما يشاء لا معقب لحكمه، لكن مثل هذه الأمور إذا ثبتت عن الشارع فإنه يجب التسليم لها دون معارضتها بالعقول، مع أن ذلك لا ينافي مقتضى العقول بل هو موافقٌ لها غاية الموافقة.

ويبقى النظر في الشيء الذي يوضع في الميزان هل هي الحسنات والسيئات؟ أم هي السجلات التي تكتب بها الأعمال كما في حديث البطاقة، أم أن الذي يوزن هم الناس للحديث الذي سبق: ((يؤتى يوم القيامة بالرجل السمين فلا يزن عند الله جناح بعوضة))[٤].

إذا جمعت النصوص وحكمت بمقتضاها قلت: إن ذلك كله واقع؛ لأنه ثابتٌ عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فالإنسان يوضع في الميزان، وسجلات الأعمال توضع في الميزان، وتوضع في هذا الميزان الحسنات والسيئات، والله تعالى أعلم.

ومن ذلك في الصحيح: قصة القرآن وأنه يأتي صاحبه في صورة شاب شاحب اللون فيقول: ((من أنت؟ فيقول: أنا القرآن الذي أسهرت ليلك وأظمأت نهارك))[٥].

أورد -رحمه الله- هذا الحديث ليرد على من يقول: إن الأعمال -الحسنات والسيئات- أعراض وليست جواهر؛ وهذه من عبارات أهل المنطق حيث يقولون: الإنسان جوهر، والضحك عرض، والكلام عرض،

---

[2] - أخرجه البخاري في كتاب الأدب (٢٧٠) (ج ١ / ص ١٠٣) والترمذي في كتاب البر والصلة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- باب ما جاء في حسن الخلق (٢٠٠٣) (ج ٤ / ص ٣٦٣) وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (ج ١ / ص ١٢٢).

[3] - أخرجه البخاري في كتاب التفسير – باب تفسير سورة الكهف (٤٤٥٢) (ج ٤ / ص ١٧٥٩) ومسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم (٢٧٨٥) (ج ٤ / ص ٢١٤٧).

[4] - الحديث السابق نفسه.

[5] - أخرجه ابن ماجه في كتاب الأدب - باب ثواب القرآن (٣٧٨١) (ج ٢ / ص ١٢٤٢) وأحمد (٢٣٠٢٦) (ج ٥ / ص ٣٥٢) وقال شعيب الأرنؤوط: " إسناده حسن في المتابعات والشواهد ".

والسرور والانشراح عرض، والحزن عرض، والخوف عرض، فهذه الأشياء ليست متشخصةً في الخـــارج فهم يسمونها أعراض.

ويقولون: الفرس جوهر، والمسجد جوهر، واللذة عرض، وهكذا، ومن هنا فهم يقولون: إن الأعمال أعراض، والأشخاص الذين يعملون جواهر، والأعراض لا توزن، هكذا زعموا، وهذا الكلام غير صحيح؛ لأنه ثبت في الحديث أن القرآن يأتي يحاجّ عن صاحبه بصورة معينة، وثبت أن البقرة وآل عمران تأتيان كأنهما غمامتـــان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف، والله -عز وجل- على كل شيء قدير، لا يعجزه أن يزن الأعـــراض ولا يعجزه أن يقلب الأعراض إلى جواهر، ومثل هذه الفلسفات إنما نشأت عن أهل الكـــلام ومَـــن شـــابههم ووافقهم فهم يعترضون على النصوص بمثل هذه الآراء والأفكار التي أنتجتها عقولهم والله المستعان.

وفي حديث البراء –رضي الله تعالى عنه - في قصة سؤال القبر: ((فيأتي المؤمنَ شابٌّ حسن اللون طيـــب الريح فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا عملك الصالح)) وذكر عكسه في شأن الكافر والمنافق[6].

وقيل يوزن كتاب الأعمال كما جاء في حديث البطاقة في الرجل الذي يؤتى به ويوضع له في كفـــة تـــسعة وتسعون سجلاً كل سجل مدّ البصر ثم يؤتى بتلك البطاقة فيها "لا إله إلا الله" فيقول: يا رب وما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول الله تعالى: إنك لا تظلم، فتوضع تلك البطاقة في كفة الميـــزان، قـــال رســـول الله -صلى الله عليه وسلم -: ((فطاشت السجلات وثقلت البطاقة))[7] رواه الترمذي بنحو من هذا وصححه.

وقيل يوزن صاحب العمل كما في الحديث: ((يؤتى يوم القيامة بالرجل السمين فلا يـــزن عنـــد الله جنـــاح بعوضة))[8] ثم قرأ: {فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا} [(١٠٥) سورة الكهف].

وفي مناقب عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه - أن النبي -صلى الله عليه وسلم - قال: ((أتعجبون من دقة ساقيه، والذي نفسي بيده لهما في الميزان أثقل من أحد))[9].

وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار بأن يكون ذلك كله صحيحاً، فتارةً توزن الأعمال وتارة تـــوزن محالهـــا، وتارة يوزن فاعلها، والله أعلم.

هذا هو الجمع الصحيح وهو الذي قرره الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- وهو قول عامة المحققين، وهو الحكم بمقتضى هذه النصوص جميعاً فلا يرد شيء، وهذا من كمال عدل الله -جل جلاله-.

قال تعالى: **{فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يِظْلِمُونَ}** [(٨-٩) سورة الأعراف] أي: من رجحت حسناته على سيئاته فهذا هو المفلح الذي ينجـــو عند الله -عز وجل-، والفلاح هو إدراك المطلوب، والنجاة من المرهوب، والعبرة برجحان الحسنات علـــى السيئات، فهو بحسب ما غلب عليه.

---

[6] - أخرجه أحمد (١٨٥٥٧) (ج ٤ / ص ٢٨٧).

[7] - أخرجه الترمذي في كتاب الإيمان - باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله (٢٦٣٩) (ج ٥ / ص ٢٤) وابن ماجه في كتاب الزهد - باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة (٤٣٠٠) (ج ٢ / ص ١٤٣٧).

[8] - سبق تخريجه.

[9] - أخرجه البزار (ج ١ / ص ٢٩٤) والطبراني في الكبير (٨٤٧٣) (ج ٩ / ص ٧٨).

ومن رجحت سيئاته على حسناته فإنه يكون تحت مشيئة الله -عز وجل - إن كان محققاً للإيمان الواجب، فالله -تبارك وتعالى - يغفر له إن شاء، وقد لا يدخل النار بشفاعة، وقد يدخل النار ثم يخرج منها بعد ذلك بشفاعة أو برحمة أرحم الراحمين، وأما من لم يحقق الإيمان الواجب ممن وقع في الشرك الأكبر أو نحو ذلك فإن هؤلاء يدخلون النار ولا يخرجون منها أبداً.

ومن تساوت حسناتهم وسيئاتهم فكثيرٌ من أهل العلم قالوا إن هؤلاء هم أصحاب الأعراف الذين يوقفون كما سيأتي في قوله -تبارك وتعالى -: {وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ} [(٤٦) سورة الأعراف] مع أن الآية فيها أقوالٌ غير هذا، فالله تعالى أعلم.

يقول تعالى: {وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يِظْلِمُونَ} [(٩) سورة الأعراف] في قوله: {بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يِظْلِمُونَ} الباء للسببية، أي بسبب ظلمهم لآيات الله -عز وجل - وهذا الظلم يكون بالتكذيب والرد والمعارضة وما أشبه ذلك، فهذه الآية يؤخذ من عمومها أن الكفار توزن أعمالهم أيضاً، أي أن الوزن ليس لأهل الإيمان فقط بل حتى الكفار توضع أعمالهم في الميزان، وليس لهم حسنات عند الله -عز وجل -؛ لأنه يعجل لهم ذلك في الدنيا حتى إذا جاءوا عند الله -عز وجل - جاءوا ليس لهم حسنة، لكن عموم هذه الآية في ظاهرها يدخل فيه الكفار بهذه الصفة أي أنهم خسروا أنفسهم بظلمهم بآيات الله -تبارك وتعالى - ثم بعد ذلك تنشر الصحف وتوزع الكتب على أصحابها فآخذٌ كتابه بشماله وآخذٌ كتابه بيمينه.

{وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ} [(١٠) سورة الأعراف] يقول تعالى ممتناً على عبيده فيما مكَّن لهم من أنه جعل الأرض قراراً وجعل فيها رواسي وأنهاراً وجعل لهم فيها منازل وبيوتاً، وأباح لهم منافعها، وسخر لهم السحاب لإخراج أرزاقهم منها، وجعل لهم فيها معايش أي مكاسب وأسباباً يكسبون بها ويتجرون فيها ويتسببون أنواع الأسباب، وأكثرهم مع هذا قليل الشكر على ذلك، كقوله: {وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ} [(٣٤) سورة إبراهيم].

في قوله تعالى: {وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ} [(١٠) سورة الأعراف] أي جعلناكم متمكنين.

وقوله تعالى: {وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ} [(١٠) سورة الأعراف] كقوله -تبارك وتعالى -: {فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاء صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا} [(٢٤-٢٩) سورة عبس] إلى آخر ما ذكر الله -عز وجل - فهذا من المعايش التي أشارت إليها هذه الآية، وكما قال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاء إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ} [(٢٧) سورة السجدة] وما شابه ذلك من الآيات التي توضح هذا المعنى، وهو كيف جعل الله -عز وجل - لنا في هذه الأرض معايش.

وقد قرأ الجميع معايش بلا همز، إلا عبد الرحمن بن هرمز الأعرج فإنه همزها، والصواب الذي عليه الأكثرون بلا همز؛ لأن معايش جمع معيشة من عاش يعيش عيشاً ومعيشة.

قراءة **(معائش)** بالهمز هي قراءة سبعية وليست قراءة عبد الرحمن بن هرمز فقط، لكن القراءة التي عليها عامة السبعة بالياء، والقراءة سنةٌ متبعة كما هو معلوم فإذا ثبتت فالقاعدة أنه لا يجوز محاكمتها إلى قاعدةٍ لغوية أو نحوية وإن كانت مائة قاعدة، وهل تؤخذ القواعد أصلاً إلا من القرآن وسنة النبي -صلى الله عليه

وسلم -؟ بل أخذ اللغات والقواعد من القرآن والسنة أفضل وأكمل آلاف المرات من أخذها من قول شاعرٍ مجهول لا يدرى من هو ممن يحتجون بقوله على صحة لغةٍ من اللغات.

فاستثقلت الكسرة على الياء فنقلت إلى العين فصارت مَعيشة، فلما جمعت رجعت الحركة إلى الياء لزوال الاستثقال، فقيل معايش ووزنه مفاعل؛ لأن الياء أصلية في الكلمة بخلاف مدائن وصحائف وبصائر جمع مدينة وصحيفة وبصيرة من مدنَ وصحفَ وأبصرَ، فإن الياء فيها زائدة، ولهذا تجمع على فعائل وتهمز لذلك، والله أعلم.

{وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ} [(١١) سورة الأعراف] **ينبه تعالى بني آدم في هذا المقام على شرف أبيهم آدم، ويبين لهم عداوة عدوهم إبليس، وما هو منطوٍ عليه من الحسد لهم ولأبيهم آدم ليحذروه ولا يتبعوا طرائقه فقال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ}** [(١١) سورة الأعراف] **وهذا كقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ}** [(٢٨ -٢٩) سورة الحجر] **وذلك أنه تعالى لما خلق آدم -عليه السلام- بيده من طين لازب وصوَّره بشراً سوياً ونفخ فيه من روحه أمر الملائكة بالسجود له تعظيماً لشأن الرب تعالى وجلاله، فسمعوا كلهم وأطاعوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين.**

وقد تقدم الكلام على إبليس في أول تفسير سورة البقرة، فدلَّ على أن المراد بذلك آدم، وإنما قيل ذلك بالجمع؛ لأنه أبو البشر، كما يقول الله تعالى لبني إسرائيل الذين كانوا في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم-: {وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى} [(٥٧) سورة البقرة] **والمراد آباؤهم الذين كانوا في زمن موسى -عليه السلام- ولكن لما كان ذلك منَّةً على الآباء الذين هم أصلٌ صار كأنه واقع على الأبناء.**

يعني أن الخطاب في قوله تعالى: **{وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ}** [(١١) سورة الأعراف] جاء بصيغة الجمع فهل المقصود به آدم -صلى الله عليه وسلم- أم جميع الناس؟

الخلق والتصوير لا شك أنه واقع لجميع الناس، فالله -عز وجل- خلقهم ثم صورهم، وقد تمدَّح -تبارك وتعالى- بأنه هو الخالق البارئ المصور لكن في الآية قرينة تدل على أن المراد بهذا الخطاب الذي جاء بصيغة الجمع هو آدم -صلى الله عليه وسلم-؛ لأنه عقبه بقوله: **{ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ}** [(١١) سورة الأعراف] أي: خلقنا أباكم آدم -صلى الله عليه وسلم- وصورناه بعد الخلق ثم قلنا للملائكة اسجدوا له، ويوضح هذا الآيةُ التي ذكرها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- وهي قوله -تبارك وتعالى: **{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ}** [(٢٩) سورة الحجر] هذا معنى **{وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ}** [(١١) سورة الأعراف] ويؤيد هذا أيضاً القاعدة المعروفة وهي أن الخطاب يكون متوجهاً للأبناء فيما وقع للآباء؛ لأن المنة على الآباء متوجهةٌ للأبناء، كما أن المذمة الواقعة على الآباء متوجهةٌ للأبناء إن كانوا على طريقتهم، كما في قوله تعالى: **{وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى}** [(٥٧) سورة البقرة] مع أن ذلك إنما وقع لأجدادهم كما قال

تعالى: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَىَ طَعَامٍ وَاحِدٍ} [(٦١) سورة البقرة] وكما قال: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً} [(٥٥) سورة البقرة] فهذا إنما وقع من الأجداد، فلما كانوا على طريقتهم صاروا في حكمهم، فصارت هذه المذمة لاحقةً لهم وواقعةً عليهم، وهنا يمتن الله على الناس فيقول: {وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ} [(١١) سورة الأعراف] فهذا تفضيل لآدم، وهذا التفضيل يلحق ذريته.

وهذا بخلاف قوله: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ} الآية [(١٢) سورة المؤمنون] فإن المراد منه آدم المخلوق من السلالة وذريته مخلوقون من نطفة، وصحَّ هذا؛ لأن المراد من {خَلَقْنَا الْإِنسَانَ} الجنس لا معيناً، والله أعلم.

قوله: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ} [(١٢) سورة المؤمنون] يعني باعتبار الأصل، فإن المراد منه آدم المخلوق من السلالة وأما الذرية فمن النطف.

ومن أهل العلم من يقول: إن معنى قوله: {وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ} [(١١) سورة الأعراف] أي: نطفاً {ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ} يعني بعد ذلك، لكن هذا القول يأباه قوله بعده: {ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ} [(١١) سورة الأعراف] فإن "ثُمَّ" تدل على التعقيب والتراخي في أصل معناها.

وبعضهم يقول: {خَلَقْنَاكُمْ} أي خلقنا آدم من تراب {ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ} يعني في ظهره.

وبعضهم يقول: إن "ثم" في الآية بمعنى الواو، يعني ولقد خلقناكم ثم صورناكم وقلنا للملائكة اسجدوا لآدم، أي أنها ليست للتعقيب وعلى هذا يكون الخلق والتصوير لعموم الخلق ولا يختص ذلك بآدم في الآية، يعني أن الله ذكر جملةً من الأمور التي يمتن بها على الناس فقال: ولقد خلقناكم ثم صورناكم وقلنا للملائكة اسجدوا لآدم، لكن هذا خلاف الأصل ولا حاجة إليه؛ لأن "ثم" في أصل معناها تفيد التراخي والتعقيب.

وبعضهم يقول: {خَلَقْنَاكُمْ} يعني من ظهر آدم {ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ} أي حينما استخرجناكم من صلبه كأمثال الذر، وأخذنا عليكم الميثاق، لكن يقال: وماذا عن قوله: {ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ}؟ [(١١) سورة الأعراف]، لذلك نقول: لا حاجة لمثل هذا التكلف.

وبعضهم يقول: {خَلَقْنَاكُمْ} أي: خلقنا الأرواح {ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ} أي: الأشباح، يعني أعطي كل إنسان قالباً وجسماً وصورةً تكون فيها هذه الروح.

وبعضهم يقول: {خَلَقْنَاكُمْ} في أصلاب الآباء {ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ} يعني في الأرحام؛ فالتصوير يكون في الأرحام.

وبعضهم يقول: خلقهم في ظهر آدم، ثم صُوروا في الأرحام، والفرق بين هذا القول والذي قبله أن الأول معناه أنهم خُلقوا في ظهور الآباء ثم صُوروا في أرحام الأمهات، والثاني أنهم خُلقوا في ظهر آدم ثم كان تصويرهم في أرحام الأمهات، وهذا كله لا حاجة إليه، وإنما يقال: {وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ} [(١١) سورة الأعراف] أي: خلقنا آدم -صلى الله عليه وسلم- {ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ} آدم -عليه الصلاة والسلام- {ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ} [(١١) سورة الأعراف]، والله أعلم.

{قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ} [(١٢) سورة الأعراف].

قوله تعالى: {مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ} [(١٢) سورة الأعراف] تقديره ما أحرجك وألزمك واضطرك ألا تسجد إذ أمرتك ونحو هذا، قاله ابن جرير، وهذا القول قوي حسن، والله أعلم.

الحافظ ابن كثير وابن جرير -رحمهما الله - فسرا {مَنَعَكَ} بمعنى أحرجك واضطرك، وبهذا الاعتبار لا إشكال في الآية، لكن إذا نظرت إلى لفظة "منع" و"اللام" التي تدل على النفي فإن ذلك قد يكون مشكلاً، وذلك أن المتبادر أن يقال: ما منعك أن تسجد، أو ما منعك من السجود، وهنا قال: {قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ} [(١٢) سورة الأعراف] "ألا" مكونة من "أن" و"لا" أي ما منعك أن لا تسجد، فلفظة "منع" واجتماعها مع "لا" هذا موضع الإشكال، فالكلام بهذا التركيب لا يخلو من إشكال، ولذلك فإن بعض أهل العلم قال: إن "لا" زائدة إعراباً، لكن من حيث المعاني لا يوجد في القرآن شيء زائد، فقالوا: جيء بها للتأكيد وتقوية الكلام؛ بدليل أن الله -عز وجل - قال في الموضع الآخر: {مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ} [(٧٥) سورة ص] بدون "لا" فقالوا: إن قوله: {مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ} [(١٢) سورة الأعراف] يفسره قوله تعالى في الآية الأخرى {مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ} [(٧٥) سورة ص] وهذا كما في قوله -تبارك وتعالى - أيضاً: {لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ} [(٢٩) سورة الحديد] فالمعنى "ليعلم" وذلك أنه ذكر هذا من أجل أن يعلموا، ولهذا نظائر قالوا فيها ذلك، ففي سورة الأنعام مرَّ بنا قوله تعالى: {وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ} [(١٠٩) سورة الأنعام] وذكرنا في بعض توجيهاته قول من قال: وما يشعركم أنها إذا جاءت يؤمنون، وسبق الكلام على هذا وعلى القراءتين وذكرنا أن هذا التوجيه يقال على قراءة فتح همزة "أنّ" وأما على قراءة الكسر فلا إشكال.

وهكذا أيضاً في مثل قوله -تبارك وتعالى -: {وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ} [(٩٥) سورة الأنبياء] أي: وحرامٌ على قريةٍ أهلكناها أنهم يرجعون، وهكذا.

وبعضهم يفسر "منع" هنا بمعنى "قال" ويجعلون "ما" بمعنى "مَن" أي: من قال لك لا تسجد؟ وهذا فيه بُعد، وبعضهم يقول: يعني ما دعاك ألا تسجد، وهذا يشبه قول ابن كثير وابن جرير -رحمهما الله -.

وبعضهم يقول: فيه تقدير محذوف، أي: ما منعك من الطاعة وأحوجك ألا تسجد؟ لكن نقول: الأصل عدم التقدير.

ولذلك لعل أحسن الأقوال وأوضحها قول ابن كثير وابن جرير -رحمهما الله - أي ما حجزك وأحرجك واضطرك، ويليه القول بأنها زائدة إعراباً بدليل الآية الأخرى في سورة ص: {مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ} [(٧٥) سورة ص] فالقرآن يفسر بعضه بعضاً، والله أعلم.

وقول إبليس -لعنه الله -: {أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ} [(١٢) سورة الأعراف] من العذر الذي هو أكبر من الذنب؛ كأنه امتنع من الطاعة؛ لأنه لا يؤمر الفاضل بالسجود للمفضول، يعني -لعنه الله - وأنا خير منه فكيف تأمرني بالسجود له؟

ثم بين أنه خير منه بأنه خُلق من نار، والنار أشرف مما خلقته منه وهو الطين، فنظر اللعين إلى أصل العنصر ولم ينظر إلى التشريف العظيم وهو أن الله تعالى خلق آدم بيده ونفخ فيه من روحه، وقاس قياساً فاسداً في مقابلة نص قوله تعالى: {فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ} [(٢٩) سورة الحجر].

لما سأله ما منعك من السجود؟ قال: أنا خيرٌ منه، مع أن الذي منعه حقيقةً هو الكبر، كما قال تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ} [(٣٤) سورة البقرة] والحامل له على هذا الكبر هو

اعتقاده الفاسد أنه أفضل من آدم، فهو عرف أن هذا السجود للتفضيل والتكريم فقال ما قـال، وأجـاب بهـذا الجواب حيث ذكر سبب علة الامتناع وهو اعتقاده الفاسد الذي أورثه هذا التعاظم، وأما العلة فهي الكبر.

وهذا الموضع يتكلم فيه العلماء كثيراً على القياس الفاسد المصادم للنـصوص، والـذي يـسمونه بـ"فاسد الاعتبار" فكل قياس خالف النص يقال له فاسد الاعتبار، أي: قياس باطل لا حقيقة له ولا صحة له بحالٍ من الأحوال، ولهذا يقولون: أول من قاس قياساً فاسداً مقابل النص هو إبليس، وذلك أن الله تعالى قال له: اسـجد، فرد هذا الأمر بهذا القياس، فهو أول من عارض النص بالرأي والنظر الباطل، وكل من قاس قياسـاً بـاطلاً فاسداً فله نصيبٌ من هذه الصفة، وقد تكلم على هذه المسألة كثير من العلماء منهم الحافظ ابن القـيم -رحمـه الله- في إعلام الموقعين.

والشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- أطال في الكلام على هذه الآية في دروسـه التـي كانـت فـي المسجد النبوي، ففي درس كامل تكلم على القياس والرد على ابن حزم في القياس بكلامٍ رصينٍ متين حتى إنه لما كتب وعرض عليه -رحمه الله- قال: لو لم أسمع هذا بصوتي لما صدقت أني قلته في الدرس، فالله -عز وجل- فتح عليه بأشياء كثيرة، ولذلك يحسن مراجعة ذلك.

والعلماء -رحمهم الله- ردوا على إبليس -لعنه الله- وممن ردَّ عليه ابن القيم وابن كثير والشنقيطي وغيـرهم -رحمهم الله- وقد ردوا عليه من وجوه كثيرة.

فشذَّ من بين الملائكة لترك السجود..

قوله: **"فشذَّ من بين الملائكـة"** لا يفهم منه أن إبليس من الملائكة فهو إنما كان من الجن كما قـال الله -عـز وجل- في سورة الكهف: **{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْـرِ رَبِّهِ}** [(٥٠) سورة الكهف] ثم إنه ذكر أصله هنا فقال: **{خَلَقْتَنِي من نَّارٍ}** [(١٢) سورة الأعراف] والملائكة خلقـوا من النور كما في الحديث الصحيح[١٠].

فشذَّ من بين الملائكة لترك السجود، فلهذا أبلس من الرحمة أي أيس من الرحمة فأخطأ -قبحه الله-.

هذا وجه تسميته بهذا الاسم حيث قيل: إنه مأخوذٌ من الإبلاس وهو بمعنى القنوط واليأس من رحمة الله -عز وجل-.

فأخطأ -قبحه الله- في قياسه ودعواه أن النار أشرف من الطين أيضاً، فإن الطين من شأنه الرزانة والحلم والأناة والتثبت.

هذا من وجوه رد الحافظ على إبليس في قياسه الفاسد، ومعناه أن إبليس كان فهمه خطأ واحتجاجه خطأ، فهـو يقول أنا أشرف منه لأني خلقت من نار وخلق آدم من الطين، فابن كثير -رحمه الله- يقول هذا كـلام غيـر صحيح أيضاً إذا جئنا لمناقشته، وذلك أنه إضافة إلى كونه اعترض على الأمر الذي يفترض مقابلته بالتـسليم والانقياد والإذعان فإن قوله هذا الكلام غير صحيح؛ فليست النار أفضل من الطين بل الطين أفضل من النار؛

10 - سيأتي تخريجه.

لأن الطين من شأنه الرزانة والحلم والأناة والتثبت، وليس المقصود بهذا الكلام أن الحلم صفة أصل الطين وإنما المقصود أن المخلوق من الطين هو الذي من شأنه الحلم والأناة والتثبت خلافاً للذين خلقوا من النار.

ولهذا ذكر شيخ الإسلام مثلاً في بعض المناسبات أن من صفة الجن الخفة والطيش حيث خلقوا من مارج من نار، يعني حتى المسلمين من الجن يوجد فيهم الكذب والظلم والخفة والطيش أكثر من وجوده في المسلمين من الإنس ولذلك تجد الواحد منهم مسلما وربما يزعم أنه من أهل العلم ومع ذلك يتلبس بالإنسان ويؤذيه غاية الأذية بحجج تافهة كأن يقول: إنه جلس في هذا المكان وما سمّى، أو جلس عليَّ أو نحو ذلك!!

والطين محل النبات والنمو والزيادة والإصلاح.

هذه كلها من وجوه تفضيل الطين على النار.

والنار من شأنها الإحراق والطيش والسرعة، ولهذا خان إبليس عنصره، ونفع آدم عنصره بالرجوع والإنابة والاستكانة والانقياد والاستسلام لأمر الله، والاعتراف وطلب التوبة والمغفرة.

كذلك يمكن أن يقال: إن الطين أطول بقاءً من النار، فالنار تبقى بقدر ما فيها من الوقود، ثم تتلاشى وتذهب، أما الطين فهو أبقى منها وأطول، وهو موجود في الجنة، وأما النار فلم يذكر لها وجود في الجنة، بل هي عذاب، والطين ليس بعذاب، والنار أيضاً تحتاج إلى مكان تتحيز فيه، والطين مسجد وطهور، والنار لا مسجد ولا طهور، ومن شأنها الإتلاف بخلاف الطين.

ويمكن أن نرد على إبليس من وجه آخر فنقول: الملائكة خلقوا من نور والنور أشرف من النار ومع ذلك سجدوا، وأنت من نار فحتى لو فرضنا أن النار أفضل من الطين فالملائكة ما اعترضوا بهذا الاعتراض وهم أشرف منك قطعاً، وأنت دونهم حيث خلقت من نار فلماذا تعترض هذا الاعتراض؟

هذا يدل على كبر في نفسه، ظهر حينما أمر بالسجود لآدم، فكانت علة خفية يعلمها الله -عز وجل- ظهرت في هذا المقام، ولهذا فإن الإنسان قد يكون فيه دين وعبادة، أو يكون من أهل العلم، لكن لا تظهر كوامن النفس وما فيها من العلل إلا إذا وجد المحرِّك لذلك، نسأل الله العافية، ولذلك الإنسان دائماً يستعيذ: اللهم إنا نعوذ بك من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا.

فإبليس حسد آدم على هذا التكريم والتفضيل وظهر هذا الحسد حينما أمر الملائكة بالسجود لآدم فامتنع من السجود، وهكذا الإنسان قد يكون في دين وصلاح لكن ما يظهر ما فيه من علة إلا إذا وجد المحرك لها، وهذه مداخل دقيقة جداً في النفس قد لا يعرفها الإنسان من نفسه ولكنها تظهر بعدُ بوجود محركها، وهذا له صور كثيرة جداً، فلو نظرت إلى المنتسبين إلى العلم فقط الذين يفترض أن يكونوا أشرف وأكمل من غيرهم فإنك تجد عند بعضهم من هذه الأمور الخطيرة، وإذا نظرت إلى العلل الكامنة في نفوس كثير من الناس -إلا من وفقه الله -عز وجل- وجاهد نفسه وأصلحها وتنبه لعللها وفتش عنها- تجد من العلل أشياء كثيرة، فالرجل يُثنَى عليه ويُذكر بأوصاف من الكمالات والعلم والعمل والتحقيق والعبادة، فتبدأ تتحرك بعض النفوس التحرك السلبي ويبدأ الحسد وربما يلتمس بعض الحاسدين ما يعيب هذا الإنسان وينقصه، وربما يفرح إذا سمع كلمة حفظها إنسان مما يحط من مرتبته، فلو قال قائل: سمعته يقول كذا وحصل منه مرةً كذا، فإن هذا الحاسد يتنفس من هذا التنقص.

وبعضهم قد يكون فيه من ضعف الدين وخفة العقل ما يجعله لا يتمالك فينطلق لسانه بالعيب والذم والثلب وأمور ربما يلفق معها أشياء من الأكاذيب لينتقص هذا الإنسان، وكل ذلك من الحسد، لكن بعضهم قد يكون فيه ذكاء وعقل فيصل إلى هذا بطرق خفية، وبعضهم يكون فيه دين وخوف من الله -عز وجل- فيبقى هذا في النفس لكنه يحبسه كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: "ما خلا جسد من حسد، ولكن الكريم يخفيه واللئيم يبديه"[١١] فهذه مشاعر إذا وجدت في النفس وما خرجت بقولٍ أو فعلٍ أو غير ذلك مما يصدر من الإنسان فلا يؤاخذ الإنسان عليها، وعليه أن يدافع هذا وينزه قلبه قدر المستطاع، وما يغلب عليه لا يؤاخذ عليه ما لم يصدر منه شيء، فالإنسان يحتاج إلى معرفة مثل هذا، وإلى النظر في نفسه، وعليه أن يفتش في عيوبه، وما أشبه ذلك.

تجد بعض الناس أحياناً قد يدعى إلى مناسبة، ويرى أناسا يقدّمون وربما يكون لهم شيء من الكلمة أو نحو ذلك، وهو يرى أنه أولى منهم أو لا يقل عنهم، ثم ينتهي هذا الحفل أو هذا البرنامج من أوله إلى آخره وما طُلب منه شيء، فإذا خرج بدأ يذكر بعض المثالب والعيوب والملاحظات، ولو قيل له: تكلم، لخرج وهو يثني، والسرور يلوح في وجهه! فالذي جعله يخرج وهو يذكر العيوب -إن كانت هناك عيوب حقيقية- هي شرور النفس حيث ظهرت بعد أن تحركت في نفسه لما رأى غيره يقدم عليه، وكان يظن أنه هو المقدم، وما نفعه العلم إن كان من أهل العلم حقيقةً، وقد لا يكون من أهل العلم أيضاً لكنه يلبس زيهم، فهذه بلوى ابتلى الله -عز وجل- الناس بها، وهذه أمور تحتاج إلى معالجة، فهذا إبليس امتنع وتحركت نفسه بسبب هذا التكريم والتفضيل لآدم.

وهذا لا يختص بأهل العبادة وأهل العلم بل حتى الطلاب الصغار إذا رأوا الأستاذ يعامل أحدهم معاملة طيبة تسلطوا عليه وكرهوه وحسدوه وذموه ولاموه، وهكذا.

تجد الرجل يشتط ويجتهد في الدعوة إلى الله -عز وجل- ويحصل على يده خير كثير، ثم يقدَّم غيره عليه أو يكرم إنسان آخر ويعطى درعاً أو نحو ذلك، فتبدأ تتحرك نفس هذا وربما ينقطع من العمل بالكلية، وإذا تساءلت وبحثت لماذا؟ وما الذي حصل له؟ وجدت أنه يرى أنه يعمل وأن الذي يكرّم غيره، وتحولت المعاني الجميلة التي يدعو إليها، والإخلاص والكلام والصدق وكذا تحولت إلى لا شيء، فالله المستعان.

وفي صحيح مسلم عن عائشة -رضي الله تعالى عنها وأرضاها- قالت: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ((خلقت الملائكة من نور وخلق إبليس من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم))[١٢].

المارج من النار هو اللهب الذي لا دخان فيه، وبعضهم فسره بطرفها الأعلى، وهذا لا شك أنه أخف النار، وليس معنى هذا أن شياطين الجن أو أن الجن عموماً هم نار تتحرك بل هم مثل بني آدم حيث خلقوا من طين فنحن أصلنا من الطين، وهم أصلهم من النار، ومع ذلك يعذبون بالنار في الآخرة وقد يحترقون بها في الدنيا، فلا يلزم أن يكون هذا الاحتراق بالنار المحرقة هذه؛ لأنها قد لا تضرهم، والله تعالى أعلم، وهذا مشاهد في أن الإنسان الذي يتلبسون به قد يأكل الجمر، أعني أولئك الذين يبحثون عن اللهو والطرب ممن تركبهم

---

[11] - مجموع الفتاوى (ج ١٠ / ص ١٢٥).

[12] - أخرجه مسلم في كتاب الزهد والرقاق - باب في أحاديث متفرقة (٢٩٩٦) (ج ٤ / ص ٢٢٩٤).

الشياطين يشاهد أنهم يأكلون الجمر وكذلك من تركبهم الشياطين ممن يتعاطون السحر والشعوذة والدجل على الناس يأكلون الجمر والنار تخرج من أفواههم ولا يحترقون، ويمشي الواحد منهم على النار فمثل هؤلاء قد لا يحترقون بالنار لكن قد يحترقون بشيء آخر كالرقية، والمقصود أن كونهم خلقوا من النار لا يمنع أن يعذبوا في نار جهنم فالإنسان المخلوق من الطين إذا ضرب بلبنة من الطين فإنه قد يموت أو على الأقل يشج رأسه، بمعنى أن الطين يضره ويؤذيه فكذلك هؤلاء خلقوا من نار ثم يعذبهم الله -عز وجل- فيها، والله تعالى أعلم.

وروى ابن جرير عن الحسن في قوله: {خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ} [(١٢) سورة الأعراف] قال: "قاس إبليس وهو أول من قاس" إسناده صحيح.

وروى عن ابن سيرين قال: "أول من قاس إبليس وما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس" إسناد صحيح أيضاً.

المقصود بهذه الآثار المقاييس الباطلة الفاسدة وإلا فإن المقاييس الصحيحة لا إشكال فيها، والله -عز وجل- قال: **{فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ}** [(٢) سورة الحشر] والاعتبار فيه معنى المقايسة، ولهذا فإن حقيقة الاعتبار أن تنتقل من حال هذا الإنسان المعتبر به إلى حالك أنت، فلا تقع فيما وقع فيه، فهو من العبور والمجاوزة حيث ينتقل من حاله إلى حالك ولهذا قيل: العبْرة هي انتقال بصورة من الصور، فهذه النصوص وغيرها مما ورد في ذم القياس المقصود به القياس الفاسد الذي تُعارَض به النصوص، أما القياس الصحيح فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال لعمر -رضي الله عنه- لما سأله عن القبلة للصائم: ((أرأيت لو مضمضت من الماء وأنت صائم))[١٣] فالمضمضة أصل لا إشكال فيه، وليس عند عمر -رضي الله عنه- شبهة في المضمضة أنها لا تؤثر في الصوم، فالمضمضة ماء يدخل إلى الفم والقبلة للصائم مثلها.

وبعض أهل العلم قال: لما كانت المضمضة مقدمة للشرب فالقبلة مقدمة للجماع، ويمكن أن ينظر فيه إلى ملحظ آخر وهو أن القبلة أصلاً في الفم فيخالطه من الريق ما يخالطه وهذا لا يؤثر كما أن المضمضة لا تؤثر، فالقبلة فرع والمضمضة أصل والعلة الجامعة أن هذه مقدمة لمحظور في الصوم، سواء قلنا: مقدمة لمحظور هو ما يحصل في الفم من مخالطة الريق أو قلنا: مقدمة للجماع، فهي مقدمة لمحظور، والحكم هو الجواز والإباحة، فالمضمضة جائزة للصائم لا تؤثر على صومه وكذلك القبلة لا تؤثر وهذا هو الحكم الجامع، وهذا هو القياس، وأمثلة ذلك كثير، والله أعلم.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

---

[13] - أخرجه أبو داود في كتاب الصوم - باب القبلة للصائم (٢٣٨٧) (ج ٢ / ص ٢٨٤) والدارمي في كتاب الصوم - باب الرخصة في القبلة للصائم (١٧٢٤) (ج ٢ / ص ٢٢) وأحمد (١٣٨) (ج ١ / ص ٢١) وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم (٢٣٨٥).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأعراف (٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى - في تفسير قوله تعالى: {قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ * قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ المُنظَرِينَ} [(١٣ -١٥) سورة الأعراف].

يقول تعالى مخاطباً لإبليس بأمر قدري كوني: {فَاهْبِطْ مِنْهَا} أي: بسبب عصيانك لأمري وخروجك عن طاعتي.

{فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا} [(١٣) سورة الأعراف] قال كثير من المفسرين: الضمير عائد إلى الجنة، ويحتمل أن يكون عائداً إلى المنزلة التي هو فيها في الملكوت الأعلى.

{فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ} [(١٣) سورة الأعراف] أي: الذليلين الحقيرين؛ معاملة له بنقيض قصده، ومكافأة لمراده بضده، فعند ذلك استدرك اللعين وسأل النظرة إلى يوم الدين.

{قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ المُنظَرِينَ} [(١٤ -١٥) سورة الأعراف] أجابه تعالى إلى ما سأل لما له في ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة التي لا تخالف ولا تمانع ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب.

{قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ} [(١٦ -١٧) سورة الأعراف].

يخبر تعالى أنه لما أنظر إبليس إلى يوم يبعثون واستوثق إبليس بذلك أخذ في المعاندة والتمرد فقال: {فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ} [(١٦) سورة الأعراف] أي: كما أغويتني.

قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما -: كما أضللتني، وقال غيره: كما أهلكتني لأقعدن لعبادك -الذين تخلقهم من ذرية هذا الذي أبعدتني بسببه - على صراطك المستقيم أي: طريق الحق وسبيل النجاة، لأضلنهم عنها لئلا يعبدوك ولا يوحدوك بسبب إضلالك إياي.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

قوله -تبارك وتعالى- عن قول إبليس: {قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ} [(١٦) سورة الأعراف] ذكر هنا قول ابن عباس -رضي الله تعالى عنه -: كما أضللتني، والقول الآخر: كما أهلكتني، والمعنى في هذا يرجع إلى شيء واحد؛ فإن الإغواء بمعنى الإضلال، ومن أضله الله -عز وجل - فقد أهلكه، وهذا هو عين الهلكة والخسار كما هو معلوم، فهذا كله من اختلاف التنوع، ومثل هذا ظاهر من هذه اللفظة والله تعالى أعلم، فالإغواء هو الإضلال، ولا حاجة للتكلف في حمله على المحامل البعيدة، فالله -عز وجل -

يضلُّ من يشاء ويهدي من يشاء فكل ذلك بيده وراجع إلى مشيئته، يضل من أضله بعلم وحكمة ويهدي من هداه بعلم وحكمة، فهو يحكم لا معقب لحكمه، وهذا هو الواجب اعتقاده وهو الذي عليه أهل السنة والجماعة.

قوله: {فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي} [(١٦) سورة الأعراف] يمكن أن تكون الباء هنا للسببية، يعني بسبب إغوائك لي {لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ} [(١٦) سورة الأعراف].

قال مجاهد: {صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ} يعني الحق.

روى الإمام أحمد عن سبرة بن أبي الفاكه -رضي الله تعالى عنه - قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم - يقول: ((إن الشيطان قعد لابن آدم بطرقه، فقعد له بطريق الإسلام، فقال: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك؟، قال: فعصاه وأسلم، قال: وقعد له بطريق الهجرة، فقال: أتهاجر وتدع أرضك وسماءك، وإنما مثل المهاجر كالفرس في الطِّوَل؟، فعصاه وهاجر))[1].

قوله: ((كالفرس في الطوَل)) هذا من كلام إبليس، معناه أنه يقول له: كيف تهاجر وتدع أرضك وسماءك، وإنما المهاجر كالفرس في الطول؟، فهو يثبطه عن الهجرة.

والطِّوَل هو الحبل الذي يربط طرفه في الوتد والطرف الآخر بيد الفرس، فيجول هذا الفرس في حدود هذا الحبل -يجول في طوله- فلا يتعدى هذا النطاق، فالإنسان المهاجر يكون غريباً في البلد الذي هاجر إليه ويكون تحركه وتقلبه فيها قليلاً ولا يكون كأهلها الذين ينطلقون ويتصرفون كيف شاءوا؛ لأنه غريب وعلاقاته بالناس قليلة ومحدودة، ومعارفه قليلة وليس عنده من القرابات والعشيرة والتجارات وما أشبه ذلك مما يكون لأهل ذلك المحل، فالغريب يبقى كأنه يعيش في الظل، ولذلك فالشيطان يقول له: كيف تترك بلدك وتذهب إلى بلد أنت غريب فيه لا تتحرك إلا بنطاق محدود وربما تكون في بيتك فقط لا يعرفك أحد ولا قرابة لك ولا عشيرة ولا قبيلة؟.

((ثم قعد له بطريق الجهاد وهو جهاد النفس والمال، فقال: تقاتل فتقتل فتنكَح المرأة ويقسم المال؟، قال: فعصاه وجاهد)) وقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم -: ((فمن فعل ذلك منهم فمات كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، وإن قتل كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، وإن غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، أو وَقَصته دابة كان حقاً على الله أن يدخله الجنة))[2].

وقوله: {ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ} الآية [(١٧) سورة الأعراف] قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما -: {ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ} أشكّكهم في آخرتهم {وَمِنْ خَلْفِهِمْ} أرغِّبهم في دنياهم {وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ} أشبِّه عليهم أمر دينهم {وَعَن شَمَآئِلِهِمْ} أشهّي لهم المعاصي.

هذا أحد الأقوال في تفسير الجهات الأربع المذكورة في الآية، ما بين أيديهم أي: ما يستقبلون، وهي الآخرة، ومن خلفهم يعني ما يتركونه وراء ظهورهم وهي الدنيا، وعن اليمين يعني الأعمال الطيبة، وعن الشمال

---

[1] - سيأتي تخريجه عند تمامه.

[2] - أخرجه النسائي في كتاب الجهاد - باب ما لمن أسلم وهاجر وجاهد (٣١٣٤) (ج ٦ / ص ٢١) وأحمد (١٦٠٠٠) (ج ٣ / ص ٤٨٣) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (١٦٥٢).

يعني الأعمال السيئة، هكذا قال بعضهم، وبعضهم يقول: ذكر الجهات الأربع؛ لأنها الجهات التي يأتي منها العدوُّ عدوَّه، فهو إما أن يأتي من الأمام أو الخلف أو عن اليمين أو عن الشمال.

عبر بـــ"من" فقال: {مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ} [(١٧) سورة الأعراف] وعبر بـــ"عن" فقال: {وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ} [(١٧) سورة الأعراف] وقد ذكر بعض أهل العلم في وجه المغايرة أن الذي يأتي الشخص من الأمام أو من الخلف يكون متوجهاً إليه بكامل بدنه، أما الذي يأتي من اليمين أو الشمال فإنه يكون منحرفاً عنه لا مواجهاً له، والله تعالى أعلم.

والقول بأن قوله: {مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ} [(١٧) سورة الأعراف] يعني الآخرة هذا تحتمله الآية، لكن القطع به يصعب؛ إذ ليس عليه دليل، ولذلك فإن بعضهم يقول: {مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ} [(١٧) سورة الأعراف] يعني دنياهم، {وَمِنْ خَلْفِهِمْ} [(١٧) سورة الأعراف] يعني عكس القول الأول.

وقوله: {وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ} [(١٧) سورة الأعراف] قيل اليمين الحسنات، والشمال السيئات، يعني أنه يأتيهم من جهة الحسنات فيثبطهم عنها، ويأتيهم من جهة السيئات فيغريهم بها.

وبعضهم يقول: {وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ} [(١٧) سورة الأعراف] يعني من حيث يبصرون ومن حيث لا يبصرون، فالإنسان يبصر ما أمامه ولا يبصر من خلفه مثلاً، وقد لا يبصر عن يمينه ولا عن شماله، وعلى كل حال هذا كله تحتمله الآية، لكن ليس عندنا دليل يحدد أحد هذه المعاني، والمقصود: أنه يأتيه من كل طريق مستطاع لإضلاله، فهو لا يترك سبيلاً لإغوائه إلا سلكه، فإذا كان الإنسان فيه رغبة في الخير حاول أن يثبطه عنه، فإن لم يتثبط عنه حاول أن يفسده عليه، فإن كان فيه ميل إلى الدين والعبادة أوقعه في الغلو، وإذا كان فيه ميل إلى إنكار المنكر والغيرة على الدين أوقعه في شيء من الإفراط، وإن كان فيه ميل إلى النساء فإنه يدخل عليه من هذا الباب، وإن كان له ميل إلى المال فإنه يغويه من هذا الباب وهكذا، يحاول أن يضله، وأن يوقعه في الشرك وترك عبادة الله -عز وجل- بالكلية، فإن لم يستطع فإنه يحرص أن يفسد عليه عمله، فإن لم يستطع فإنه يشغله بالوساوس والخواطر المزعجة، فهو لا يترك سبيلاً يستطيع إيذاءه منه إلا سلكه.

والمراد جميع طرق الخير والشر، فالخير يصدهم عنه والشر يحببه لهم.

وقال الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ} [(١٧) سورة الأعراف] ولم يقل من فوقهم؛ لأن الرحمة تنزل من فوقهم.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ} [(١٧) سورة الأعراف] قال: موحدين.

وقول إبليس هذا إنما هو ظن منه وتوهم، وقد وافق في هذا الواقعَ، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ} [(٢٠-٢١) سورة سبأ].

ولهذا ورد في الحديث الاستعاذة من تسلط الشيطان على الإنسان من جهاته كلها، كما روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر -رضي الله تعالى عنهما - قال: لم يكن رسول الله -صلى الله عليه وسلم - يدع هؤلاء الدعوات حين يصبح وحين يمسي: ((اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسلك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللهم استر عوراتي وآمن روعاتي، اللهم احفظني من بين يديَّ ومن خلفي، وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي)) قال وكيع: من تحتي يعني الخسف، ورواه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم، وقال الحاكم: صحيح الإسناد[٣].

{قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ} [(١٨) سورة الأعراف] أكد تعالى عليه اللعنة والطرد والإبعاد والنفي عن محل الملأ الأعلى بقوله: {اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا} [(١٨) سورة الأعراف].

قال ابن جرير: أما المذءوم فهو المعيب، والذأم -غير مشدد - العيب، يقال: ذأمه يذأمه ذأماً فهو مذءوم.

ويتركون الهمز فيقولون: ذمته أذيمه ذيماً وذاماً، والذام والذيم أبلغ في العيب من الذم.

قال: والمدحور المقصَى والمبعد المطرود.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما نعرف المذءوم والمذموم إلا واحداً.

وقال سفيان الثوري عن أبي إسحاق عن التميمي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما -: {اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا} قال: مقيتاً.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما - صغيراً مقيتاً.

وقال السدي: مقيتاً مطروداً.

وقال قتادة: لعيناً مقيتاً.

وقال مجاهد: منفياً مطروداً.

وقال الربيع بن أنس: مذءوما ً منفياً، والمدحور المصغر.

هذه الأقوال متقاربة وهذا كله من اختلاف التنوع، فإن المذءوم هو المستحق للذم، ومن كان كذلك فهو صغير وهو أيضاً مقيت وذليل، ومن فسره باللعن أو نحو ذلك، فإن ذلك يقع لمن كان مذءوماً، والمدحور أيضاً هو الطريد المبعد، ومن لُعن فهو مدحور، فهذه المعاني التي يذكرها السلف يمكن أن ترجع إلى شيء واحد، ولا حاجة أن يقال: قيل كذا وقيل كذا والراجح هو كذا، بل يقال: المذءوم هو المستحق للذم، أو ينسب إليه الذم، أو هو منسوب إلى الذم، والمدحور هو المبعد يقال: دحره وأبعده وطرده، وإن قلت: لعنه، فاللعن هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله -عز وجل -.

---

[3] - أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٢٠٠) (ص ٤١١) وأبو داود في كتاب الأدب - باب ما يقول إذا أصبح (٥٠٧٦) (ج ٤ / ص ٤٧٩) والنسائي في عمل اليوم والليلة – باب ما يقول إذا أمسى (١٠٤٠١) (ج ٦ / ص ١٤٥) وأحمد (٤٧٨٥) (ج ٢ / ص ٢٥) وابن حبان (٩٦١) (ج ٣ / ص ٢٤١) وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد برقم (٥٠٨).

والمذءوم على المشهور غير المذموم، وإن كان في المعنى يرجع إلى شيء واحد وهو العيب، لكن المذءوم أبلغ في العيب، ولا يكون هذا من باب الهمز والتسهيل، بمعنى أنها نفس الكلمة همزت فقيل: مذءوم ومذموم، وإنما هي على المشهور تختلف، ولهذا قال ابن جرير -رحمه الله -: أما المذءوم فهو المعيب، والذأم -غير مشدد - العيب، يعني المشدد هو الذمّ، فهي مادة أخرى فليست القضية من باب التسهيل والهمز فقط إلا بناء على ما سبق من قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما نعرف المذءوم والمذموم إلا واحداً، يعني المسألة تكون من باب الهمز والتسهيل على هذا القول.

وقوله تعالى: {لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين} كقوله: {قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاء مَّوْفُورًا} [(٦٣) سورة الإسراء].

اللام في قوله: **{لَّمَن تَبِعَكَ}** [(١٨) سورة الأعراف] بعض أهل العلم يقول: هي لام القسم والجواب قوله: **{لأَمْلأنَّ}** [(١٨) سورة الأعراف] وبعضهم يقول: هذه اللام هنا للتوكيد، ولام القسم هي اللام الثانية أي التي في قوله: **{لأَمْلأنَّ}** [(١٨) سورة الأعراف] والله أعلم.

كقوله: {قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاء مَّوْفُورًا * وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً} [(٦٣ -٦٥) سورة الإسراء].

{وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ} [(١٩ -٢١) سورة الأعراف].

يذكر تعالى أنه أباح لآدم -عليه السلام - ولزوجته حواء الجنة أن يأكلا منها من جميع ثمارها إلا شجرة واحدة -وقد تقدم الكلام على ذلك في سورة البقرة - فعند ذلك حسدهما الشيطان وسعى في المكر والوسوسة والخديعة.

يقول تعالى: **{فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ}** [(١٩) سورة الأعراف] في كتب المبهمات وفي كتب التفسير تجد أقوالاً كثيرة في هذه الشجرة ما هي، وهذا كله لا دليل عليه حيث لم يرد تحديدها في كتاب الله -عز وجل -، ولا في سنة رسوله -صلى الله عليه وسلم -، ولو كان في هذا نفع للناس لذكره الله -تبارك وتعالى - ولكن لا خير لهم فيه، فالتنقيب عن مثل هذا والاشتغال به هو اشتغال بما لا يعني.

قال تعالى: **{وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ}** [(٣٥) سورة البقرة] هذا نهي صريح وواضح، وهو يُبعد قول من قال: إن آدم -صلى الله عليه وسلم - قد تأول في أكل الشجرة بأن حمل الأمر على الندب أو النهي على الكراهة، فهذا في غاية التكلف؛ لأن الله -عز وجل - قال: **{وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ}** [(٣٥) سورة البقرة].

يقول الله -عز وجل -: **{فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ}** [(٢٠) سورة الأعراف] الوسوسة في الأصل هي الصوت الخفي، وتقال أيضاً لحديث النفس، والعرب يطلقون ذلك على أشياء أخرى مثل صوت الأساور والحلي إذا

تحركت في يد لابسها، وعلى كل حال فإن ما يلقيه الشيطان ويزينه للإنسان من معصية الله -تبارك وتعالى - أو ما يثبطه ويشغله به عن الطاعة أو ما يشوش عليه فكره، كل ذلك من الوسوسة.

فعند ذلك حسدهم الشيطان وسعى في المكر والوسوسة والخديعة ليسلبهما ما هما فيه من النعمة واللباس الحسن وقال كذباً وافتراء: {مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ} [(٢٠) سورة الأعراف] أي: لئلا تكونا ملكين أو خالديْن هاهنا، ولو أنكما أكلتما منها لحصل لكما ذلكما.

في قوله: {لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا} [(٢٠) سورة الأعراف] يمكن أن تكون هذه اللام للتعليل، يعني لماذا وسوس لهما الشيطان؟ من أجل أن يبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما، ويمكن أن تكون للعاقبة، أي وسوس لهما الشيطان من أجل الإزاغة والإضلال وكان من عاقبة ذلك في النهاية أن آل الأمر إلى أن بدت لهما سوءاتهما من جراء هذه المعصية، لكن القول بأنها للتعليل ربما يكون هو المتبادر، وهذا ليس وحده الذي من أجله وسوس الشيطان لهما، وإنما وسوس لهما من أجل إخراجهما من الجنة، وإضلال آدم وحواء -عليهما السلام -.

وقوله: {لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ} [(٢٠) سورة الأعراف] يعني ما غطي وستر أياً كان هذا الستر سواء كان لباساً أو نوراً يستر العورات، والمقصود أنه انكشف ذلك الستر بعد ذلك بسبب هذه المعصية، وهذا يدل على أن التعري من عمل الشيطان ومن تزيين الشيطان، فآدم -صلى الله عليه وسلم - وحواء كانا كاسيين في الجنة، والذي عراهما هو إبليس، ولهذا قال الله -عز وجل -: {يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا} [(٢٧) سورة الأعراف] وما نشاهده من تعري النساء وإبداء الزينة والعورات في مناسبات شتى في الأفراح أو ما يفعله من لا خلاق له على الشواطئ والمسابح وما أشبه هذا كل ذلك من عمل الشيطان وهو لا شك أنه انسلاخ من الكمال؛ لأن الكمال هو في أخذ الزينة وستر العورة، ولما حصل النقص لآدم -صلى الله عليه وسلم - حصل له مثل هذا، حيث كان في أكمل حال في الجنة، فهؤلاء لا شك أن فيهم من النقص بقدر ما وقع لهم من هذا التعري، وهذا خلافاً لما يزعمون ويظنون ويتوهمون من أن هذا نوع من المدنية والتحضر، وهكذا يفهم كثير من النساء؛ حيث تستحي الواحدة منهن أن تلبس عباءة ضافية؛ لأن غيرها يعيرونها في الكلية وفي المدرسة ويثبطونها عن ذلك بقولهم: إنها قروية وقديمة بل حتى البنت الصغيرة في الابتدائي تبكي وترفض أن تذهب إلى المدرسة بالعباءة؛ لأن البنات يعيبون عليها ذلك ويقولون لها: إن البنت المتمدنة المتحضرة هي التي تلبس لبساً ملفتاً، وهذا من تزيين الشيطان، والله المستعان.

قوله تعالى: {مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ} [(٢٠) سورة الأعراف] قال: **"أي لئلا تكونا ملكين"** وهذا على قول الكوفيين من النحاة، وهذا الإيضاح أو هذا التفسير أسهل وأقرب، كما قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله -، وأما ابن جرير -رحمه الله - فيقول: ما نهاكما ربكما عن هذا الشجرة إلا لئلا تكونا ملكين، أي فأسقطت "لا"؛ لأنها معلومة، وقد مرَّ في بعض الآيات مثل هذا كما في قوله -تبارك وتعالى -: {يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ} [(١٧٦) سورة النساء] يعني لئلا تضلوا، والله أعلم.

وقوله تعالى: {إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ} [(٢٠) سورة الأعراف] هذا أحد المواضع التي يحتج بها من يقول: إن الملائكة أفضل من البشر، ومن ذلك قوله -تبارك وتعالى-: {وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ} [(٥٠) سورة الأنعام] فيقولون هذا يدل على أن الملائكة أفضل، لكن الصواب أن هذه الآيات لا تدل على هذا؛ لأن الملك ليس له شهوات وبناء على ذلك فهو ليس ممتحَناً ومبتلىً كما هو الحاصل للثقلين، وعلى كل حال هذه المسألة لا طائل تحتها، والبحث فيها لا فائدة منه إطلاقاً والاشتغال بها اشتغال بما لا يعني؛ لأن الإنسان لن يستفيد شيئاً إذا عرف أن الملائكة أفضل أو أن صالحي البشر أفضل، لذا ينبغي أن يشتغل بما هو بصدده من العمل ويترك الفضول والبحث عما لا يغنيه شيئاً.

كقوله: {قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى} [(١٢٠) سورة طـه] كقوله: {يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ} [(١٧٦) سورة النساء] أي: لئلا تضلوا {وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ} [(١٥) سورة النحل] أي: لئلا تميد بكم.

{وَقَاسَمَهُمَا} [(٢١) سورة الأعراف] أي: حلف لهما بالله {إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ} [(٢١) سورة الأعراف].

ابن كثير -رحمه الله- يوافق ابن جرير على أن هذا من هذا القبيل أي مما أسقط فيه "لا"؛ لأن المعنى معلوم.

{إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ} [(٢١) سورة الأعراف] فإني من قبلكما هنا وأعلم بهذا المكان، وهذا من باب المفاعلة والمراد أحد الطرفين.

المفاعلة مثل المكاتبة والمقاتلة والمجاهدة وما أشبه ذلك الأصل أن تكون بين طرفين، لكن قد تأتي أحياناً ولا يراد بها ذلك وإنما هي من طرف واحد، مثل قوله هنا: {وَقَاسَمَهُمَا} [(٢١) سورة الأعراف] فالقسم صدر من طرف وهو إبليس، وإن كان بعض أهل العلم يذكر أن آدم وحواء أقسما له بالطاعة، وهو أقسم لهما بأنه صادق وأنه ناصح وعلى هذا يكون القسم قد صدر من طرفين لكن هذا لا دليل عليه فهو بعيد، وإنما صدر القسم من إبليس وحده وإن جاء بصيغة المفاعلة فهذا سائغ كما سبق بيانه.

أي: حلف لهما بالله على ذلك حتى خدعهما، وقد يُخدع المؤمن بالله، وقال قتادة في الآية: حلف بالله إني خلقت قبلكما وأنا أعلم منكما فاتبعاني أرشدكما.

ابن القيم -رحمه الله- ذكر تأويل آدم -صلى الله عليه وسلم- أنه كان من هذه الحيثية بمعنى أنه ما كان يتصور أن أحداً يحلف بالله كاذباً، فانظر إلى هذه الأشياء التي جاء بها إبليس يؤكد هذا الكلام، حيث جاء بمؤكدات متعددة، وهي أنه قاسمهما، أي أقسم بالله، ثم أتى بـــ"إنّ" المؤكدة، وجاء باللام في قوله: "لمن الناصحين" وجاء بلفظ النصح، وكل هذه الأشياء يؤكد بها قوله، وما كان آدم يتصور أن أحداً يحلف بهذه الطريقة بالله -عز وجل- وهو يكذب، فصدقه، وعلى كل حال مهما يكن فالله -عز وجل- قد قدر هذا وقضاه، وهذا الذي وقع من آدم -عليه الصلاة والسلام- لا شك أنه معصية كما قال الله -تبارك وتعالى-: {وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى} [(١٢١) سورة طـه] وهذا أحد الأدلة التي يستدل بها أهل السنة على أن المعاصي تقع من الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- تقع منهم المعاصي، لكن بالنسبة لمسألة الشرك، هل يقع منهم قبل البعثة أو لا يقع؟ فقد قلنا سابقاً: إن الراجح أنهم لا يقعون فيه، حيث ذكرنا ذلك عند الكلام على قول إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- على الكوكب: {هَذَا رَبِّي} [(٧٦) سورة الأنعام].

وأما الكبائر فإنها لا تقع منهم، وإنما التي تقع منهم هي الصغائر لكن لا يصرون عليها، ثم إن هذه الصغائر التي تقع منهم ليست هي الصغائر المدنسة التي تخل بالمروءات، التي يسمونها صغائر الخسة وهي التي تنبئ عن لؤم، فهذه لا تقع من الأنبياء؛ لأنهم أشرف الناس نفساً -عليهم الصلاة والسلام- ولا حاجة للتكلف في دفع المعاصي عنهم مطلقاً كتكلف من يتأولون معصية آدم بقولهم: إن قوله تعالى: **{وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى}** [(١٢١) سورة طــه] هذا من غوى الفصيل، يعني ولد الناقة، بمعنى أنه بشمَ من كثرة ما رضع من الحليب، أي أن آدم أكل من الشجرة حتى انتفخ بطنه من كثرة الأكل، فهذا كلام غير صحيح، ثم إن قيل هذا في "غوى" فأين يذهبون بقوله: **{وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ}** [(١٢١) سورة طــه].

{فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَآنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ * قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [(٢٢ -٢٣) سورة الأعراف].

قوله: **{فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ}** أصل التدلية هي إهباط الشيء من أعلى إلى أسفل، تقول: دلّى دلوه في البئر، وقال تعالى: **{وَجَاءتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ}** [(١٩) سورة يوسف] أي: أنزله في البئر، وتقول: تدلى الرجل من الحصن يعني هبط، وقوله: **{فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ}** من أهل العلم من يقول: أهبطهما عن تلك المنزلة أو المرتبة إلى معصية الله -عز وجل- وهو كقول من قال: أي أوقعهما في الهلاك، أو خدعهما، أو جرأهما، والمعنى أنه صور لهما أمراً لا حقيقة له وزينه حتى أوقعهما فيما أوقعهما فيه.

قوله: **{فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا}** [(٢٢) سورة الأعراف] أي: ظهرت سوءاتهما.

والسوءات هي العورات، وسميت العورة سوءة؛ لأنه يسوء صاحبها ظهورها وانكشافها.

عن أبي بن كعب -رضي الله تعالى عنه- قال: كان آدم رجلاً طوالاً كأنه نخلة سحوق، كثير شعر الرأس.

النخلة السحوق هي الطويلة جداً.

فلما وقع فيما وقع به من الخطيئة بدت له عورته عند ذلك، وكان لا يراها، فانطلق هارباً في الجنة، فتعلقت برأسه شجرة من شجر الجنة فقال لها: أرسليني، فقالت: إني غير مرسلتك، فناداه ربه -عز وجل- يا آدم أمنّي تفر؟ قال: يا رب إني استحييتك، فقد رواه ابن جرير وابن مردويه من طرق عن الحسن عن أبي بن كعب -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- مرفوعاً، والموقوف أصح إسناداً.

إذا صح إسناد الموقوف فمثل هذا يكون له حكم الرفع؛ لأن هذا لا يقال من جهة الرأي، وأبي بن كعب -رضي الله عنه- لا يعرف بالأخذ عن بني إسرائيل.

وعن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ} [(٢٢) سورة الأعراف] قال: "ورق التين" [صحيح إليه] وقال مجاهد: جعلا يخصفان عليهما من ورق الجنة، قال: كهيئة الثوب.

قوله: **{وَطَفِقَا}** الفعل "طفق" من أفعال المقاربة، ومعنى "طفقا" يعني شرعا، تقول: طفق فلان يفعل كذا يعني شرع فيه.

قوله: **{يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ}** [(٢٢) سورة الأعراف] يعني يقطعان الشجر ويلزقانه على العورات، تقول: خصفت النعل إذا وضعت فيه طبقات من الجلد فوق بعض من أجل أن يكون سميكاً يحتمل ما يمر

عليه الماشي، والمقصود أن آدم وحواء صارا يأخذان من ورق الجنة ويلزقانه على عورتهما لسترها بدلاً من اللباس الذي زال عنهما، وهذا يدل على أن الحياء قضية فطرية بدليل أنهما قاما مباشرة بستر العورة؛ فكشف العورة أمر لا يقبله إنسان ذو فطرة حية بدليل أن ذهول المعصية والمصيبة التي وقعت لهما لم تؤثر على انشغالهما بستر العورات مع أنه لا أحد عند آدم غير حواء، فانشغل بهذا، فينبغي أن يتأمل الناس في ذلك فيدعوهم إلى ملازمة الستر والحشمة واللباس اللائق بدلاً من هذا التعري وهذه اللحوم التي تتكشف في أدنى مناسبة وبدون مناسبة، والله المستعان

وقال وهب بن منبه في قوله: {يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا} [(٢٧) سورة الأعراف] **قال: "كان لباس آدم وحواء نوراً على فروجهما لا يرى هذا عورة هذه، ولا هذه عورة هذا، فلما أكلا من الشجرة بدت لهما سوءاتهما" [رواه ابن جرير بسند صحيح إليه].**

قول وهب بن منبه: "**كان لباس آدم وحواء نوراً على فروجهما.**" هذا لا دليل عليه، ولهذا فإن ابن جرير -رحمه الله - لما ذكر هذه الأقوال لم يحدد شيئاً منها بل قال: هذا كله لا دليل عليه، فقد يكون هذا أو هذا أو هذا، والله تعالى أعلم.

ثم إنه لا فائدة من معرفة ذلك هل كان نوراً أو حريراً أو غيره، لكن المهم أن نعرف أن الستر أمر فطري، وأنه مما ينبغي على الإنسان أن يفعله، وأن التعري من عمل الشيطان وتزيينه الذي يدعو إليه.

إن معاقل إبليس في هذه الدنيا كثيرة ومن معاقله وأوكاره دور الأزياء العالمية التي يصممون فيها الأزياء ويصيحون في هذا الخلق صيحة في المغرب يتداعى لها الناس في أقاصي المشرق أن قد ظهرت ألبسة في غاية العري، والله المستعان.

وروى عبد الرزاق عن قتادة قال: "قال آدم: أي رب أرأيت إن تبت واستغفرت، قال: إذن أدخلك الجنة، وأما إبليس فلم يسأله التوبة، وسأله النظرة، فأعطى كل واحد منهما الذي سأله.

وقال الضحاك بن مزاحم في قوله: {رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [(٢٣) سورة الأعراف] **هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه.**

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة الأنعام (١٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى -: ومما يؤيد أنه كان في هذا المقام مناظراً لقومه فيما كانوا فيه من الشرك لا ناظراً قوله تعالى: {وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ * وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ * وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} [(٨٠ -٨٣) سورة الأنعام].

يقول تعالى مخبراً عن خليله إبراهيم -عليه السلام - حينما جادله قومه فيما ذهب إليه من التوحيد، وناظروه بشبه من القول أنه قال: {أَتُحَاجُّونِّي فِي اللّهِ وَقَدْ هَدَانِ} أي: تجادلونني في أمر الله وأنه لا إله إلا هو، وقد بصَّرني وهداني إلى الحق وأنا على بينة منه فكيف ألتفت إلى أقوالكم الفاسدة وشبهكم الباطلة؟!.

وقوله: {وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّي شَيْئًا} [(٨٠) سورة الأنعام] أي: ومن الدليل على بطلان قولكم فيما ذهبتم إليه أن هذه الآلهة التي تعبدونها لا تؤثر شيئاً وأنا لا أخافها ولا أباليها فإن كان لها كيد فكيدوني بها ولا تنظروني بل عاجلوني بذلك.

وقوله تعالى: {إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّي شَيْئًا} [(٨٠) سورة الأنعام] استثناء منقطع أي لا يضر ولا ينفع إلا الله -عز وجل -.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى - عن قول إبراهيم -صلى الله عليه وسلم - لقومه: **{وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّي شَيْئًا}** [(٨٠) سورة الأنعام] هذا الاستثناء -كما قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله - وهو الذي عليه المحققون ومنهم الحافظ ابن القيم - منقطع باعتبار أن المستثنى ليس من جنس المستثنى منه، ويكون المعنى أنهم قالوا له: إن آلهتنا ستخبلك أو تمرضك أو تقتلك أو تُلحق بك ضرراً فقال لهم: إنه لا يخاف من هذه المعبودات أن تلحق به ضرراً **{إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّي شَيْئًا}** فقوله: **{إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّي شَيْئًا}** [(٨٠) سورة الأنعام] لا يرجع إلى ما قبله باعتبار أنه يخاف أن توصل إليه ضرراً مما شاء الله -عز وجل - أن توصله، وإنما المقصود إلا أن يشاء ربي شيئاً من الضرر فيلحقني من مرض أو موت أو فقر أو غير ذلك مما لا تعلق له بهذه الآلهة، أي أنه يقول: أنا لا أخاف من آلهتكم ومعبوداتكم الباطلة ولا أخشى منها ضرراً فهي لا تضر ولا تنفع إلا أن يشاء ربي ضرراً يقع بي فيقع لكن لا يكون واصلاً إليَّ من جهة هذه الآلهة، وبهذا الاعتبار قيل: إن قوله: **{إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّي شَيْئًا}** [(٨٠) سورة الأنعام] هو من قبيل الاستثناء المنقطع.

{وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا} [(٨٠) سورة الأنعام] **أي: أحاط علمه بجميع الأشياء فلا يخفى عليه خافية.**

{أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ} [(٨٠) سورة الأنعام] **أي: فيما بينتُه لكم، أفلا تعتبرون أن هذه الآلهة باطلة فتنزجروا عن عبادتها؟.**

وهذه الحجة نظير ما احتج به نبي الله هود -عليه السلام- على قومه عاد فيما قصَّ عنهم في كتابه حيث يقول: {قَالُواْ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللّهِ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [(٥٣-٥٦) سورة هود].

وقوله: {وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ} [(٨١) سورة الأنعام] **أي: كيف أخاف من هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله {وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا}** [(٨١) سورة الأنعام].

قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وغير واحد من السلف: أي حجة، وهذا كقوله تعالى: {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ} [(٢١) سورة الشورى] **وقوله تعالى: {إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ}** [(٢٣) سورة النجم].

وقوله: {فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} [(٨١) سورة الأنعام] **أي: فأي الطائفتين أصوب؟ الذي عبد من بيده الضر والنفع أو الذي عبد من لا يضر ولا ينفع بلا دليل، أيهما أحق بالأمن من عذاب الله يوم القيامة؟**

قال الله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ} [(٨٢) سورة الأنعام] **أي: هؤلاء الذين أخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له ولم يشركوا به شيئاً هم الآمنون يوم القيامة المهتدون في الدنيا والآخرة.**

قوله تعالى: **{الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ}** [(٨٢) سورة الأنعام] يحتمل أن يكون من تمام قول إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، أي أن إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- قال لهم: **{فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ}** [(٨١) سورة الأنعام] ثم أجاب فقال: **{الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ}** [(٨٢) سورة الأنعام] وإن كانت الآية تحتمل هذا إلا أن غير هذا القول قد يكون أولى منه، أي القول الذي عليه عامة أهل العلم وهو أن ذلك من قول الله -تبارك وتعالى-، قاله على سبيل الفصل بين الفريقين، وذلك أنه لما قال لهم إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- ما قال، حكم الله بينهم فقال: **{الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ}** [(٨٢) سورة الأنعام] وهذا مما يسمونه بالموصول لفظاً المقطوع معنىً، وله نظائر في القرآن ومن ذلك قول الله -عز وجل- فيما جرى من امرأة العزيز: **{ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ}** [(٥٢) سورة يوسف] فهذا الكلام يحتمل أن يكون من تمام كلام امرأة العزيز، فهي قالت: **{الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ}** [(٥١) سورة يوسف] ثم قالت: **{ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ}** [(٥٢) سورة يوسف] فهذا يحتمل أن يكون من كلامها وتقصد به زوجها باعتبار أنها تقول: إنها حصلت مراودة فقط ولم تحصل خيانة بالغيب أكثر من ذلك، كما أنه يحتمل أن يكون من كلامها أيضاً لكن باعتبار أنها أرادت بقولها: **{ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ**

{بِالْغَيْبِ} [(٥٢) سورة يوسف] يوسف -صلى الله عليه وسلم - فهو -عليه الصلاة والسلام - كان في السجن، فحينما طُلب أبى أن يخرج حتى يظهر صدقه وبراءته ونزاهته أمام الناس، فقالت: **{أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ}** [(٥١) سورة يوسف] وعقبت بقولها: **{ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ}** [(٥٢) سورة يوسف] أي إنها تقول: لا أقول فيه إلا الصدق والعدل والحق ولا أفتري عليه في غيبته.

ويحتمل أن يكون قوله: **{ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ}** [(٥٢) سورة يوسف] من كلام يوسف -صلى الله عليه وسلم - والمعنى أنه يقول: **{ذَلِكَ}** يعني أنا طلبت هذا التحقيق ليعلم العزيز أني لم أخنه بالغيب، أي أني أُدخلت السجن بتهمة فلا يمكن أن أخرج من غير أن تظهر براءتي وينكشف الأمر على حقيقته، بل لا بد أن يعرف أني لم أخنه بالغيب، وعلى هذا القول يكون من الموصول لفظاً المقطوع معنىً.

وهذا الأسلوب أنواع ففي قول الله -عز وجل - في سورة الأعراف: **{هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء}** [(١٨٩ -١٩٠) سورة الأعراف] فقوله: **{فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء}** إما أن يكون راجعاً إلى ما قبله باعتبار أن هذا حصل من آدم وحواء أو يكون من الموصول لفظاً المقطوع معنىً باعتبار أن الحديث انتقل إلى الذرية وما وقع عندهم من الإشراك، وأمثلة هذا كثيرة في القرآن، ومنه قوله تعالى هنا في سورة الأنعام: **{الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ}** [(٨٢) سورة الأنعام] فهذا يحتمل أن يكون من قول إبراهيم -عليه الصلاة والسلام - ويحتمل أن يكون من قول الله -عز وجل - باعتبار أنه حكم بين الفريقين، وهذا هو الأقرب وهو الذي عليه عامة المحققين كابن جرير وابن القيم والشنقيطي، وأبعد الأقوال أن هذا من قول الكفار الذين ناظرهم إبراهيم كما يقول بعض المفسرين.

روى البخاري عن عبد الله -رضي الله تعالى عنه - قال: لما نزلت: {وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ} [(٨٢) سورة الأنعام] قال أصحابه: وأينا لم يظلم نفسه؟ فنزلت: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [(١٣) سورة لقمان][1].

وروى الإمام أحمد عن عبد الله -رضي الله تعالى عنه - قال: لما نزلت هذه الآية: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ} [(٨٢) سورة الأنعام] شق ذلك على الناس فقالوا: يا رسول الله، أيُّنا لم يظلم نفسه؟ قال: ((إنه ليس الذي تعنون ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: {يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [(١٣) سورة لقمان] إنما هو الشرك))[2].

هذا وقع للصحابة -رضي الله عنهم - حينما استشكلوا قوله تعالى: **{وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ}** [(٨٢) سورة الأنعام] فقالوا ما قالوا باعتبار ما فهموه من لغتهم وذلك أن لفظة "ظُلم" نكرة في سياق النفي، والنكرة في سياق النفي للعموم، فقوله: **{وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ}** [(٨٢) سورة الأنعام] أي بأي نوع من أنواع الظلم سواء كان ذلك كبيراً أو صغيراً، هذا الذي يفهم من ظاهر الكلام وهو مقتضى لغة العرب، ولكن بيّن لهم النبي -صلى

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب الإيمان - باب ظلم دون ظلم (٣٢) (ج ١ / ص ٢١).

[2] - أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء - باب قول الله تعالى: **{وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ}** [(١٢) سورة لقمان] (٣٢٤٦) (ج ٣ / ص ١٢٦٢) ومسلم في كتاب الإيمان - باب صدق الإيمان وإخلاصه (١٢٤) (ج ١ / ص ١١٤) وأحمد (٣٥٨٩) (ج ١ / ص ٣٧٨) واللفظ لأحمد.

الله عليه وسلم - أن هذا من قبيل العام المراد به الخصوص، أي: أنه نوع خاص من الظلم وهو الشرك، ففسرها لهم النبي -صلى الله عليه وسلم - وهذا من قبيل التفسير النبوي الذي فسر فيه النبي -صلى الله عليه وسلم - القرآن بالقرآن، حيث فسره بآية لقمان، والقاعدة أن التفسير إذا ثبت عن النبي -صلى الله عليه وسلم - فإنه لا يلتفت إلى قول أحد بعده.

والتفسير النبوي نوعان: نوع منه يدخله الاجتهاد وهو ما لم يتعرض فيه النبي -صلى الله عليه وسلم - للآية، فهذا قد يخطئ المفسر وقد يصيب بتفسيره به، ونوع لا يدخله الاجتهاد وهو الذي ذكر فيه النبي -صلى الله عليه وسلم - الآية وفسرها كما في هذه الآية، فهذا من أجلى صوره إذا صحَّ فلا مجال للنظر في قول أحد سواه، وبهذا نعرف جرأة الزمخشري حينما قال عند هذه الآية: إن تفسير الظلم بالشرك مع لفظ اللبس في الآية لا يتأتى -نسأل الله العافية - فهو فهم أن اللبس هو مجرد الخلط وأنه لا يجتمع الشرك مع الإيمان وأن الشرك إذا حدث أفسد الإيمان ولم يُبقِ منه شيئاً، وهذا الكلام غير صحيح؛ لأنه يمكن أن يبقى إيمان مخروم لا ينفع صاحبه كما قال الله -عز وجل -: **{وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ}** [(١٠٦) سورة يوسف] فيوجد في الإنسان إيمان وشرك، وإيمان ونفاق لكن قد يكون هذا الشرك أو النفاق من النوع الأكبر، فهذا من هذا النوع، والله أعلم.

والحافظ ابن القيم -رحمه الله - في تفسير قوله: **{وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ}** [(٨٢) سورة الأنعام] ذكر كلاماً جيداً فقال: إن النبي -صلى الله عليه وسلم - ما قال: ولم يظلموا أنفسهم؛ لأنه لو قال: لم يظلموا أنفسهم فإن ذلك سيتطرق إلى أي نوع من أنواع الظلم ولكن قال: **{وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم}** ولبس الشيء بالشيء تغطيته وإحاطته به من جميع جهاته، ولا يغطي الإيمان ويحيط به ويلبسه إلا الكفر، كما قال الله -عز وجل -: **{بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ}** [(٨١) سورة البقرة] فالخطيئة التي تحيط بالإنسان إنما هي الشرك، فلا يحيط شيء من الذنوب بالإنسان فيكون هالكاً إلا الإشراك بالله -تبارك وتعالى -، فهذا هو القول الذي لا ينبغي العدول عنه بحال من الأحوال، إلا أن يقول قائل: إن هذا المعنى متحقق بلا مرية، لكن قد يكون في الآية أيضاً دلالة على معنىً آخر أعني قوله تعالى: **{وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ}** [(٨٢) سورة الأنعام] وذلك فيما يتعلق بالنجاة وتحقق الخلاص ووجود شيء من الأمن للإنسان في الدنيا والآخرة وأن هذا يحصل للإنسان بالإيمان الصحيح المنجي ولو وُجد عنده ذنوب إذ لا ينتفي عنه الإيمان بالكلية إلا إذا وجد عنده ما يخرم هذا الإيمان من الكفر الأكبر أو النفاق الأكبر أو الشرك الأكبر فهذا لا يبقى عنده شيء من الأمن لانتفاء الإيمان بالكلية، لكن الحكم المعلق على وصف يزيد بزيادته وينقص بنقصانه، فالحكم هنا أن لهم الأمن فهو معلق على وصف هو أنهم آمنوا إيماناً بهذه الصفة بحيث لم يخلطوه بظلم فهذا الحكم يزيد بزيادة الإيمان وينقص بنقصانه، فهو يزيد من أمن الإنسان في الدنيا ويوم القيامة ويزيد من اهتدائه بقدر ما حقق من الإيمان الذي لم يخالطه ظلم ولو بالمعاصي، وذلك أن المعاصي والذنوب تؤثر في أمن الإنسان، فالناس يأتون آمنين يوم القيامة بقدر ما عندهم من تقوى لله -عز وجل - ويكون لهم من الاهتداء بقدر ما عندهم من الإيمان والاستقامة على الصراط المستقيم، ومعلوم أن الذنوب والمعاصي متفرعة من شجرة الكفر، كما أن الطاعات متفرعة من شجرة الإيمان، فالإنسان إذا عمل المعاصي فإنه لا يكون

خارجاً من الإسلام بذلك كما يزعم الخوارج لكن عقيدة أهل السنة أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، فإذا عمل الإنسان المعاصي نقص إيمانه وإذا ازداد من الطاعات ازداد إيمانه، فالناس يتفاوتون في الإيمان وبناء عليه يتفاوتون في الأمن والاهتداء، وقوله: **{أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ}** [(٨٢) سورة الأنعام] يشمل الأمن والاهتداء في الدنيا والأمن والاهتداء في الآخرة، والاهتداء منه الاهتداء إلى معرفة الصواب والحق وما اختلف فيه الناس، والاهتداء على خير الخيرين، والاهتداء بالتوفيق إلى العمل الصالح، والاهتداء إلى العمل بالعلم، والاهتداء أيضاً إلى الثبات على الحق إلى الممات وأن يختم له بذلك، كل هذا من الاهتداء كما قال تعالى: **{اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ}** [(٦) سورة الفاتحة] ومنه الاهتداء بعد الموت عند سؤال الملكين حينما يسألانه فهو يحتاج إلى هداية وتثبيت كما قال تعالى: **{يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللّهُ الظَّالِمِينَ}** [(٢٧) سورة إبراهيم] وكذلك الاهتداء عند الحساب، والاهتداء إلى الصراط، ولهذا قال الله -عز وجل-: **{وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ}** [(٤-٥) سورة محمد] أي: يهديهم بعد ما قتلوا إلى الصراط وعلى الصراط، ويهديهم إلى الجنة ويهديهم إلى منازلهم في الجنة، فهذه هدايات في الآخرة.

كما أن أهل الإيمان يحصل لهم الأمن في الدنيا بقدر إيمانهم وأما المشرك أو الكافر أو العاصي فإنه يختل أمنه واهتداؤه بقدر ما اختل إيمانه، ولذلك فهو يعيش في قلق وتساوره الهموم والأوهام ويعيش في حال من النكد والكدر والتخوف على مستقبله وعلى مستقبل أولاده ولا يدري ما ينتابه، وأما المؤمن فإنه مطمئن النفس قرير العين، وإن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة.

والخلاصة أن الأمن والاهتداء ينتفيان تماماً من الإنسان إذا وجد عنده الإشراك، وينقص من أمنه واهتدائه بقدر ما نقص من إيمانه، هذا تفصيل لو قال به قائل فإن ذلك لا يُعدُّ تكذيباً ورداً لتفسير النبي -صلى الله عليه وسلم- للآية، والله تعالى أعلم.

وقوله: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ} [(٨٣) سورة الأنعام] أي: وجهنا حجته عليهم، قال مجاهد وغيره: يعني بذلك قوله: {وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ} الآية [(٨١) سورة الأنعام].

الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يرى أن الحجة التي آتاها اللهُ إبراهيم على قومه هي قوله: **{وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ}** [(٨١) سورة الأنعام] يعني: أنتم ما خفتم من الله الملك الجبار حيث أشركتم به واجترأتم عليه -عز وجل- غاية الجرأة فكيف تريدون مني أن أخاف من أصنام لا تنفع ولا تضر؟ هذا غير معقول! وهذا القول هو الذي مشى عليه كثير من أهل العلم من المفسرين.

ومنهم من قال: إن الحجة في قوله: **{وَتِلْكَ حُجَّتُنَا}** [(٨٣) سورة الأنعام] مفرد مضاف إلى معرفة وهي الفاعل **{حُجَّتُنَا}** فقالوا: إن الحجة هي ما ذكر الله -تبارك وتعالى- عن قول إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-: **{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ...}** [(٧٥-٧٦) سورة الأنعام] الآيات وفيها أنه قال عن الكوكب والقمر والشمس هذا ربي على سبيل التنزل فاحتج عليهم حتى بيّن لهم بطلان معبوداتهم، فقالوا: هذه المجادلة التي دارت معهم وأوصلته إلى أن يحتج عليهم هي

المقصودة بهذه الآية: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ} [(٨٣) سورة الأنعام] وهذا الذي رجحه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله تعالى-.

والصواب أن الآية تحتمل هذا وهذا، فقول إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-: {وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ} [(٨١) سورة الأنعام] هو من جملة الحجة، وكلامه الذي قبل هذا المتعلق ببيان بطلان معبوداتهم من الأصنام هو أيضاً من جملة احتجاجه عليهم، فهو داخل في الحجة المذكورة في الآية، والله أعلم.

وقد صدقه الله وحكم له بالأمن والهداية فقال: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ} [(٨٢) سورة الأنعام].

يقول ابن كثير: "**وقد صدقه الله وحكم له بالأمن والهداية فقال: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ} [(٨٢) سورة الأنعام]**" معناه أن ابن كثير يعدُّ هذا من قول الله -عز وجل- في الحكم والفصل بين الفريقين، ولعل هذا هو الأقرب والله أعلم، وهذا اختاره الحافظ ابن القيم والشيخ محمد الأمين الشنقيطي وعامة أهل العلم، حيث قالوا: هذا من قول الله -عز وجل- وليس من قول إبراهيم، وذكرنا آنفاً أن أبعد الأقوال قول من قال: إن هذا من قول الكفار.

ثم قال بعد ذلك كله: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} [(٨٣) سورة الأنعام] أي: حكيم في أقواله وأفعاله {عَلِيمٌ} أي: بمن يهديه ومن يضله وإن قامت عليه الحجج والبراهين كما قال: {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ} [(٩٦-٩٧) سورة يونس] ولهذا قال هاهنا: {إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} [(٨٣) سورة الأنعام].

{وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ * وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * ذَلِكَ هُدَى اللّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاء فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ} [(٨٤-٩٠) سورة الأنعام].

يذكر تعالى أنه وهب لإبراهيم إسحاق -عليهما السلام- بعد أن طعن في السن، وأيس هو وامرأته سارة من الولد، فجاءته الملائكة وهم ذاهبون إلى قوم لوط فبشروهما بإسحاق، فتعجبت المرأة من ذلك وقالت: {يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ رَحْمَتُ اللّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ} [(٧٢-٧٣) سورة هود] فبشروهما مع وجوده بنبوته وبأن له نسلاً وعقباً كما قال تعالى: {وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ} [(١١٢) سورة الصافات] وهذا أكمل في البشارة وأعظم في النعمة.

وقال: {فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَقَ يَعْقُوبَ} [(٧١) سورة هود] أي: ويولد لهذا المولود ولد في حياتكما فتقر أعينكما به كما قرت بوالده، فإن الفرح بولد الولد شديد؛ لبقاء النسل والعقب، ولمّا كان ولد

الشيخ والشيخة قد يتوهم أنه لا يعقب لضعفه وقعت البشارة به وبولده باسم يعقوب الذي فيه اشتقاق العقب والذرية، وكان هذا مجازاة لإبراهيم -عليه السلام- حين اعتزل قومه وتركهم ونزح عنهم، وهاجر من بلادهم ذاهباً إلى عبادة الله في الأرض فعوضه الله -عز وجل- عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين من صلبه على دينه؛ لتقر بهم عينه كما قال تعالى: {فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا} [(٤٩) سورة مريم] **وقال هاهنا: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا}** [(٨٤) سورة الأنعام].

وقوله: {وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ} [(٨٤) سورة الأنعام] **أي: من قبله، هديناه كما هديناه، ووهبنا له ذرية صالحة.**

قوله عن يعقوب -صلى الله عليه وسلم-: "**وبولده باسم يعقوب الذي فيه اشتقاق العقب والذرية**" هذا باعتبار أن يعقوب اسم عربي لكن إذا نظرنا إليه باعتبار أنه اسم أعجمي -كما هو الواقع- فلا يقال فيه مثل هذا، والله تعالى أعلم، وقد وُجد في كثير من الأحيان أن المفسرين يذكرون أشياء من هذا القبيل في أسماء الأنبياء وفي تعليلها ومعناها وما أشبه ذلك والواقع أنها أعجمية لا تعلل بمثل هذه التعليلات ولا ينبغي أن يُتكلف فيها هذا التكلف -والله تعالى أعلم- إلا إن قيل: إن هذا الاسم عربي ترجمة لاسم آخر، فربما يقال فيه ذلك لكن المعروف أن أسماء الأنبياء جميعاً أعجمية إلا أربعة وليس يعقوب منهم، لكن قد تكون بصفة في لغة العجم تختلف عن لغة العرب، فيوسف يقولون عنه بالأعجمية "جوزيف" ويعقوب باللاتينية يقولون عنه "جيكو" والحاصل أن العلماء يقولون: إن أسماء الأنبياء كلها أعجمية إلا أربعة، محمد -صلى الله عليه وسلم-، وصالح وشعيب وهود، وهنا ذكر ثمانية عشر نبياً، وإذا كانوا يقررون هذا الأصل ويقولون: إنها أعجمية وأن يعقوب اسم أعجمي، فلا يقال: إنه مشتق من العقب، وأما على قول من يقول بوجود أسماء مشتركة بين اللغات فإنهم لا يقولون ذلك في الأعلام كأسماء الأنبياء وإنما يقولونه في أسماء النكرات كإستبرق ومشكاة وما أشبه ذلك، وبالنسبة لأسماء الأعلام فإنها بالاتفاق تقال كما هي في اللغات وهذا لا إشكال فيه، ولذلك أجمعوا على أن أسماء الأعلام في باب المعرب ثلاثة أنواع: نوع من قبيل الأعلام، فهذا موجود بالاتفاق، ونوع من قبيل النكرة مثل إستبرق ومشكاة وهذا فيه خلاف، ونوع لا خلاف في أنه غير موجود وهو الكلام المركب، فلا يوجد كلام مركب أعجمي في القرآن ، ولهذا قال في المراقي:

ما كان منه مثل إسماعيل	ويوسف قد جاء في التنزيل
إن كان منه واعتقاد الأكثر	والشافعي النفي للمنكر

وأما ما ذكره هنا من أن الله عوضه لما هاجر فهذا المعنى من أراد أن يتوسع فيه فلينظر في مثل كتاب القواعد الحسان لابن سعدي حيث ذكر أمثلة على هذا، تدور على قضية أن من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه، فإبراهيم اعتزل قومه وهجرهم في الله -تبارك وتعالى- فعوضه الله -عز وجل- من العقب والذرية ما ينسيه الوطن والقرابة والعشيرة.

وكل منهما له خصوصية عظيمة، أما نوح -عليه السلام- فإن الله تعالى لما أغرق أهل الأرض إلا من آمن به -وهم الذين صحبوه في السفينة- جعل الله ذريته هم الباقين، فالناس كلهم من ذريته، وأما الخليل

إبراهيم -عليه السلام- فلم يبعث الله -عز وجل- بعده نبياً إلا من ذريته، كما قال تعالى: {وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ} الآية [(٢٧) سورة العنكبوت]، وقال تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ} [(٢٦) سورة الحديد] وقال تعالى: {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَن خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا} [(٥٨) سورة مريم] قوله في هذه الآية الكريمة: {وَمِن ذُرِّيَّتِهِ} [(٨٤) سورة الأنعام] أي: وهدينا من ذريته {دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ} الآية [(٨٤) سورة الأنعام] وعود الضمير إلى نوح؛ لأنه أقرب المذكورين، ظاهر لا إشكال فيه، وهو اختيار ابن جرير، وعوده إلى إبراهيم؛ لأنه الذي سيق الكلام من أجله، حسن لكن يشكل عليه لوط فإنه ليس من ذرية إبراهيم بل هو ابن أخيه ماران بن آزر، اللهم إلا أن يقال: إنه دخل في الذرية تغليباً، وكما قال في قوله: {أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [(١٣٣) سورة البقرة] فإسماعيل عمه دخل في آبائه تغليباً، وكما قال في قوله: {فَسَجَدَ الْمَلآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ} [(٣٠ -٣١) سورة الحجر] فدخل إبليس في أمر الملائكة بالسجود وذُمَّ على المخالفة؛ لأنه كان في تشبه بهم فعومل معالمتهم ودخل معهم تغليباً وإلا فهو كان من الجن، وطبيعته من النار والملائكة من النور.

قوله تعالى: {وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ} [(٨٤) سورة الأنعام] يحتمل أن يكون الضمير عائداً إلى إبراهيم أي: من ذرية إبراهيم داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون، ويحتمل أن يكون من ذرية نوح -صلى الله عليه وسلم- وهذا الذي اختاره ابن جرير واختاره الفراء وابن عطية وجماعة، واحتجوا لذلك بأمور، منها أن يونس -عليه الصلاة والسلام- لم يكن من ذرية إبراهيم وإنما هو من ذرية نوح وكذلك لوط -صلى الله عليه وسلم- هو ابن أخ لإبراهيم -عليهما السلام- وهذا معروف فهو ليس من ذريته.

والذين قالوا: إن الضمير يعود إلى إبراهيم كالزجاج أجابوا عن هذا بأن المحدّث عنه هو إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، وإن كان نوح هو أقرب مذكور والقاعدة أن الضمير يعود إلى أقرب مذكور لكن السياق إنما هو في الحديث والثناء على إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- وما حصل له من إكرام الله -جل وعلا- ثم أجابوا عن أدلة أولائك بأن لوط -صلى الله عليه وسلم- عمه إبراهيم والعم يقال له: أب، ودليل ذلك قول يوسف -صلى الله عليه وسلم-: {وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ} [(٣٨) سورة يوسف] فإسماعيل -عليه الصلاة والسلام- عمه بالاتفاق وليس من أجداده ومع ذلك سماه أباً، وبعض أهل العلم يقول: الخال والد والعم والد، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((الخالة بمنزلة الأم))[٣].

وبعضهم خرج ذلك باعتبار التغليب فقال: هذا مثل قول الله -عز وجل- عن إبليس {فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ} [(٧٤) سورة ص] مع أن إبليس ليس من الملائكة بل هو من الجن لكن توجَّه الأمر إليه

---

[٣] - أخرجه البخاري في كتاب الصلح - باب كيف يكتب هذا ما صالح فلان بن فلان وفلان بن فلان وإن لم ينسبه إلى قبيلته أو نسبه (٢٥٥٢) (ج ٢ / ص ٩٦٠).

معهم باعتبار أنه كان معهم ويتشبه بهم فدخل في هذا الأمر، لكن الأقرب أن الضمير في قوله **{وَمِن ذُرِّيَّتِـــهِ}** [(٨٤) سورة الأنعام] يعود إلى نوح -عليه الصلاة والسلام - والله تعالى أعلم.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأعراف (٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير سورة الأعراف: وقوله تعالى: {كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ} [(٢٩) سورة الأعراف] إلى قوله: {الضَّلاَلَةُ} [(٣٠) سورة الأعراف] اختُلف في معنى {كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ} فقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: {كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ} يحييكم بعد موتكم.

وقال الحسن البصري: كما بدأكم في الدنيا كذلك تعودون يوم القيامة أحياءً.

وقال قتادة: {كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ} قال: بدأ فخلقهم ولم يكونوا شيئاً، ثم ذهبوا، ثم يعيدهم.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كما بدأكم أولاً كذلك يعيدكم آخراً، واختار هذا القول أبو جعفر بن جرير، وأيَّده بما رواه عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: قام فينا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بموعظة فقال: ((يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غُرْلاً {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ} [(١٠٤) سورة الأنبياء])) وهذا الحديث مخرج في الصحيحين[1].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فالآثار التي ذكرها المفسر عن طائفة من السلف عند قوله -تبارك وتعالى-: {كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ} كلها ترجع إلى شيء واحد، وهو الاحتجاج أو الإخبار عن قدرته -تبارك وتعالى- على البعث محتجاً بابتداء الخلق، فالذي أنشأ الخلق أولاً من العدم قادر على أن يعيدهم ثانية، وهذا كثير في القرآن، وهو من طرق إثبات البعث كقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ} [(٢٧) سورة الروم] وكقوله: {قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ} [(٧٩) سورة يــــس] وأشباه ذلك من النصوص كثير، وطرق إثبات البعث في القرآن معروفة، ذكر الله تعالى منها خمسة في سورة البقرة، والمقصود هنا أن هذا القول في الآية هو بهذا المعنى، وجميع الآثار التي ذكرها ترجع إليه، وهذا ما اختاره كبير المفسرين -رحمه الله- واختاره أيضاً الحافظ ابن القيم، إلا أن الآية تحتمل معنى آخر قال به طائفة من السلف -رضي الله تعالى عنهم- بقرينة ما بعد هذه الجملة {كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ * فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ} [(٢٩-٣٠) سورة الأعراف] فالمعنى الثاني {كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ} أي كما قدر عليكم من السعادة والشقاوة فإنكم تصيرون إلى ما قدر عليكم في الكتاب الأول، كما جاء في الحديث: ((إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يبقى بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس حتى ما يبقى بينه وبينها

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب التفسير – باب تفسير سورة المائدة (٤٣٤٩) (ج ٤ / ص ١٦٩١) ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها -باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (٢٨٦٠) (ج ٤ / ص ٢١٩٤).

إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها))[٢] وهذا المعنى هو أحد المعنيين في قوله -تبارك وتعالى -: **{هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ}** [(٢) سورة التغابن] أي أن الله -عز وجل - قد خلق قوماً للنار وخلق قوماً للجنة، خلق قوماً للسعادة وخلق قوماً للشقاوة، طبع قوماً على الكفر وطبع آخرين على الإيمان، ولا بد أن يحصل مقتضى ذلك، فالحاصل أن هذا المعنى من حيث هو صحيح، وهو اعتقاد أهل السنة والجماعة في باب القدر، ولكن هل هو المراد بالآية؟ لا شك أن الآية تحتمله لكن لو قيل: إن هذه الآية محمولة على نظائرها في كتاب الله -عز وجل - وذلك أن الله يحتج بالنشأة الأولى على النشأة الآخرة لكان هذا له وجه قريب من النظر، والعلم عند الله -عز وجل -.

وعلى كل حال فالذين قالوا: إنه يحتج بالنشأة الأولى على النشأة الثانية استدلوا بحديث: ((يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غُرْلاً **{كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ}**)) وقد سبق في بعض المناسبات أن قوله: **{كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ}** يحتمل معنيين: الأول: أنه احتجاج بالنشأة الأولى على النشأة الآخرة، وهذا الذي مشى عليه ابن القيم وابن جرير وأمثال هؤلاء، ويحتمل المعنى الآخر وهو المذكور في هذا الحديث، **{كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ}** أي أن الإنسان يرجع ثانيةً إلى الهيئة التي وجد فيها أولاً -حفاة عراة غرلاً - فالنبي -صلى الله عليه وسلم - ذكر هذا المعنى عند الآية، لكن هذه الآية وإن كانت في سياق تقرير البعث إلا أن عمومها يشمل ذلك، والنبي -صلى الله عليه وسلم - قد يحمل الآية على معنى مما يحتمله عمومها وإن كان السياق في غيره، ولهذا نظائر وهي من الأدلة التي يستدل بها على أن العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب، كقوله -تبارك وتعالى -: **{وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا}** [(٥٤) سورة الكهف] فهذه الآية وإن كانت في جدل الكفار بالنبوة والوحي والوحدانية إلا أن النبي -صلى الله عليه وسلم - ذكرها في سياق آخر وهو جدل الإنسان مطلقاً وذلك أنه حينما أتى علياً وفاطمة وهما نائمان، فقال: ((ألا تصليان؟)) فقال علي -رضي الله عنه -: إن أرواحنا بيد الله.. وفي الحديث: فرجع النبي -صلى الله عليه وسلم - وهو يضرب فخذه ويقول: ((وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً))[٣].

ومن ذلك أنه حينما سئل عن أي المسجدين أسس على التقوى أولاً؟ فمن المعلوم أن السياق في مسجد قباء، ومع ذلك حملها النبي -صلى الله عليه وسلم - على مسجده؛ لأنه أحق بهذه الصفة، وذلك لا ينفي هذا الوصف عن مسجد قباء.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما -: قوله: {كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ * فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ} [(٢٩ -٣٠) سورة الأعراف] قال: إن الله تعالى بدأ خلق ابن آدم مؤمناً وكافراً كما قال: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ} [(٢) سورة التغابن] ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأهم مؤمناً وكافراً، قلت: ويتأيد هذا القول بحديث ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه - في صحيح البخاري: ((فوالذي

---

[2] - أخرجه البخاري في كتاب التوحيد – باب قوله تعالى: **{وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ}** [(١٧١) سورة الصافات] (٧٠١٦) (ج ٦ / ص ٢٧١٣) ومسلم في كتاب القدر - باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته (٢٦٤٣) (ج ٤ / ص ٢٠٣٦).

[3] - أخرجه البخاري في أبواب التهجد - باب تحريض النبي -صلى الله عليه وسلم - على صلاة الليل والنوافل من غير إيجاب (١٠٧٥) (ج ١ / ص ٣٧٩) ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب ما روي فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح (٧٧٥) (ج ١ / ص ٥٣٧).

لا إله غيره إنّ أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة))[4].

يقول ابن كثير -رحمه الله-: **"ويتأيد هذا بحديث ابن مسعود.."** وذكَره، يعني أن حديث ابن مسعود يؤيد القول بأن قوله: **{كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ}** [(٢٩) سورة الأعراف] أي كما قدر على الإنسان وكتب عليه من هدى وضلال يرجع إليه ويصير إليه في آخر الأمر، فهذا القول تؤيده هذه النصوص، ولذلك فإن بعض أهل العلم -مثل الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- على طريقته المعروفة عند أهل العلم حمل الآية على المعنيين، وقد ذكر قاعدة في أول الكتاب، وهي أن الآية قد تحتمل معنيين ويوجد ما يدل على صحة كل معنى من هذه المعاني في الكتاب أو في السنة من غير قيام مانع يمنع من حملها على كل تلك المعاني فتحمل عليها جميعاً؛ لأن القرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، ولذلك فهو يقول: **{كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ}** [(٢٩) سورة الأعراف] احتجاج بالنشأة الأولى على النشأة الثانية، وهذه القاعدة لا تمنع من أن يحمل ذلك على أن الناس يعودون كما خلقهم الله -عز وجل- حيث خرجوا من بطون أمهاتهم حفاة عراة غرلاً، فيرجعون في الآخرة كذلك، كما دل عليه حديث ابن عباس السابق، ويصح أن يقال أيضاً: إن قوله: **{كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ}** [(٢٩) سورة الأعراف] يعني كما قدر عليكم من هدى وضلال تصيرون إلى ذلك، فالله -تبارك وتعالى- ذكر ذلك وأطلق، وعندنا ما يدل على أن المعنى الأول صحيح -وهو كثير في القرآن- وعندنا ما يدل على أن المعنى الثاني أيضاً أنهم يرجعون بالصفة التي خرجوا فيها من بطون أمهاتهم كما قال تعالى: **{كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ}** [(١٠٤) سورة الأنبياء] عندنا ما يدل على المعنى الثالث أيضاً أي أنكم تصيرون إلى ما كتب عليكم وقدر من هدى وضلال، وهذه المعاني كلها لا تحتاج إلى الترجيح بينها وإنما تحمل عليها جميعاً، والله أعلم

لكن يبقى هنا سؤالان: السؤال الأول: ما وجه المناسبة بين حمل الآية على الاحتجاج بالنشأة الأولى على النشأة الآخرة وما ذكر بعده من قوله: **{فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ}**؟ [(٣٠) سورة الأعراف]

والسؤال الثاني هو كيف الجمع بين معنى أنه يرجع إلى ما قدر عليه أولاً –حيث إن من الناس من طبع على الكفر ومنهم من طبع على الإيمان- وبين قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((خلقت عبادي حنفاء))؟

أما السؤال الأول فقد أجاب عنه ابن القيم حيث عرفنا أنه رجح المعنى الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله- من أنه احتجاج على النشأة الآخرة بالنشأة الأولى، ويرى –رحمه الله- أن هذه الآية قد تضمنت قواعد الدين من الإيمان بالقدر والشرع والمبدأ والمعاد والأمر بالعدل والإخلاص، ثم ختم بذكر حال من لم يصدق هذا الخبر ولم يطع هذا الأمر بأنه قد والى الشياطين من دون ربه، واتخذهم أولياء، فانظر إلى سياق الآية حيث يقول سبحانه: **{قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ}** [(٢٩) سورة الأعراف] فإنه قد ذكر العدل وبين أنه يكون بالإخلاص والتوحيد له سبحانه، ثم ذكر بقية القواعد التي يجب الإيمان بها فقال: **{كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ * فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ}** [(٢٩-٣٠) سورة

---

4 - أخرجه البخاري في كتاب القدر (ج ٦ / ص ٢٤٣٣).

الأعراف] فهو يرى أن هذه الآية متضمنة لهذه القواعد العظيمة وهي الإيمان بالله والإيمان بالقدر والأمر بالعدل والقسط وذِكر اليوم الآخر.

وأما الجواب عن السؤال الثاني فقد ذكره ابن كثير -رحمه الله-.

قلت: ولا بد من الجمع بين هذا القول -إن كان هو المراد من الآية- وبين قوله تعالى: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا} [(٣٠) سورة الروم] وما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه))[5] وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يقول الله تعالى: إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم..)) الحديث[6] ووجه الجمع على هذا أنه تعالى خلقهم ليكون منهم مؤمن وكافر في ثاني الحال وإن كان قد فطر الخلق على معرفته وتوحيده، والعلم بأنه لا إله غيره، كما أخذ عليهم الميثاق بذلك وجعله في غرائزهم وفطرهم، ومع هذا قدر أن منهم شقياً ومنهم سعيداً {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ} [(٢) سورة التغابن] وفي الحديث: ((كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها))[7] وقدر الله نافذ في بريته، فإنه هو {الَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى} [(٣) سورة الأعلى] و{الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى} [(٥٠) سورة طـه] وفي الصحيحين: ((فأما من كان منكم من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة))[8] ولهذا قال تعالى: {فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ} [(٣٠) سورة الأعراف] ثم علل ذلك فقال: {إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ اللّهِ} الآية [(٣٠) سورة الأعراف].

هذا المعنى الذي ذكره من أن الإنسان يولد على الفطرة وأن الآية تحتمل أن يرجع إلى ما كتب عليه من سعادة وشقاوة هو معنى كبير لذلك ينبغي للإنسان أن يكثر من دعاء ربه أن يثبته، فالقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن، فإن الناظر إلى حال كثيرٍ من الناس يجد بعضهم قد نشأ في بيئة طيبة ومع ذلك ينتكس على عقبيه، ومن الناس من ينشأ في بيئة أسوأ ما يكون كأن يكون في أرض غربة ومع ذلك هو في غاية التهذيب والصلاح والاستقامة على دين الله -عز وجل- ومن الناس من يبقى مدة طويلة ربما عشرات السنين وهو يعلّم الناس الخير ويدعوهم إلى الاتباع والسنة، وفي غاية الثبات والقوة ثم يرجع إلى حال ربما كان الضعف في التدين أسهل منها وذلك بأن يبتلى بالشبهات فيُلبس على الناس في دينهم ويرجع إلى أمور كان ينكرها فينظِّر لها ويستسيغها، فالناس في هذه الفتن يتقلبون ظهراً لبطن، والإنسان لا يأمن على نفسه ولذلك لا ينبغي أن يستشرف للفتن بل يسعه أن يقف في كثير من الأشياء دون أن يقحم نفسه فيها فيسلم له دينه وإيمانه، فإن

---

5 - أخرجه البخاري في كتاب القدر - باب الله أعلم بما كانوا عاملين (٦٢٢٦) (ج ٦ / ص ٢٤٣٤) ومسلم في كتاب القدر - باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين (٢٦٥٨) (ج ٤ / ص ٢٠٤٧).

6 - أخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها - باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (٢٨٦٥) (ج ٤ / ص ٢١٩٧)

7 - أخرجه مسلم في كتاب الطهارة – باب فضل الوضوء (٢٢٣) (ج ١ / ص ٢٠٣).

8 - أخرجه البخاري في كتاب التفسير – باب تفسير سورة الليل (٤٦٦٦) (ج ٤ / ص ١٨٩١) ومسلم في كتاب القدر - باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته (٢٦٤٧) (ج ٤ / ص ٢٠٣٩).

وجد من يقبل منه حمد الله، وإلا فليزم بيته وليغلق عليه بابه، ولن يسأله الله -عز وجل -: لماذا لم تخرج في القنوات الفضائية وتكون في مقدمة الناس دائماً؛ لأن حفظ رأس المال مقدم على كل شيء، فعلى الإنسان أن يبقى ثابتاً على مبادئه لا يتنازل عن شيء منها ويلقى الله -عز وجل - على ذلك، فالعبد بحاجة إلى كثرة الدعاء والصبر والثبات، والله المستعان.

إن الإنسان لا يأمن على نفسه، ولقد رأينا أناساً طلبوا العلم وجدّوا فيه واجتهدوا غاية الاجتهاد، والآن إذا رأيت الواحد منهم ما عرفته من سواد وجهه، وقبح هيئته، وانسلاخه من كل ما يميزه؛ لأنه قد انحرف غاية الانحراف والفسوق، فمن الناس من ابتلي بالشهوات ومنهم من ابتلي بالشبهات، نسأل الله السلامة.

قال ابن جرير: وهذا من أبين الدلالة على خطأ من زعم أن الله لا يعذِّب أحداً على معصية ركبها أو ضلالة اعتقدها إلا أن يأتيها بعد علم منه بصواب وجهها فيركبها عناداً منه لربه فيها؛ لأنه لو كان كذلك لم يكن بين فريق الضلالة الذي ضل وهو يحسب أنه هادٍ وفريق الهدى فرق، وقد فرق الله تعالى بين أسمائهما وأحكامهما في هذه الآية الكريمة.

"إنّ" مشعرة بالتعليل في قوله تعالى: **{إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ اللّهِ}** [(٣٠) سورة الأعراف] وتدل على التوكيد أيضاً، والمعنى لماذا كانوا كذلك أي فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة؟ الجواب: إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون، ولذلك فابن جرير -رحمه الله- يقول: **"هذا من أبين الدلالة على خطأ من زعم أن الله لا يعذب أحداً على معصية ركبها أو ضلالة إلا أن يأتيها بعد علم منه بصواب وجهها فيركبها عناداً منه لربه فيها"** فهذه الآية رد على كثير ممن قد يتوقف أو يجادل عن الأتباع من أهل الضلال والبدع وذلك أنهم يقولون: هؤلاء يتدينون حقيقة ويبذلون أموالهم ويبكون في عبادتهم وعند صلاتهم وإنما قد يكون الزندقة في رؤسائهم وكبرائهم وأما هؤلاء الأتباع فمساكين وهم صادقون ويريدون الخير بأفعالهم!

ونحن نقول: لو قلنا بهذا لانجر هذا القول أيضاً إلى عوام اليهود وعوام النصارى وليس إلى أهل البدع فقط، لكن الله -عز وجل- قد أخبر أن النار فيها الأتباع وفيها المتبوعون من الكبراء وقادة الشر والضلال والكفر كما سيأتي في الآيات القادمة حيث يتبرأ هؤلاء من هؤلاء، ويدعون الله -عز وجل- أن يزيدهم ضِعفاً من العذاب، لذلك كان يجب على هؤلاء حينما سمعوا داعي الله وسمعوا القرآن أن لا يقلدوا غيرهم وأن لا يحسنوا الظن بكبرائهم وقادتهم بل هم مكلفون مسئولون، لكنهم حينما ألغوا عقولهم وجعلوا الآخرين يفكرون عنهم بالنيابة صاروا إلى هذه الحالة التي هي أسوأ من حالة الأنعام، فهم جعلوا انقيادهم لهؤلاء الكبراء وعندئذ يندمون حيث يقودونهم إلى النار، فالنار فيها أتباع وفيها متبوعون وهذه القضية لا بد أن تعرف لكن الله -عز وجل- لا يعذب أحداً إلا بعد إرسال الرسل وبعد قيام الحجة وبلوغها، فبلوغ الحجة قال عنها النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار))[٩] وأما قيام الحجة فذلك بأن يفهم منها ما يصلح لمثله وليس

---

[9] - أخرجه مسلم في كتاب الإيمان - باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس ونسخ الملل بملة (١٥٣) (ج ١ / ص ١٣٤).

بالضرورة أن يفهم منها فهم علماء المسلمين كأبي بكر وعمر وإنما يكفي ما يصلح لمثله، أما أن يكابر ويقول: وجدنا الشيوخ على هذا، أو يحمله الغضب على المهاترة فيعبد قبر عبدٍ من عباد الله وإذا أنكر عليه قال: أنت تنكر كرامات الأولياء، فهذا قد قامت عليه الحجة ولا يلومنَّ إلا نفسه.

{يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} [(٣١) سورة الأعراف] هذه الآية الكريمة ردٌّ على المشركين فيما كانوا يعتمدونه من الطواف بالبيت عراة كما رواه مسلم، والنسائي، وابن جرير -واللفظ له- من حديث شعبة عن سلمة بن كهيل عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: كانوا يطوفون بالبيت عراة الرجال والنساء، الرجال بالنهار والنساء بالليل، وكانت المرأة تقول: اليوم يبدو بعضه أو كله، وما بدا منه فلا أحله، فقال الله تعالى: {خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ} [(٣١) سورة الأعراف].

وقال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ} الآية [(٣١) سورة الأعراف] قال: كان رجال يطوفون بالبيت عراة فأمرهم الله بالزينة، والزينة: اللباس وهو ما يواري السوءة، وما سوى ذلك من جيد البزّ والمتاع فأمروا أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد، وهكذا قال مجاهد وعطاء وإبراهيم النخعي وسعيد بن جبير وقتادة والسدي والضحاك، ومالك عن الزهري وغير واحد من أئمة السلف في تفسيرها: أنها نزلت في طواف المشركين بالبيت عراة، ولهذه الآية وما ورد في معناها من السنة يستحب التجمل عند الصلاة، ولا سيما يوم الجمعة ويوم العيد، والطيب؛ لأنه من الزينة، والسواك؛ لأنه من تمام ذلك.

الزينة تطلق على ما لا بد منه من اللباس وهو المعنى الذي نزلت فيه الآية -وهو ستر العورة- وتطلق أيضاً على ما هو أعم من ذلك، والشائع في استعمال الزينة أنها تقال لما كان زائداً عن القدر الضروري، فهذا البناء مثلاً القدر الضروري منه السقف والعمد والجدران، وما عدا ذلك فهو من باب الزينة وليس من الأمور الضرورية، وهكذا أيضاً ما يلبسه الإنسان، فالقدر الزائد عن الضرورة يقال له زينة، كالحلي مثلاً كما قال القائل:

وما الحلي إلا زينة من نقيصة ... تتمم من حسن إذا الحسن قصرا
أما إذا كان الجمال موفراً ... كحسنك لم يحتج إلى أن يزورا

فالحلي يكمل النقص الذي في المرأة ولذلك فإن الرجل لا يحتاج إليه بل يكون نقيصة فيه، فلو أن رجلاً لبس الخلاخل والأساور وما أشبه ذلك من الحلي فإن ذلك يكون في غاية القبح في حقه؛ لأنه يكفيه جماله الطبيعي، وكل شيء له ما يناسبه، وعلى كل حال فالزينة تطلق على هذا وهذا، والآية نزلت في ستر العورات فهي رد على المشركين الذين كانوا يتقربون إلى الله -عز وجل- ويتدينون بإبداء العورة عند الطواف ويرون أن هذا من القُرب؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن غير الحمس إما أن يطوف بثوب جديد وبعد الطواف يلقيه في المطاف، ويسمونه اللقى يدوسه الناس بأقدامهم حتى يبلى، أو يستعير ثوباً من أحمسي، وكانوا يقولون: إنهم لا يطوفون بثياب عصوا الله -عز وجل- فيها، فهم يتقربون إلى الله بهذا، فنهاهم عن هذا وقال: **{خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ}** [(٣١) سورة الأعراف] أي بستر العورات، لكن لما كانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فيقال:

هو أمرٌ باتخاذ الزينة عند الصلاة مطلقاً فلا يصلي الإنسان بثوب النوم، ولا يصلي بسراويل أو نحوها مما لا يلقى به الناس، وقد جاء في الأثر أن مولى ابن عباس خرج معه وهو حاسر الرأس، فقال له: أين تريد؟ قال: إلى الصلاة، فاحتج عليه بهذه الآية حيث قال له: أتلقى الناس هكذا؟ قال: لا، قال: فالله أحق أن يتجمل له، فلا ينبغي للإنسان أن يجعل الله -عز وجل- أهون الناظرين إليه بأن يتزين للناس إذا خرج وإذا صلى يصلي بهيئة يستحي أن يراه الناس فيها، وهكذا ينبغي التزين لصلاة الجمعة حيث كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يلبس لها لبساً خاصاً كما هو معروف، وهكذا الأعياد، وكذلك يدخل فيه ستر العاتقين ((لا يصلين أحدكم في الثوب الواحد ليس على عاتقه منه شيء))[١٠] فالعاتق وإن لم يكن عورة إلا أنه يستر من باب كمال الزينة لقوله تعالى: **{خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ}** [(٣١) سورة الأعراف].

ومعنى قوله تعالى: **{عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ}** [(٣١) سورة الأعراف] يعني عند كل صلاة، أو موضع الصلاة.

ومن أفضل اللباس البياض كما روى الإمام أحمد عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- مرفوعاً قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((البسوا من ثيابكم البياض فإنها من خير ثيابكم وكفنوا فيها موتاكم، وإنّ خير أكحالكم الإثْمِد فإنه يجلو البصر وينبت الشعر)) هذا حديث جيد الإسناد، رجاله على شرط مسلم، ورواه أبو داود والترمذي وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن صحيح[١١].

أخذ الزينة له أثر في عبادة الإنسان وفي صلاته وفي إقبال ربه، فالثياب البيضاء لها أثر ينعكس على قلب العبد وعلى نفسه، وكذلك الطيب ينشرح له الصدر ويحصل للإنسان فيه انشراح كما ذكر ذلك الحافظ ابن القيم -رحمه الله- في زاد المعاد، أي أن مثل هذه الأمور الظاهرة تؤثر في باطن الإنسان فمن المعلوم أن هناك ملازمة بين الظاهر والباطن كما يذكر ذلك عند تفسير قوله تعالى: **{وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ}** [(٤) سورة المدثر] ولذلك إذا جئت بإنسان يعمل في محطة أو عامل بناء وقد اعتاد على تلويث الثياب والبدن وما أشبه ذلك، وأعطيته أنواع المنظفات وتنظف وأعطيته ثياباً بيضاء وطيبته بأحسن الطيب فإنه سيجد أثر هذا في نفسه وسيكون هناك فرق بين دخوله المسجد بثيابه الأولى وبين دخوله المسجد في الثياب الثانية، وكذلك يتغير حاله حتى خارج المسجد وأذكر أني قرأت تقريراً عُمل في بعض السجون في أمريكا حيث أخذوا المساجين وصاروا يأمرونهم بالاغتسال يومياً ويعطونهم ثياباً بيضاء نظيفة كل يوم فوجدوا تغيراً في سلوك المساجين، وهذا مشاهد، ولذلك انظر إلى نفسك حينما تسافر سفراً شاقاً ستشعر أنك بحاجة إلى أن تغير ملابسك وتصل إلى بيتك وأنت في غاية التثاقل ولا تحب أن يراك أحد، فإذا اغتسلت وتطيبت شعرت بالراحة والاطمئنان، وانظر إلى الحال في الحج وخاصة أيام شدة الحر فالإنسان ما يصل إلى يوم النحر وينتهي من الرمي ويحلق إلا وهو يشعر أنه في غاية الثقل، ويحتاج أن يغتسل ويغير ملابسه، فإذا اغتسل وجد خفة ونشاطاً وارتياحاً، ولذلك نقول: إن مثل هذه الأمور تؤثر في النفس، والناس يسألون كيف نخشع في الصلاة، وكيف نرتاح في

---

[10] - أخرجه النسائي في كتاب القبلة - صلاة الرجل في الثوب الواحد ليس على عاتقه منه شيء (٧٦٩) (ج ٢ / ص ٧١) وأحمد (٩٩٨١) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٧٧٢٦).

[11] - أخرجه أبو داود في كتاب الطب - باب في الأمر بالكحل (٣٨٨٠) (ج ٤ / ص ٩) والنسائي في كتاب الزينة – باب في الكحل (٥١١٣) (ج ٨ / ص ١٤٩) وابن ماجه في كتاب الطب -(باب الكحل بالإثمد (٣٤٩٧) (ج ٢ / ص ١١٥٧) وأحمد (٢٢١٩) (ج ١ / ص ٢٤٧) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (١٢٣٦).

الصلاة فنقول: جرب هذا الأمر وانظر الفرق، كذلك اغتسل قبل أن تذهب إلى العمل وقارن هذا اليوم بالأيام الأخرى، لا شك أنك ستجد أثر ذلك في نفسك.

وقوله تعالى: {وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ} الآية [(٣١) سورة الأعراف] وقال البخاري: قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما -: كل ما شئت والبس ما شئت، ما أخطأتك خصلتان: سرف ومخيلة.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى قال: حدثنا محمد بن ثور عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما - قال: "أحل الله الأكل والشرب ما لم يكن سرف أو مخيلة" إسناده صحيح[١٢].

وروى الإمام أحمد عن المقدام بن معد يكرب الكندي -رضي الله تعالى عنه - قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم - يقول: ((ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه فإن كان فاعلاً لا محالة فثلثٌ طعامٌ وثلثٌ شرابٌ وثلث لنفسه))[١٣] ورواه النسائي والترمذي وقال الترمذي: حسن، وفي نسخة: حسن صحيح.

يلاحظ أن هذه الآية **{خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ}** [(٣١) سورة الأعراف] اشتملت على الأمر والنهي والإباحة وهذه الأمور هي التي يرجع إليها خطاب الشارع.

قوله: **{وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ}** الأمر هنا للإباحة، وأخذ منه بعض أهل العلم أن الزهد لا يكون في ترك الأكل والشرب وأخذ الزينة من اللباس وإنما الزهد معنىً في القلب، وهو أن تكون الدنيا في يده ولا تكون في قلبه، وهذا معنى وجيه، فكثير من الناس قد يكون في حالة من الرثاثة ويترك كثيراً من متاع الدنيا من مطاعمها ومشاربها وألوان اللباس الجيد، وهو يملك أموالاً طائلة أو يملك أموالاً قليلة لكن الدرهم أو الريال لا يخرج إلا وقد خرج معه قطعة من قلبه، فهذا لا يكون زاهداً، وتجده يترك كثيراً من اللباس والطعام الطيب لكن يتركه إما لأنه لا يجده أو يتركه لأنه بخيل، وإلا فإن النبي -صلى الله عليه وسلم - كان يحب الحلوى والحلو البارد، وكان -صلى الله عليه وسلم - يأكل الثريد -وهو أطيب الطعام - ويحب الطيب، ويقول: ((حبب إلي من الدنيا النساء والطيب))[١٤] ومثل هذا كله من الطيبات، فليس الزهد أن يترك الإنسان الزواج والتمتع بألوان الطيبات من المآكل والمشارب، وإنما الزهد ألا تدخل هذه الأشياء في قلبه، فهذه الأشياء قد يتعاطاها الإنسان وقد لا يتعاطاها فليس ثمة مشكلة، لكن المشكلة أن يكون القلب مشغولاً بها فإذا كانت تسيطر على قلبه وهي غالبة عليه فليس بزاهد وإن تركها، وما يفعله كثير من الناس ممن ينتسب إلى التصوف بلبس الصوف وترك الطيبات فهذا أمر لم يكن عليه النبي -صلى الله عليه وسلم - ولا أصحابه وهم أزهد الناس -رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم - فالإنسان لا مانع من أن يركب مركباً جيداً وأن يلبس اللباس الجيد لكن

---

[12] - أخرجه البخاري (ج ٥ / ص ٢١٨٠) عن ابن عباس ولفظه: "كل ما شئت والبس واشرب ما شئت ما أخطأتك اثنتان سرف أو مخيلة".

[13] - أخرجه الترمذي في كتاب الزهد – باب ما جاء في كراهية كثرة الأكل (٢٣٨٠) (ج ٤ / ص ٥٩٠) والنسائي في السنن الكبرى في كتاب آداب الأكل - ذكر القدر الذي يستحب للإنسان من الأكل (٦٧٧٠) (ج ٤ / ص ١٧٨) وأحمد (١٧٢٢٥) (ج ٤ / ص ١٣٢) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٢١٣٥).

[14] - أخرجه النسائي في كتاب عشرة النساء – باب حب النساء (٣٩٣٩) (ج ٧ / ص ٦١) وأحمد (١٢٣١٥) (ج ٣ / ص ١٢٨) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٣١٢٤).

لا يخرجه ذلك إلى الإسراف والخيلاء ولا يفعل ذلك مباهاة للناس، ولا يكثر من ذلك بحيث يكون ذلك صارفاً وملهياً له، وإنما ينبغي عليه أن يترك فضول هذه الأشياء؛ لئلا تشغل قلبه، وإلا فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان عنده ناقة يقال لها: القصواء وهي مما لا تكاد تسبق، فمثل هذه الأشياء لا تخرج الإنسان عن الزهد، وكل إنسان له ما يناسبه أيضاً من اللباس والمراكب والمساكن وما أشبه هذا، فأهل العلم لهم ما يناسبهم ويجملهم فإن خرجوا منه إلى غيره فإن ذلك يكون إزراء بهم، وقد يحسن من غيرهم لكنه لا يحسن منهم، وهكذا كل إنسان له ما يليق به من مركب وثوب ومسكن وما أشبه هذا، وطالب العلم الذي يسكن في قصر هذا لا يليق به التوسع بهذه الصورة في البناء، وهكذا إذا لبس زيّاً معيناً قد لا يكون لائقاً به وإن كان مباحاً فإنه لا يصلح لمثله فهذا يزري به، وهكذا إذا ركب مركباً لا يصلح لمثله فهذا يكون منقصة في حقه، وليس معنى ذلك أنه يتخذ الرديء من هذه الأشياء، لكن هناك أشياء لا تليق به ولا تناسبه، والله المستعان.

وقال عطاء الخرساني عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قوله: {وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} [(٣١) سورة الأعراف] في الطعام والشراب.

وقال ابن جرير: وقوله: {إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} [(٣١) سورة الأعراف] يقول الله تعالى: إن الله لا يحب المتعدين حدّه في حلال أو حرام، الغالين فيما أحل بإحلال الحرام أو بتحريم الحلال ولكنه يحب أن يحلَّل ما أحلّ، ويحرَّم ما حرّم، وذلك العدل الذي أمر به.

بذل المال في المحرم إسراف وإن كان ذلك قليلاً، وكذلك تضييع المال فيما لا فائدة فيه يعتبر إسرافاً وإن كان قليلاً، وهكذا إذا توسع الإنسان في المأكل أو المشرب أو الملبس أو نحو هذا فوق حاجته فهذا يعتبر من الإسراف، وهذا أيضاً يختلف الحكم فيه في بعض الصور من شخص إلى آخر، فقد يكون بالنسبة لهذا من الإسراف وبالنسبة لهذا ليس من الإسراف، بحسب حال الإنسان من الغنى والفقر، فهذا الإنسان الذي يشتري ساعة بألف وراتبه ثمانمائة ريال يعتبر مسرفاً، وإنسان آخر راتبه عشرة آلاف ويشتري ساعة بألف ليس من الإسراف، وكذلك من يملك الملايين إذا اشترى أثاثاً بخمسين ألف ريال ليس مسرفاً، أما من كان راتبه ألفاً ومائتي ريال ويشتري أثاثاً بخمسين ألف ريال فهذا يعتبر من الإسراف، والإنسان الفقير الذي يعيش على الصدقات ما إن يجتمع من دخله خمسمائة ريال إلا ويلبس عمامة من أفخر الأنواع، ويلبس نعلاً بحدود أربعمائة ريال، فهذا سفيه يحجر عليه، وكذلك الفقير الذي راتبه سبعمائة ريال وكلما ظهر نوع من الجوالات اشتراه، فهؤلاء يعتبرون مسرفين، وهذا يختلف من شخص إلى شخص، والله المستعان.

{قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} [(٣٢) سورة الأعراف].

يقول تعالى رداً على من حرم شيئاً من المآكل أو المشارب أو الملابس من تلقاء نفسه من غير شرع من الله: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يحرمون ما يحرمون بآرائهم وابتداعهم: {مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ} الآية، أي هي مخلوقة لمن آمن بالله وعبده في الحياة الدنيا وإن شركَهم فيها الكفار حساً في الدنيا فهي لهم خاصة يوم القيامة، ولا يَشْرَكهم فيها أحد من الكفار؛ فإن الجنة محرمة على الكافرين.

قوله تعالى: **{قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ}** هذا استفهام إنكاري، والمعنى أن الطيبات من الرزق هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا ويشاركهم فيها غيرُهم من المشركين وغيرهم، لكن الآخرة تكون خالصة للمؤمنين ينفردون بها لا يشاركهم فيها أحد، كما قال تعالى: **{وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ}** [(٣٥) سورة الزخرف] ويشهد لهذا المعنى أيضاً ما مضى في سورة البقرة لما قال إبراهيم -صلى الله عليه وسلم -: **{وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ}** فقال تعالى: **{وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}** [(١٢٦) سورة البقرة] فرزْقُ الله في الدنيا وعطاؤه لا يختص بالمؤمنين، ويشهد لهذا أيضاً قوله تعالى: **{كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُورًا}** [(٢٠) سورة الإسراء] وقد قال قبل هذا في السورة نفسها: **{مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا}** [(١٨) سورة الإسراء] وقال في آية أخرى: **{مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ}** [(١٥ - ١٦) سورة هود] فهذا كله يؤيد ويشرح هذا المعنى، أي أنها في الدنيا يشترك فيها المؤمنون والكفار؛ فالدنيا لا تساوي شيئاً مما في الآخرة، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم -: ((لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء))[١٥] فالدنيا للجميع، وأما الآخرة فهي خالصة للمؤمنين.

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من المؤمنين الصادقين الفائزبن في الدنيا والآخرة، إن ربي قريب مجيب، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله النبي الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

[15] - أخرجه الترمذي في كتاب الزهد - باب ما جاء في هوان الدنيا على الله -عز و جل - (٢٣٢٠) (ج ٤ / ص ٥٦٠) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٥٢٩٢).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأعراف (٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى - في تفسير قوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} [(٣٣) سورة الأعراف].

روى الإمام أحمد عن عبد الله -رضي الله تعالى عنه - قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم -: ((لا أحد أغير من الله فلذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه المدح من الله)) أخرجاه في الصحيحين[1]، وتقدم الكلام على ما يتعلق بالفواحش ما ظهر منها وما بطن في سورة الأنعام.

وقوله: {وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ} [(٣٣) سورة الأعراف] قال السدي: أما الإثم فالمعصية، والبغي أن تبغي على الناس بغير الحق، وقال مجاهد: الإثم المعاصي كلها، وأخبر أن الباغي بغيُه على نفسه.

وحاصل ما فُسِّر به الإثم أنه الخطايا المتعلقة بالفاعل نفسه، والبغي هو التعدي إلى الناس، فحرم الله هذا وهذا.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى -: **{قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ}** [(٣٣) سورة الأعراف] عرفنا قبلُ بأن أقرب الأقوال في تفسير ما ظهر من الفواحش هو أن الفواحش هي الذنوب العظام وأنها لا تختص بالزنا، فيدخل فيما ظهر من الفواحش الزنا علانية مع البغايا ذوات الأعلام في الجاهلية، وفي دور البغاء في مثل هذه الأيام، ويدخل فيه أيضاً سائر ألوان الفواحش وتعاطيها علانية.

قوله: **{وَمَا بَطَنَ}** ما أخفاه الإنسان من الجرائم العظام، والذنوب الكبار مثل الزنا سراً، وسائر ما يفعله الإنسان من الكبائر ويخفيه عن الناس.

قوله: **{وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ}** الإثم: يطلق على المعصية سواء كان كبيراً أو صغيراً، فيكون ذلك من عطف العام على الخاص، فكل فاحشة لا شك أنها من الإثم وليس كل الآثام من الفواحش، ويطلق الإثم أيضاً على بعض الذنوب خاصة، وذلك يرجع إلى عرف الاستعمال لكنه هنا محمول على العموم، وقد تطلقه العرب على أم الخبائث وهي الخمر، كما قال الشاعر:

شربت الإثم حتى ضل عقلي ... كذاك الإثم تفعل بالعقول

[1] - أخرجه البخاري في كتاب التفسير –باب تفسير سورة الأعراف (٤٣٦١) (ج ٤ / ص ١٦٩٩) ومسلم في كتاب التوبة - باب غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش (٢٧٦٠) (ج ٤ / ص ٢١١٣).

وذكرنا في بعض المناسبات أن الإثم أيضاً يطلق على تبعة الذنب وهي المؤاخذة، تقول: من فعل كذا فهو آثم، فهذه هي التبعة، وهذا لا إشكال فيه فهو يطلق على الذنب وعلى تبعة الذنب التي هي المؤاخذة، والله أعلم.

والبغي هو نوع من الآثام أيضاً، وهو النوع المتعدي إلى الناس، وقيَّده هنا بأنه غير الحق، وهذا القيد معتبر، بمعنى أن هذا القيد ليس من قبيل الصفة الكاشفة بل هو قيد معتبر؛ لأن البغي يكون تارة بحق وتارة يكون بغير حق، بخلاف بعض القيود، كقوله تعالى بعد هذه: {وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا} [(٣٣) سورة الأعراف] فقوله: {مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا} [(٣٣) سورة الأعراف] هذا مبيّن للحقيقة كاشف لها وإلا فلا يمكن لأحد أن يشرك بالله ولديه سلطان على هذا الشرك، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: {وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ} [(١١٧) سورة المؤمنون] ولا يمكن لأحد أن يدعو إلهاً آخر له فيه برهان، وهكذا كما في قوله -تبارك وتعالى-: {وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ} [(٦١) سورة البقرة] فلا يمكن لأحد أن يقتل الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- بحق، وعلى كل حال تارة تكون هذه القيود معتبرة، وتارة لا تكون معتبرة، ومن أمثلة القيود المعتبرة: القيد في قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا} [(٥٨) سورة الأحزاب] فهذا قيد معتبر.

وقوله تعالى: {وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا} [(٣٣) سورة الأعراف] أي: تجعلوا له شركاء في عبادته.

{وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} [(٣٣) سورة الأعراف] من الافتراء والكذب من دعوى أن له ولداً ونحو ذلك مما لا علم لكم به كقوله: {فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ} الآية [(٣٠) سورة الحـج].

ويدخل في هذا كل قول على الله بلا علم كالذي يفتي الناس بجهل ويتكلم في الأحكام، أو يفسر القرآن أو حديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بغير علم، كل ذلك يدخل في عموم قوله: {وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} [(٣٣) سورة الأعراف].

{وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ * يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [(٣٤-٣٦) سورة الأعراف].

يقول تعالى: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ} أي: قرن وجيل.

الأمّة تطلق على الرجل الجامع لخصال الخير التي تفرقت في غيره، كما قال تعالى عن إبراهيم -عليه السلام-: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً} [(١٢٠) سورة النحل] وتطلق أيضاً على المدة الزمنية كما قال تعالى: {وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ} [(٤٥) سورة يوسف] وتطلق أيضاً على الجماعة من الناس كما قال تعالى: {وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ} [(٢٣) سورة القصص] وتطلق أيضاً على الطائفة المجتمعة على دين كقوله -تبارك وتعالى-: {وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً} [(٥٢) سورة المؤمنون] فالأمة تطلق على هذه الأشياء كلها، وهنا قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**أي: قرن وجيل**" ولعل ما ذكره ابن كثير -رحمه الله- أدق؛ لأن الطائفة المجتمعة على دين منها من يكون قد مات ومنها من لا يزال حياً موجوداً.

ومعنى قوله: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ} أي لكل طائفة من الناس وجماعة من الناس اجتمعت على شيء أجل، وهؤلاء يكونون في قرن وجيل يعني يكون لهم وقت محدد لنزول العذاب بهم، فالله تبارك تعالى أرسل الرسل وأنزل الكتب وبيّن حدوده وشرائعه فوقّت لهذه الأمم وقتاً وزماناً ينزل عليهم به العذاب إذا كذبوا رسله -عليهم الصلاة والسلام- فالله -تبارك وتعالى- يمهلهم حتى يأتي هذا الأجل، هذا قال به طائفة من السلف -رضي الله تعالى عنهم- وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-.

ومن أهل العلم من يقول: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ} يعني يموتون فيه أي أن الله -عز وجل- يميتهم إذا جاءت آجالهم.

{فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ} أي: ميقاتهم المقدر لهم {لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ} [(٣٤) سورة الأعراف].

ثم أنذر تعالى بني آدم أنه سيبعث إليهم رسلاً يقصون عليهم آياته، وبشَّر وحذر فقال: {فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ} [(٣٥) سورة الأعراف] أي: ترك المحرمات وفعل الطاعات {فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} [(٣٥) سورة الأعراف].

{وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا} [(٣٦) سورة الأعراف] أي: كذبت بها قلوبهم واستكبروا عن العمل بها {أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [(٣٦) سورة الأعراف] أي: ماكثون فيها مكثاً مخلّداً.

لعل قوله: {يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي} [(٣٥) سورة الأعراف] قرينة تقوي القول الأول، أي أن قوله: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ} يعني مدة وزماناً محدداً ينزل عليهم به العذاب، فهذا المقام يبيّن الله -تبارك وتعالى- فيه للناس شدة بأسه وعقابه لمن كذب رسله -عليهم الصلاة والسلام-.

وقوله: {يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ} [(٣٥) سورة الأعراف] أصل لفظة "إمَّا" أنها مركبة من "إنْ" و"ما" فـــ"إن" هذه هي الشرطية، و "ما" يقولون عنها: إنها صلة أو زائدة إعراباً جاءت لتقوية الكلام وتأكيده.

وقوله: {إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي} [(٣٥) سورة الأعراف] يعني إن أتاكم رسل كائنون منكم يخبرونكم بأحكامي ويبيّنونها لكم.

وقوله: {فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} [(٣٥) سورة الأعراف] يمكن أن تكون هذه الجملة التي هي فعل الشرط وجوابه هي جواب الشرط لقوله: {إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَـــاتِي} [(٣٥) سورة الأعراف]، ويمكن أن يكون جواب الشرط مقدراً، وتقديره فأطيعوهم، والله أعلم.

{فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُوْلَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُواْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ} [(٣٧) سورة الأعراف].

يقول: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ} أي: لا أحد أظلم ممن افترى الكذب على الله أو كذب بآياته المنزلة.

قوله تعالى: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا} يعني لا أحد أظلم منه، وذكرنا مراراً أن مثل هذا الاستفهام مضمن معنى النفي، وأن ذلك في كل مقام يختص بالباب الذي ذكر فيه؛ للجمع بين هذه الآية والآيات المشابهة لها كقوله: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا} [(١١٤) سورة البقرة] وما أشبه ذلك، أي تكون كل آية مختصة بالباب الذي ذكرت فيه.

أو يكون الجواب عن هذا أن يقال: إن أفعل التفضيل لا يمنع من التساوي وإنما يمنع من أن يزيد أحد هذه المذكورات على الآخر، والله أعلم.

قال محمد بن كعب القرظي: {أُوْلَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ} [(٣٧) سورة الأعراف] قال: عمله ورزقه وعمره، وكذا قال الربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، كقوله: {إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ} [(٦٩ -٧٠) سورة يونس] وقوله: {وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا} الآية [(٢٣ -٢٤) سورة لقمان].

في قوله تعالى: {أُوْلَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ} [(٣٧) سورة الأعراف] جمع الحافظ ابن كثير -رحمه الله - بعض المعاني التي قالها السلف -رضي الله تعالى عنهم - فقال: **"عمله ورزقه وعمره"** فالكتاب إذا حمل على اللوح المحفوظ يكون المعنى: ينالهم ما قدر لهم، والذي قدر لهم هي السعادة والشقاوة فيكون ذلك واقعاً لا محالة، وكذلك أيضاً ما قدر لهم من أرزاق وأعمار وكذلك ما قدر لهم من العذاب.

ويحتمل أن يكون المراد بالكتاب في الآية: القرآن، حيث إن القرآن أخبر عما يقع بالمكذبين من العقوبة، فيكون ذلك تحقيقاً لما أخبر به، لكن المعنى الأول أقرب من هذا، والله تعالى أعلم.

وحمْله على اللوح المحفوظ وجمْع المعاني التي ذكرها السلف -رضي الله تعالى عنهم - مما يرجع إلى هذا أولى وأحسن وأقرب، وهذا الذي جرى عليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله - هنا، وسبقه إليه كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله - وكذلك الحافظ ابن القيم، وجماعة من العلماء المحققين كالشنقيطي -رحمه الله -، فهؤلاء العلماء وغيرهم يقولون: إن المراد بقوله تعالى: {أُوْلَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ} [(٣٧) سورة الأعراف] أي يقع لهم ما قدر لهم في اللوح المحفوظ مما قدره الله -عز وجل - من الهدى والضلال فذلك واقع بهم لا يجاوزونه، ويدخل في ذلك أيضاً ما يحصل لهم من أرزاق وأعمار كما قال عليه الصلاة والسلام -: ((لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها وأجلها))[٢].

وقوله: {حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ} الآية [(٣٧) سورة الأعراف].. يخبر تعالى أن الملائكة إذا توفت المشركين تفزعهم عند الموت وقبْض أرواحهم إلى النار يقولون لهم: أين الذين كنتم تشركون بهم في الحياة الدنيا وتدعونهم وتعبدونهم من دون الله؟ ادعوهم يخلصوكم مما أنتم فيه {قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا} [(٣٧) سورة الأعراف] أي: ذهبوا عنا فلا نرجو نفعهم ولا خيرهم {وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ} [(٣٧) سورة الأعراف] أي: أقروا واعترفوا على أنفسهم {أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ} [(٣٧) سورة الأعراف].

قوله: {قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا} [(٣٧) سورة الأعراف] يعني ذهبوا، وذلك أن الضلال يفسر بالذهاب كما قال إخوة يوسف لأبيهم يعقوب -صلى الله عليه وسلم -: {إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ} [(٩٥) سورة يوسف] فهم لا يقصدون هنا ضلاله الذهاب عن الهدى كما هو المعنى المتبادر عند إطلاق الضلال، وإنما يقصدون أصل معناها اللغوي، وهو الذهاب عن حقيقة الشيء، كما قال الشاعر:

---

[2] - أخرجه ابن ماجه في كتاب التجارات - باب الاقتصاد في طلب المعيشة (٢١٤٤) (ج ٢ / ص ٧٢٥) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٧٤٢).

فـــآب مـــضلوه بعـــين جليـــة وغودر بـــالجولان حـــزم ونائـــل

فمضلوه هنا يعني أنهم دفنوه، فصار ذلك إخفاء له.

وكما قال الآخر:

شربت الإثـــم حتـــى ضـــل عقلـــي كـــذاك الإثـــم تفعـــل بـــالعقول

يعني شرب الخمر حتى ذهب عقله، وهكذا توجد شواهد كثيرة تدل على أن الضلال يطلق بإزاء ذهاب الشيء عن حقيقته.

وقول إخوة يوسف: {إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ} [(٩٥) سورة يوسف] لا شك أن معناه الذهاب عن حقيقة ما وقع ليوسف -عليه الصلاة والسلام- إذ لا يمكن أن يصفوا نبياً من أنبياء الله بأنه ضال الضلال الشرعي المعروف؛ إذ لو قصدوا ذلك لكفروا، والله المستعان.

{قَالَ ادْخُلُواْ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّن الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ * وَقَالَتْ أُولاَهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ}

[(٣٨-٣٩) سورة الأعراف] يقول تعالى مخبراً عما يقوله لهؤلاء المشركين به المفترين عليه المكذبين بآياته {ادْخُلُواْ فِي أُمَمٍ} [(٣٨) سورة الأعراف] أي: من أمثالكم وعلى صفاتكم.

قوله: {ادْخُلُواْ فِي أُمَمٍ} [(٣٨) سورة الأعراف] يعني في جملة أمم من أمثالكم وعلى صفاتكم.

{قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم} [(٣٨) سورة الأعراف] أي: من الأمم السالفة الكافرة {مِّن الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ} [(٣٨) سورة الأعراف] يحتمل أن يكون بدلاً من قوله: {فِي أُمَمٍ} [(٣٨) سورة الأعراف] ويحتمل أن يكون {فِي أُمَمٍ} أي: مع أمم.

وقوله: {كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا} [(٣٨) سورة الأعراف] كما قال الخليل -عليه السلام-: {ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ} الآية [(٢٥) سورة العنكبوت].

وقوله تعالى: {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ} [(١٦٧) سورة البقرة].

يقصد الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أن قوله تعالى: {كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا} [(٣٨) سورة الأعراف] أنها تلعن أهل ملتها، يعني إذا اجتمعت هذه الأمم في النار، اجتمع أولها وآخرها فيلعن بعضها بعضاً ويتبرأ بعضها من بعض، فالأمة الواحدة يحصل بينها هذا في النار، وليس المقصود أن كل أمة تلعن الأمة الأخرى، وإنما الأمة الواحدة إذا ادّاركوا في النار بأن دخل الأولون ودخل الآخرون وقع بينهم هذا اللعن والتبرؤ، فيتبرأ الأتباع من المتبوعين ويتبرأ المتبوعون من الأتباع، ويتبرأ آخرهم من أولهم وأولهم من آخرهم -نسأل الله العافية-، وهذا المعنى هو المعنى المتبادر المشهور الذي عليه عامة المحققين من المفسرين، أي كلما دخلت أمة لعنت وشتمت أهل ملتها، وهذا صرح به جماعة من أهل العلم ككبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- ويدل على هذا المعنى قوله تعالى بعد ذلك: {وَقَالَتْ أُولاَهُمْ لأُخْرَاهُمْ} الآيات [(٣٩) سورة الأعراف].

وقوله: {حَتَّى إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا} أي: اجتمعوا فيها كلهم.

يعني أدرك بعضهم بعضاً فاجتمعوا فيها.

{قَالَتْ أُخْرَاهُمْ} أي أخراهم دخولاً وهم الأتباع {لأُولاَهُمْ} وهم المتبوعون؛ لأنهم أشد جرماً من أتباعهم.

الحافظ ابن كثير –رحمه الله- من دقة عبارته جمع بين معنيين مشهورين في قوله تعالى: {قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ} [(٣٨) سورة الأعراف] فالمعنى الأول: أي أخراهم دخولاً في النار، أي الطائفة المتأخرة التي دخلت تقول للتي دخلت قبلها، والمعنى الثاني {قَالَتْ أُخْرَاهُمْ} يعني الأتباع يقولون للمتبوعين، فالحافظ ابن كثير -رحمه الله- ما احتاج أن يرجح بين المعنيين، بل جمع بينهما فقال عن الآخرة: أي دخولاً وهم الأتباع بمعنى أن الأتباع يدخلون بعد المتبوعين؛ لأن المتبوعين تقدّموهم حيث كانوا قبلهم وهم قدوتهم في الشر والضلال الكفر.

أي أخراهم دخولاً وهم الأتباع لأولاهم وهم المتبوعون؛ لأنهم أشد جرماً من أتباعهم فدخلوا قبلهم، فيشكونهم الأتباع إلى الله يوم القيامة؛ لأنهم هم الذين أضلوهم عن سواء السبيل فيقولون: {رَبَّنَا هَؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ} [(٣٨) سورة الأعراف] أي: أضعف عليهم العقوبة، كما قال تعالى: {يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا * وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ} الآية [(٦٦ -٦٨) سورة الأحزاب].

وقوله: {قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ} [(٣٨) سورة الأعراف] أي: قد فعلنا ذلك وجازينا كلاً بحسبه، كقوله: {الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا} الآية [(٨٨) سورة النحل] وقال تعالى: {وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ} [(١٣) سورة العنكبوت] وقال: {وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ} الآية [(٢٥) سورة النحل].

يعني باعتبار أن الأتباع أضلوهم فتحملوا ذنوب أنفسهم وذنوب من وقع لهم الإضلال عليهم، وهؤلاء الأتباع أيضاً لا يخلو الواحد منهم من أن يضل غيره كأن ينشئ ولده على الكفر أو نحو ذلك كما قال –صلى الله عليه وسلم -: ((فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه))[3] وكذلك يحصل منه أن يقتدي به ويتأثر به، ويقبل منه غيرُه فيحصل منه إضلال له، فيتحمل ذلك أيضاً كما تحمل الذي قبله، لذلك قال: {لِكُلٍّ ضِعْفٌ} [(٣٨) سورة الأعراف].

{وَقَالَتْ أُولاَهُمْ لأُخْرَاهُمْ} أي: قال المتبوعون للأتباع {فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ} [(٣٩) سورة الأعراف].

قال السدي: فقد ضللتم كما ضللنا.

قولهم: {فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ} [(٣٩) سورة الأعراف] يعني نحن ما أجبرناكم وإنما جاءتكم الرسل ونزلت عليكم الكتب وأعطاكم الله عقولاً فلم تستعملوها ولم تعقلوا عن الله -عز وجل- فأنتم ونحن سواء، وهذا كما يقول إبليس: {إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ} الآية [(٢٢) سورة إبراهيم].

{فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ} [(٣٩) سورة الأعراف] وهذه الحال كما أخبر الله تعالى عنهم في حال محشرهم في قوله تعالى: {قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءكُم بَلْ

---

[3] - أخرجه البخاري في كتاب الجنائز - باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه وهل يعرض على الصبي الإسلام (١٢٩٣) (ج ١ / ص ٤٥٦) ومسلم في كتاب القدر - باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين (٢٦٥٨) (ج ٤ / ص ٢٠٤٧).

كُنتُم مُّجْرِمِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [(٣٣) سورة سبأ].

{إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ * لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ} [(٤٠ - ٤١) سورة الأعراف].

قوله: {لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء} قيل المراد: لا يرفع لهم منها عمل صالح ولا دعاء، قاله مجاهد وسعيد بن جبير، ورواه العوفي وعلي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله عنهما - وكذا رواه الثوري عن ليث عن عطاء عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما -.

وقيل: المراد لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء، رواه الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما - وقاله السدي وغير واحد، ويؤيده ما رواه ابن جرير عن البراء -رضي الله تعالى عنه - أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم - ذكر قبض روح الفاجر وأنه يُصعد بها إلى السماء، قال: ((فيصعدون بها فلا تمرُّ على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلان -بأقبح أسمائه التي كان يدعى بها في الدنيا - حتى ينتهوا بها إلى السماء فيستفتحون بابها له فلا يفتح له)) ثم قرأ رسول الله -صلى الله عليه وسلم -: {لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء} الآية [(٤٠) سورة الأعراف]، هكذا رواه، وهو قطعة من حديث طويل رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه[٤].

وقد قال ابن جريج في قوله: {لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء} [(٤٠) سورة الأعراف] لا تفتح لأعمالهم ولا لأرواحهم، وهذا فيه جمع بين القولين والله أعلم.

المعنى الأول دل عليه الحديث، وإذا ثبت التفسير عن النبي -صلى الله عليه وسلم - فلا مقال لأحد بعده، لكن هذا لا يعني أن عموم الآية لا يدخل فيه المعنى الآخر، بمعنى أنه يُقطع بالمعنى الذي ذكر في الحديث وهو أنها لا تفتح لأرواحهم، لكن هذا لا ينفي دخول المعنى الآخر وهو أنها لا تفتح لأعمالهم، ولهذا فهذا القول الذي ذكره عن ابن جريج -رحمه الله - هو جمعٌ بين المعنيين، وهذا هو الذي فسرها به ابن جرير -رحمه الله - وابن القيم وجماعة من أهل العلم، أي لا تفتح لأرواحهم ولا لأعمالهم، والحافظ ابن القيم -رحمه الله - يقول في بعض كتبه: لما لم تفتح السماء لأعمالهم الصالحة لم تفتح لأرواحهم، بخلاف أهل الإيمان فالعمل الصالح يرتفع لهم صباح مساء فإذا ماتوا فتحت أبواب السماء لأرواحهم[٥].

والله -عز وجل - يقول: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} [(١٠) سورة فاطر] فترفع الأعمال إلى الله -تبارك وتعالى - وإليه يصعد الكلم الطيب، وأما الكفار فلا يصعد لهم كلم طيب ولا عمل صالح، وإذا ماتوا فإن أبواب السماء تغلق فلا تدخل أرواحهم منها، والله أعلم.

---

[4] - أخرجه أحمد (١٨٥٥٧) (ج ٤ / ص ٢٨٧) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (١٦٧٦).

[5] - له -رحمه الله - كلام بهذا المعنى في مدارج السالكين (ج ١ / ص ٧٢).

وقوله تعالى: {وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ} [(٤٠) سورة الأعراف] فسروه بأنه البعير، قال ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه -: هو الجمل، ابن الناقة، وفي رواية: زوج الناقة.

وقال مجاهد وعكرمة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما -: إنه كان يقرؤها (حتى يلج الجُمَّل في سم الخياط) بضم الجيم وتشديد الميم، يعني الحبل الغليظ في خرم الإبرة.

يقول تعالى: **{وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ}** [(٤٠) سورة الأعراف] قال الحافظ: **"قال ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه -: هو الجمل، ابن الناقة، وفي رواية: زوج الناقة"** الذي يقرأ هذا الكلام لأول وهلة قد يستغرب من هذا الإيضاح إذ كيف يقول: ابن الناقة ويقول: زوج الناقة؛ لأن هذا إيضاح لما لا يخفى، لكن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه - ابتلي بمن ينقر ويسأل، ولهذا فإن بعض السلف -رضي الله عنه - لما ذكر هذا قال: الجمل الذي له أربع قوائم، والسبب أن من الناس من ينقر تنقيراً كما قيل عن ذلك الأديب الذي قرأ بعضهم عليه بيتاً وفيه ذكر الجمل، فسأل ذلك القارئُ -وكان في المسجد أمام الناس - ما هو الجمل؟ فقال الأديب: هو البعير، قال: وما هو البعير؟ قال: ابن الناقة، قال: وما هو ابن الناقة؟ فغضب هذا الأديب وخرج عن طوره فجعل يحبو على أربع أمام الناس وله رغاء كرغاء البعير وهو يقول: هو الجمل الذي يقول هكذا!!

المقصود أن من الناس من يسأل عن الأشياء الواضحة البينة فتأتي مثل هذه العبارات، لذلك لا تستغرب أن ينقل عن ابن مسعود مثل هذا "ابن الناقة .. زوج الناقة..".

يقول تعالى: **{حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ}** [(٤٠) سورة الأعراف] المعنى المتبادر أن الجمل هو الجمل المعروف، وأما على القراءة الأخرى التي قرأ فيها ابن عباس **(حتى يلج الجُمَّل)** وهي قراءة متواترة فيمكن أن يفسر الجُمَّل بمعنى آخر فيقال مثلاً: الجُمَّل هو الحبل الغليظ، وبعضهم يمثل له بحبل السفينة، وهو عبارة عن مجموعة من الحبال المفتولة بحيث تكون في غاية الغلظ والضخامة.

وفي هذه الآية أيضاً قراءات أخرى غير متواترة، وعلى كل حال فعلى القراءة المتواترة **{حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ}** [(٤٠) سورة الأعراف] يكون الجمل في الآية هو الجمل المعروف، وأما على قراءة **(الجُمَّل)** فيقال هو الحبل الغليظ أو حبل السفينة الذي يقال له: القَلْس، وأما السَّم والسِّم والسُّم فهو كل ثقب، وإذا أضيف إلى الخيط فيراد به ثقب الإبرة، والله أعلم.

وقوله: {لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ} [(٤١) سورة الأعراف] قال محمد بن كعب القرظي: {لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ} قال: الفرش {وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ} [(٤١) سورة الأعراف] قال اللحُف، وكذا قال الضحاك بن مزاحم والسدي، {وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ} [(٤١) سورة الأعراف].

{وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللّهُ لَقَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُواْ أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [(٤٢ -٤٣) سورة الأعراف].

لما ذكر تعالى حالَ الأشقياء عطف بذكر حال السعداء فقال: {وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ} أي: آمنت قلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم ضد أولئك الذين كفروا بآيات الله واستكبروا عنها.

وينبه تعالى على أن الإيمان والعمل به سهل؛ لأنه تعالى قال: {وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ} [(٤٢ -٤٣) سورة الأعراف] أي: من حسد وبغض.

في قول الله تعالى: **{وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا} [(٤٢) سورة الأعراف]** يمكن أن يكون قوله: **{لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا}** [(٤٢) سورة الأعراف] جملة اعتراضية، وعلى هذا يكون معنى الآية: والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون، وجاء بهذه الجملة المعترضة لدفع توهم قد يتوهمه السامع وهو أن هؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات قاموا بكل الأعمال الصالحة المقدور عليها وغير المقدور عليها فبيّن أن هذا غير صحيح؛ لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، فقوله: **{وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ}** يعني وعملوا الصالحات مما يقدرون عليها؛ لأننا لا نكلف نفساً إلا وسعها، فهو جاء بهذا القيد لبيان هذا المعنى، ومعلوم أن القيود في القرآن تأتي في كل موضع بحسب الحاجة إليها وهي أنواع كثيرة، ومن شاء فليراجع قواعد التفسير فهناك أمثلة وأنواع تذكر فيها هذه القيود في القرآن.

وقوله تعالى: **{وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ}** [(٤٣) سورة الأعراف] **قال الحافظ: "أي: من حسد وبغض"** هذا يمكن أن يفسر بهذا الحديث الذي ذكره هنا وهو أنهم يقفون على قنطرة بين الجنة والنار فيصفى ما في قلوبهم بسبب ما وقع بينهم من المظالم في الدنيا فيدخلون الجنة بقلوب نقية طاهرة لا غل فيها، والإنسان قد يكون في قلبه غل على إخوانه، نسأل الله العافية.

وقد قال علي -رضي الله عنه- لما كان يوم صفين: أرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير وعثمان ممن قال الله فيهم: **{وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ}** [(٤٣) سورة الأعراف] وهذا يدل على أن الغل على اسمه، وذلك أن الغل أصله الرباط الذي يكون في العنق، فهذا الغل يربط القلب، فلا يهنأ الإنسان براحة ولا يلتذ بعيش وقلبه يحمل الغل على أحد من المسلمين -نسأل الله العافية- وأول من يعذب بهذا الغل هو صاحبه حيث يتكدر عليه عيشه ويتنغص، لذلك لما كان الغل يكدر النعيم نفاه الله -عز وجل- عن أهل الجنة، ونزعه من قلوبهم قبل أن يدخلوها.

وبعض أهل العلم كابن جرير -رحمه الله- يرى -وبه قال طائفة من السلف- أن المقصود بالآية أنهم في الجنة حينما يتفاضلون في المراتب والمنازل لا يقع في نفوسهم حسد بسبب ما يرون من تفاوت النعيم كما هو الحال في الدنيا، فالناس فيها يتحاسدون بما يرون من تفاوتهم في هذا العرَض والحطام الذي يتفاضلون فيه، وكذلك ما يتفاضلون فيه من القدرات العقلية وغير ذلك من العلوم وما إلى ذلك مما يحصل به التفاضل بين الناس في الدنيا، أما في الجنة فلا يحصل ذلك.

وعلى كل حال إذا نُزع ما في صدورهم من الغل قبل دخولهم الجنة فإن قلوبهم تبقى طاهرة فلا يقع فيها غل وحسد بما يرون من التفاضل بين مراتب أهل الجنة.

كما جاء في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري -رضي الله تعالى عنه - قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم -: ((إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار فاقتص لهم مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذبوا ونقوا أُذن لهم في دخول الجنة، فوالذي نفسي بيده إن أحدهم بمنزله في الجنة أدلُّ منه بمسكنه كان في الدنيا))[٦].

وقال السدي في قوله: {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ} الآية [(٤٣) سورة الأعراف]: إن أهل الجنة إذا سيقوا إلى الجنة وجدوا عند بابها شجرة في أصل ساقها عينان فشربوا من إحداهما فينزع ما في صدورهم من غل، فهو الشراب الطهور، واغتسلوا من الأخرى فجرت عليهم نضرة النعيم فلم يشعثوا ولم يتسخوا بعدها أبداً.

هذا الأثر عن السدي، ومثل هذا يكون له حكم المرسل؛ لأن مثله لا يقال من جهة الرأي، ثم إنه يتعلق بتفسير آية، إلا إذا قيل: إن هذا مما أخذ عن بني إسرائيل، فالله أعلم.

روى النسائي وابن مردويه واللفظ له عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه - قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم -: ((كل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول: لولا أن الله هداني، فيكون له شكراً، وكل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول: لو أن الله هداني، فيكون له حسرة))[٧].

قوله: **{هَدَانَا لِهَذَا}** من قوله -تبارك وتعالى -: **{وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللّهُ}** [(٤٣) سورة الأعراف] يحتمل أن يكون المعنى هدانا للجنة، ويشهد له الحديث الذي مضى آنفاً وهو قوله -صلى الله عليه وسلم -: ((فوالذي نفسي بيده إن أحدهم بمنزله في الجنة أدلُّ منه بمسكنه في الدنيا))، وهو أيضاً بعض ما يفسر به قول الله -تبارك وتعالى -: **{وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ}** [(٤ -٥) سورة محمد] أي: يهديهم إلى الصراط، ويهديهم على الصراط ويهديهم إلى الجنة، ويهديهم إلى منازلهم في الجنة، كل ذلك حاصل لهم.

ويحتمل أن يكون المراد **{هَدَانَا لِهَذَا}** [(٤٣) سورة الأعراف] يعني هدانا في الدنيا إلى الإيمان والعمل الصالح الذي تسبب في دخول الجنة وهذا النعيم المقيم الذي أدركوه فيها، وهما معنيان متلازمان، فلا حاجة للترجيح بينهما ، والله تعالى أعلم، وعلى هذا يقال: **{الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا}** [(٤٣) سورة الأعراف] أي: هدانا لسببه وهو الإيمان والعمل الصالح، وهدانا أيضاً إلى هذا النعيم في الجنة، وهداهم إلى منازلهم فيها، وهذا الوجه من الجمع ذهب إليه الحافظ ابن القيم -رحمه الله - وهذا أحسن من الاقتصار على أحد هذين المعنيين والله تعالى أعلم؛ لوجود الملازمة بينهما، ومعلوم أن الآية إذا احتملت معنيين فأكثر وكان بينهما ملازمة فإنها تحمل عليهما إلا إذا وجد مانع يمنع من ذلك.

ولهذا لما أورثوا مقاعد أهل النار من الجنة نودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون أي: بسبب أعمالكم نالتكم الرحمة فدخلتم الجنة وتبوأتم منازلكم بحسب أعمالكم، وإنما وجب الحمل على هذا لما ثبت

---

[6] - أخرجه البخاري في كتاب الرقاق - باب القصاص يوم القيامة (٦١٧٠) (ج ٥ / ص ٢٣٩٤).

[7] - أخرجه أحمد (١٠٦٦٠) (ج ٢ / ص ٥١٢) والحاكم (٣٦٢٩) (ج ٢ / ص ٤٧٣) وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم (٤٥١٤).

في الصحيحين عنه -صلى الله عليه وسلم - أنه قال: ((واعلموا أن أحدكم لن يدخله عمله الجنة)) قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ((ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل))[٨]**.**

أي أن الباء للسببية في قوله: **{الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}** [(٤٣) سورة الأعراف] وقد جعلها الحافظ ابن كثير -رحمه الله - هنا سبباً لنيل الرحمة التي بها تنال الجنة، ولا إشكال في ذلك كما يمكن أن يقال أيضاً: إنها سبب لدخول الجنة، لكن هذا السبب ليس مستقلاً، بمعنى أنه لا يكفي وحده لدخول الجنة للحديث المذكور، وعلى كل حال العمل سبب، ورحمة الله -عز وجل - فوق ذلك، والله أعلم.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

---

[8] - أخرجه البخاري في كتاب الرقاق - باب القصد والمداومة على العمل (٦٠٩٨) (ج ٥ / ص ٢٣٧٣) ومسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم - باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى (٢٨١٦) (ج ٤ / ص ٢١٦٩).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأعراف (٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى - في تفسير قوله تعالى: {وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُواْ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ} [(٤٤ -٤٥) سورة الأعراف].

يخبر تعالى بما يخاطب به أهل النار على وجه التقريع والتوبيخ إذا استقروا في منازلهم {أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا} "أن" هاهنا مفسرة للقول المحذوف و"قد" للتحقيق أي قالوا لهم: {قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُواْ نَعَمْ} كما أخبر تعالى في سورة الصافات عن الذي كان له قرين من الكفار {فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاء الْجَحِيمِ * قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدتَّ لَتُرْدِينِ * وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ * أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ} [(٥٥ -٥٩) سورة الصافات] أي: ينكر عليه مقالته التي يقولها في الدنيا ويقرِّعه بما صار إليه من العذاب والنكال، وكذلك تقرعهم الملائكة، يقولون لهم: {هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ * اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاء عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [(١٤ -١٦) سورة الطور].

وكذلك قرَّع رسول الله -صلى الله عليه وسلم - قتلى القليب يوم بدر فنادى: ((يا أبا جهل بن هشام، ويا عتبة بن ربيعة، ويا شيبة بن ربيعة -وسمى رءوسهم - هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟، فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً)) وقال عمر: يا رسول الله، تخاطب قوماً قد جيَّفوا؟، قال: ((والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يستطيعون أن يجيبوا))[1].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن أهل الجنة لما خاطبوا أهل النار قالوا لهم: **{فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا}** [(٤٤) سورة الأعراف] فلم يقولوا: هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً، ووجه ذلك يحتمل أن يكون -والله أعلم - باعتبار أن الوعد هاهنا لا يختص بهم بل هو لكل الناس، فالله -عز وجل - توعد جميع المكذبين وتوعد من كذب وأعرض أي لم يكن الوعيد متوجهاً لهؤلاء بأعيانهم أو بخصوصهم وإنما هو وعيد عام.

ويحتمل أن يكون الخطاب كان بهذه الصورة؛ لسقوط مرتبة هؤلاء الكافرين عن رتبة التشريف بالخطاب، أي لم يتوجه إليهم خطاب الله -عز وجل - لانحطاط مرتبتهم، والعلم عند الله -تبارك وتعالى -.

---

[1] - أخرجه النسائي في كتاب الجنائز – باب أرواح المؤمنين (٢٠٧٥) (ج ٤ / ص ١٠٩) وأحمد (١٨٢) (ج ١ / ص ٢٦)

وقوله تعالى: {فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ} [(٤٤) سورة الأعراف] أي: أعلم معلم ونادى مناد.

هنا لم يحدد من هذا المؤذن، لكن بعض أهل العلم يقول: إنه من الملائكة، وليس على هذا دليل من الكتاب ولا من السنة، فالله تعالى أعلم.

{أَن لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ} أي: مستقرة عليهم.

ثم وصفهم بقوله: {الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ} [(٤٥) سورة الأعراف] أي: يصدون الناس عن اتباع سبيل الله وشرعه وما جاءت به الأنبياء، ويبغون أن تكون السبيل معوجة غير مستقيمة حتى لا يتبعها أحد.

يقال في قوله تعالى: {الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ} ما يقال في قوله -تبارك وتعالى -: {اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ} [(١٦) سورة المجادلة] باعتبار أن "صدّ" تأتي لازمة وتأتي متعدية، فقوله: {الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ} أي يصدون في أنفسهم فلا يؤمنون ولا يتبعون صراط الله المستقيم، وباعتبار أنها متعدية يقال: أي يصدون غيرهم ويضلونهم، فكل ذلك داخل في معناها والله تعالى أعلم.

والقول بأنهم يصدون غيرهم عن سبيل الله قد يتضمن المعنى الأول باعتبار أنهم ضلوا في أنفسهم ولم يكتفوا بهذا، بل أضلوا غيرهم وصدوهم وصرفوهم.

{وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ} [(٤٥) سورة الأعراف] أي وهم بلقاء الله في الدار الآخرة {كَافِرُونَ} أي: جاحدون مكذبون بذلك لا يصدقونه ولا يؤمنون به، فلهذا لا يبالون بما يأتون من منكر من القول والعمل؛ لأنهم لا يخافون حساباً عليه ولا عقاباً، فهم شرٌّ في الناس أقوالاً وأعمالاً.

{وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْاْ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ * وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاء أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [(٤٦ -٤٧) سورة الأعراف].

لما ذكر تعالى مخاطبة أهل الجنة مع أهل النار نبَّه أن بين الجنة والنار حجاباً، وهو الحاجز المانع من وصول أهل النار إلى الجنة.

قال ابن جرير: وهو السور الذي قال الله تعالى فيه: {فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ} [(١٣) سورة الحديد] وهو الأعراف.

تفسير السور في قوله تعالى: {فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ} [(١٣) سورة الحديد] -أي: بين المؤمنين وبين المنافقين- بأنه الأعراف ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- وذكره أيضاً كبير المفسرين ابن جرير وذكره طائفة من أهل العلم كابن القيم وكذلك الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحم الله الجميع-، ويكون ذلك من قبيل تفسير القرآن بالقرآن، ولكن في مثل هذا الموضع لا يجزم بأن هذا هو تفسيره فقد يكون كذلك وقد لا يكون، ومعلوم أن تفسير القرآن بالقرآن منه ما يلوح فيه وجه الارتباط كقوله -تبارك وتعالى-: {وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ} [(١٤٦) سورة الأنعام] مع قوله: {وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ} [(١١٨) سورة النحل] فآية النحل هذه تفسرها آية الأنعام، وهكذا في مثل قوله: {الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [(٢) سورة الفاتحة] مع قوله: {قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا} [(٢٣-٢٤)

سورة الشعراء] بهذا يفسر هذا اللفظ، لكن تفسير قوله: {وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ} [(٤٦) سورة الأعراف] بقوله: {فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ} [(١٣) سورة الحديد] هذا احتمال قد يكون كذلك، وقد يكون السور الذي يضرب بين المؤمنين والمنافقين ليس هو الحجاب المذكور في سورة الأعراف، والعلم عند الله -عز وجل-.

وهو الأعراف الذي قال الله تعالى فيه: {وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ} [(٤٦) سورة الأعراف] ثم روى بإسناده عن السدي أنه قال في قوله تعالى: {وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ} [(٤٦) سورة الأعراف]: وهو السور وهو الأعراف.

وقال مجاهد: الأعراف حجاب بين الجنة والنار، سور له باب.

قال ابن جرير: والأعراف جمع عُرف، وكل مرتفع من الأرض عند العرب يسمى عُرفاً، وإنما قيل لعرف الديك عرفاً لارتفاعه، وقال السدي: إنما سمي الأعراف أعرافاً؛ لأن أصحابه يعرفون الناس.

ومن أهل العلم من وجهه مثل قول السدي: أي أن أصحابه يعرفون الناس باعتبار أنهم في مكان مشرف على أهل الجنة وأهل النار فيعرفون أهل الجنة بعلاماتهم كمواضع السجود التي لا تأكلها النار، ويعرفون أهل النار بعلاماتهم، ومن علاماتهم ما ذكره الله تعالى في قوله: {وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا} [(١٠٢) سورة طـه] ويعرفونهم بالسواد كما قال -عز وجل-: {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ} [(١٠٦) سورة آل عمران].

وأصحاب الأعراف هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم.

هذا القول هو المشهور في تفسير أصحاب الأعراف، وهو الذي عليه عامة السلف من الصحابة -رضي الله عنهم- ومن بعدهم، ولم يرد تحديد ذلك في شيء ثابت عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ولم يتفق الصحابة -رضي الله عنهم- على معنىً فيه، وإنما فيه أقوال متعددة، لكن هذا هو الأشهر، أي: أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، وهذا أحسن من أن يفسر أصحاب الأعراف بأنهم من الملائكة؛ لأنهم لو كانوا كذلك فإن السياق بعده لا يساعد على هذا، كما سيأتي في قوله تعالى: {لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ} [(٤٦) سورة الأعراف] يعني أصحاب الأعراف -على الراجح- وهذا لا يرد في الملائكة.

وكذلك القول بأنهم ناس من أفضل أهل الإيمان قد فرغ من حسابهم فتفرغوا للاطلاع على حال هؤلاء وهؤلاء -كما قال بعضهم- فهذا قول فيه بعد أيضاً؛ لقوله تعالى: {لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ} [(٤٦) سورة الأعراف] فأهل الإيمان السابقون لا يكونون بمثابة من يطمعون في دخول الجنة، وإنما يكون هذا في قوم يرجون دخولها لم تبلغ بهم أعمالهم أن تدخلهم الجنة.

ويبعد قول من قال أيضاً: إنهم الذين خرجوا للجهاد في سبيل الله -عز وجل- وقتلوا في سبيله ممن لم يأذن لهم آباءهم فحبسوا عن الجنة لذلك، وكذلك قول من قال: إن هؤلاء أولاد الزنا وكذا قول من قال: إنهم أهل الفترة، فأهل الفترة ورد أنهم يمتحنون ولذلك لا يحكم على جميعهم أنهم لم يدخلوها وهم يطمعون، والمقصود أن أقرب هذه الأقوال -والله أعلم- أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فلم ترجح كفة السيئات فيدخلوا النار ولم ترجح كفة الحسنات فيدخلوا الجنة، فبقوا على الأعراف بسبب ذلك، والله أعلم.

وأصحاب الأعراف: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، نص عليه حذيفة وابن عباس وابن مسعود -رضي الله تعالى عنهم- وغير واحد من السلف والخلف -رحمهم الله-.

وروى ابن جرير عن حذيفة -رضي الله تعالى عنه - أنه سئل عن أصحاب الأعراف قال: فقال: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، فقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة وخلّفت بهم حسناتهم عن النار، قال: فوقفوا هناك على السور حتى يقضي الله فيهم.

وأبعد الأقوال قول من قال: إن أصحاب الأعراف هم الأنبياء، فالأنبياء لا يقال في حقهم: **{لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ}** [(٤٦) سورة الأعراف].

والقول: إنهم العدول من كل أمة من الأمم -الشهداء يوم القيامة - الذين يشهدون على الناس هذا لا دليل عليه.

وقال معمر عن الحسن: إنه تلا هذه الآية {لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ} [(٤٦) سورة الأعراف] قال: والله ما جعل ذلك الطمع في قلوبهم إلا لكرامة يريدها بهم، وقال قتادة: قد أنبأكم الله بمكانهم من الطمع.

التمني هو أن يرجو المرء حصول شيء يستحيل وقوعه، أو يطلب حصول شيء يستحيل وقوعه أو يبعد في مجاري العادات كما قال الشاعر:

ألا ليت الشباب يعود يوماً   فأخبره بما فعل المشيب

ومن صور طلب المستحيل أن يتمنى الإنسان المفرّط المهمل أن يكون متفوقاً في دراسته ونتائج اختباره، فمثل هذا يسمى تمنياً.

أما الرجاء والطمع فهو الشيء قريب المنال، ولهذا قال الله -عز وجل -: **{فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ}** [(٣٢) سورة الأحزاب] وذلك أنها إذا خضعت بالكلام وتغنّجت وتكسرت مع الرجال الأجانب فإنهم يطمعون فيها، بمعنى أنّ أخْذها قريب وأنها سهلة التناول بتغنجها وتكسرها خلافاً للأخرى النزيهة الشريفة العفيفة فإنهم لا يطمعون فيها، ولذلك تقول: أطمعته فطمع أي أنك ترجّيه حتى تجعل ذلك الشيء قريب المنال بالنسبة إليه فيطمع في حصوله، فهؤلاء لم يدخلوا الجنة وهم يطمعون بدخولها؛ لأن دخلوها أمر قريب بالنسبة إليهم، فهم في حال لم ييأسوا معها من دخول الجنة خلافاً لأهل النار ولذلك لا يكون ذلك تمنياً بالنسبة إليهم بل هو شيء قريب المنال، فهم من أهل الإيمان وعندهم من العمل الصالح ما يُطمعهم بدخول الجنة لكن عملهم السيئ هو الذي أقعدهم، والعبرة بما غلب؛ فالله -عز وجل - يضع الموازين وتوزن أعمال الناس فمن غلبت حسناته نجا، وويل لمن غلبت آحاده عشراته فهذا هو الهالك.

وفي قوله تعالى: **{لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ}** [(٤٦) سورة الأعراف] بعض أهل العلم يفسر الطمع بالعلم، يعني وهم يعلمون، وهذا خلاف الظاهر المتبادر، والله أعلم.

والضمير في قوله: **{لَمْ يَدْخُلُوهَا}** [(٤٦) سورة الأعراف] هل يرجع إلى أصحاب الجنة أم إلى أصحاب الأعراف؟ بمعنى هل أصحاب الأعراف يقولون: إن أصحاب الجنة لم يدخلوا الجنة وهم يطمعون وإنما دخلوها برحمة الله -عز وجل - أم أن أصحاب الجنة هم الذين يقولون: إن أصحاب الأعراف لم يدخلوا الجنة وهم يطمعون في ذلك؟

الثاني هو الأقرب، والله تعالى أعلم، يعني أن أصحاب الأعراف لم يدخلوا الجنة وهم يطمعون بدخولها، وهذا المعنى هو الذي اختاره ابن القيم -رحمه الله - وهو الذي يدل عليه قول قتادة وقول الحسن –رحمهما الله - فقد قال الحسن: **{لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ}** قال: والله ما جعل ذلك الطمع في قلوبهم إلا لكرامة يريدها بهم،

وقال قتادة: قد أنبأكم الله بمكانهم من الطمع، وهذا يدل على أن الضمير يعود إلى أصحاب الأعراف، أي أن الله يصف حالهم في هذه الآية فيقول: إنهم ما دخلوا الجنة بعد وهم يطمعون في دخولها.

وقوله: {وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاء أَصْحَابِ النَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [(٤٧) سورة الأعراف].

قال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما -: إن أصحاب الأعراف إذا نظروا إلى أهل النار وعرفوهم قالوا: {رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [(٤٧) سورة الأعراف].

يقول تعالى: **{وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاء أَصْحَابِ النَّارِ}** [(٤٧) سورة الأعراف] معنى "تلقاء" يعني جهة اللقاء، وهي جهة المقابلة.

ولفظ "تلقاء" مصدر على وزن تِفعال لا يوجد له في اللغة العربية نظير إلا "تبيان" فقط، وإلا فالباقي بالفتح، فتقول: تَكرار -بالفتح- ولا يصح تِكرار -بالكسر-.

{وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُواْ مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ * أَهَؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ اللّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ} [(٤٨ -٤٩) سورة الأعراف].

يقول الله تعالى إخباراً عن تقريع أهل الأعراف لرجال من صناديد المشركين وقادتهم يعرفونهم في النار بسيماهم: {مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ} أي: كثرتكم {وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ} [(٤٨) سورة الأعراف].

السيما هي العلامة كما قال تعالى: **{تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ}** [(٢٧٣) سورة البقرة] وعلامة أهل النار كما سبق في قوله: **{وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا}** [(١٠٢) سورة طــه] أي أن عيونهم زرق، ومثل هذا قوله تعالى: **{يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ}** [(١٠٦) سورة آل عمران] يعني يُعرَفون بسواد وجوههم.

{وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ} [(٤٨) سورة الأعراف] أي: لا ينفعكم كثرتكم ولا جموعكم من عذاب الله، بل صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب والنكال.

{أَهَؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ اللّهُ بِرَحْمَةٍ} [(٤٩) سورة الأعراف] قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما -: يعني: أصحاب الأعراف {ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ} [(٤٩) سورة الأعراف].

إذا فسرت الإشارة في قوله: **{أَهَؤُلاء}** أنها عائدة إلى أصحاب الأعراف فيكون ذلك ليس من كلام أصحاب الأعراف وإنما هو كلام متكلم آخر يقول: **{أَهَؤُلاء}** يعني أصحاب الأعراف الذين أقسمتم أيها المشركون أنهم لن ينالهم الله برحمة يقال لهم: ادخلوا الجنة.

والقول الآخر أن هذا من تمام كلام أصحاب الأعراف يقولون لأهل النار: **{أَهَؤُلاء}** أي أصحاب الجنة الذين كنتم تحتقرونهم في الدنيا وتقولون عنهم: **{لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ}** [(١١) سورة الأحقاف] وتقولون: إنَّ الآخرة -لو كان ثمَّ بعث- لكم كما قال قائلكم: **{لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا}** [(٧٧) سورة مريم] وكما قال بعضكم: **{مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا}** [(٢٧) سورة هود] وأشباه ذلك مما كنتم تحتقرونهم به وترجّون لأنفسكم أنه لو كان بعث ونشور فإن الآخرة ستكون لكم! أي هاهو يقال لمن احتقرتموهم: **{ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ}** [(٤٩) سورة الأعراف].

وقول من قال: إن قوله: {أَهَؤُلاء} عائد إلى أصحاب الأعراف، لعله حمله على ذلك القرينةُ المذكورة في الآية وهي قوله: {ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ} [(٤٩) سورة الأعراف] باعتبار أن أهل الجنة قد دخلوا الجنة وما بقي إلا هؤلاء قد حبسوا عنها وذلك أن أهل النار يسيئون الظن بهم لكن يجدونهم قد قيل لهم: {ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ} [(٤٩) سورة الأعراف].

وقد قال جماعة من السلف: إن أصحاب الأعراف هم آخر من يدخل الجنة ممن لم يدخل النار، والعلم عند الله -عز وجل -.

{وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَاء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ * الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ} [(٥٠ -٥١) سورة الأعراف].

يخبر تعالى عن ذلة أهل النار وسؤالهم أهل الجنة من شرابهم وطعامهم وأنهم لا يجابون إلى ذلك.

في قوله: "**يخبر تعالى عن ذلة أهل النار وسؤالهم أهل الجنة من شرابهم وطعامهم**" من أين جاء الطعام؟

قولهم: {أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ} [(٥٠) سورة الأعراف] محمولٌ على الطعام، والله أعلم.

قال السدي: {وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَاء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ} [(٥٠) سورة الأعراف] يعني الطعام.

وقال الثوري عن عثمان الثقفي عن سعيد بن جبير في هذا الآية قال: ينادي الرجل أباه أو أخاه فيقول له: قد احترقت فأفض عليَّ من الماء فيقال لهم: أجيبوهم، فيقولون: {إِنَّ اللّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ} [(٥٠) سورة الأعراف].

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: {إِنَّ اللّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ} [(٥٠) سورة الأعراف] يعني طعام الجنة وشرابها.

ثم وصف تعالى الكافرين بما كانوا يعتمدونه في الدنيا باتخاذهم الدين لهواً ولعباً واغترارهم بالدنيا وزينتها وزخرفها عما أمروا به من العمل للآخرة.

وقوله: {فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَذَا} [(٥١) سورة الأعراف] أي: يعاملهم معاملة من نسيهم؛ لأنه تعالى لا يشذّ عن علمه شيء ولا ينساه كما قال تعالى: {فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى} [(٥٢) سورة طـه] وإنما قال تعالى هذا من باب المقابلة كقوله: {نَسُواْ اللّهَ فَنَسِيَهُمْ} [(٦٧) سورة التوبة] وقال: {كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى} [(١٢٦) سورة طـه] وقال تعالى: {وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا} [(٣٤) سورة الجاثية].

وقال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما - في قوله: {فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَذَا} [(٥١) سورة الأعراف] قال: نسيهم الله من الخير ولم ينسهم من الشر.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما - قال: نتركهم كما تركوا لقاء يومهم هذا.

وقال مجاهد: نتركهم في النار، وقال السدي: نتركهم من الرحمة كما تركوا أن يعملوا للقاء يومهم هذا.

وفي الصحيح أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: ((ألم أزوجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى، فيقول: أظننت أنك ملاقيَّ؟ فيقول: لا، فيقول الله تعالى: فاليوم أنساك كما نسيتني))[2].

النسيان في كلام العرب يأتي لمعنيين، يأتي بمعنى ذهاب المعلوم من الذهن، -والسهو هو الذهول عنه مع بقائه في الذهن، كما قال صاحب المراقي:

ذهاب ما علم قل نسيان   والعلم في السهو له اكتنان

-ويأتي النسيان بمعنى آخر هو الترك، وهو المراد هنا والله تعالى أعلم، وهذا معنى معروف في كلام العرب.

قوله: **{نَسُواْ اللّهَ فَنَسِيَهُمْ}** [(٦٧) سورة التوبة] أي أعرضوا عن أمره ونهيه وتركوه وراء ظهورهم فتركهم الله -عز وجل - في الآخرة وأعرض عنهم ولم تتلهم رحمته بل تركوا في النار، ولا حاجة أن يقال: إن النسيان هنا من قبيل المجاز ولا يحتاج مثل هذا المقام إلى تطويل، وإنما يقال: النسيان في كلام العرب يأتي لهذا وهذا، والمقصود به هنا الترك، والله تعالى أعلم.

{وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء فَيَشْفَعُواْ لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ} [(٥٢ -٥٣) سورة الأعراف].

يقول تعالى مخبراً عن إعذاره إلى المشركين بإرسال الرسل إليهم بالكتاب الذي جاء به الرسول وأنه كتاب مفصَّل مبيّن كقوله: {كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ} الآية [(٣) سورة هود].

وقوله: {فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ} [(٥٢) سورة الأعراف] أي: على علم منا بما فصلناه به، كقوله: {أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ} [(١٦٦) سورة النساء].

والمقصود أنه لما أخبر بما صاروا من الخسارة في الآخرة ذكر أنه قد أزاح عللهم في الدنيا بإرسال الرسل وإنزال الكتب كقوله: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً} [(١٥) سورة الإسراء] ولهذا قال: {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ} [(٥٣) سورة الأعراف] أي: ما وعدوا به من العذاب والنكال والجنة والنار، قاله مجاهد وغير واحد.

قوله تعالى: **{هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ}** [(٥٣) سورة الأعراف] يعني وقوع ما أخبر به؛ لأن التأويل من الأَوْل وذلك يأتي لمعنيين: الأول: هو التفسير، وتأويل الكلام هو تفسيره، وتأويل الرؤيا يأتي بمعنى تفسير الرؤيا كما قال تعالى: **{نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ}** [(٣٦) سورة يوسف] أي بتفسيره، وتأويل الرؤيا أيضاً وقوعها وتحققها كما قال تعالى: **{هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ}** [(١٠٠) سورة يوسف] وذلك لما رأى الشمس والقمر قد سجدوا له.

ويأتي التأويل بمعنى ما يئول إليه الشيء في ثاني الحال، وتأويل الأمر هو فعل المأمور كما في حديث عائشة -رضي الله عنها - أنها قالت: كان النبي -صلى الله عليه وسلم - يقول في ركوعه وسجوده: ((سبحانك اللهم

[2] - أخرجه مسلم في كتاب الزهد والرقائق (٢٩٦٨) (ج ٤ / ص ٢٢٧٩)

ربنا وبحمدك الله اغفر لي)) يتأول القرآن"[3] أي: يمتثل قوله تعالى: {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ} [(٣) سورة النصر].

وتأويل الخبر يعني وقوع المخبر به وهو المراد بقوله تعالى: {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ} [(٥٣) سورة الأعراف] يعني وقوع ما أخبر به من القيامة والبعث والنشور والجنة والنار.

وأما صرف اللفظ من المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح فهذا اصطلاح حادث لا يفسر به القرآن؛ لأنه لا يجوز حمل القرآن على مصطلح حادث.

وقوله: {يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ} [(٥٣) سورة الأعراف] أي: يوم القيامة.

قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما -: {يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ} [(٥٣) سورة الأعراف] أي: تركوا العمل به وتناسوه في الدار الدنيا.

{قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء فَيَشْفَعُواْ لَنَا} [(٥٣) سورة الأعراف] أي: في خلاصنا مما صرنا إليه مما نحن فيه {أَوْ نُرَدُّ} إلى الدار الدنيا {فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ} [(٥٣) سورة الأعراف] كقوله: {وَلَوْ تَرَىَ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} [(٢٧ -٢٨) سورة الأنعام] كما قال هاهنا: {قَدْ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ} [(٥٣) سورة الأعراف] أي: خسروا أنفسهم بدخولهم النار وخلودهم فيها {وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ} [(٥٣) سورة الأعراف] أي: ذهب عنهم ما كانوا يعبدونهم من دون الله فلا يشفعون فيهم ولا ينصرونهم ولا ينقذونهم مما هم فيه.

{إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [(٥٤) سورة الأعراف].

يخبر تعالى أنه خلق العالم سماواته وأرضه وما بين ذلك في ستة أيام كما أخبر بذلك في غير ما آية من القرآن، والستة الأيام هي: الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة وفيه اجتمع الخلق كله، وفيه خلق آدم -عليه السلام -.

واختلفوا في هذه الأيام هل كل يوم منها كهذه الأيام، كما هو المتبادر إلى الأذهان؟ أو كل يوم كألف سنة كما نص على ذلك مجاهد والإمام أحمد بن حنبل، ويروى ذلك من رواية الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما -؟، فأما يوم السبت فلم يقع فيه خلق؛ لأنه اليوم السابع، ومنه سمي السبت، وهو القطع.

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه - قال: أخذ رسول الله -صلى الله عليه وسلم - بيدي فقال: ((خلق الله التربة يوم السبت، وخلق الجبال فيها يوم الأحد، وخلق الشجر فيها يوم الاثنين،

---

[3] - أخرجه البخاري في كتاب صفة الصلاة - باب التسبيح والدعاء في السجود (٧٨٤) (ج ١ / ص ٢٨١) ومسلم في كتاب الصلاة - باب ما يقال في الركوع والسجود (٤٨٤) (ج ١ / ص ٣٥٠).

وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة ،آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل))[٤].

يقول –رحمه الله -: **"فأما يوم السبت فلم يقع فيه خلق؛ لأنه اليوم السابع، ومنه سمي السبت وهو القطع"** وقوله تعالى: **{إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً}** [(١٦٣) سورة الأعراف] أي: يوم ينقطعون عن الأعمال، وذلك يوم إجازتهم.

وعلى كل حال فالمشهور الذي دلت عليه الأدلة أن يوم السبت لم يقع فيه خلق، والله -عز وجل- خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان ابتداء الخلق يوم الأحد.

وبالنسبة لأهل الجاهلية فإنهم كانوا يسمون يوم الأحد "أول" ويعتبرونه أول أيام الأسبوع، ويوم الجمعة كانوا يسمونه "عروبة".

والحاصل أن ابتداء الخلق كان يوم الأحد، ويوم السبت لم يقع فيه خلق، وآخر الخلق كان يوم الجمعة، وآدم -صلى الله عليه وسلم- خلق في آخر ساعة من يوم الجمعة.

وهذا الحديث الذي أخرجه مسلم عن أبي هريرة -رضي الله عنه- فيه إشكالان: الأول: أنه جعل الخلق مبتدأً يوم السبت، وهذا خلاف الأدلة الأخرى.

والإشكال الثاني: أنه جعل أيام الأسبوع كلها أيام خلق، فذكر السبت والأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة فصار الخلق في سبعة أيام، أضف إلى ذلك أنه ذكر في خلْق هذه الأشياء -التربة والشجر والمكروه والنور والدواب- يومَ الخميس، وخلْق آدم في يوم الجمعة، والله -عز وجل- أخبر أنه خلق الأرض في يومين وخلق السماوات في يومين وأنه بثّ أو قدر فيها أقواتها في يومين فصار ما يتعلق بالأرض جميعاً من خلْق ودَحْوٍ في أربعة أيام، فهنا جعل الخلق في سبعة أيام وهو مخالف لقوله تعالى: **{إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ}** [(٣) سورة يونس].

وقد تكلم العلماء على هذا الحديث وقالوا: إنه غلط وليس عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وإنما هو مما رواه أبو هريرة -رضي الله عنه- عن بني إسرائيل، ورفْعه لا يصح إلى رسول الله -عليه الصلاة والسلام- وقد قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- في دروسه التي كانت في التفسير كلاماً جيداً يمكن الاستفادة منه.

قال الشنقيطي –رحمه الله تعالى -: والعلماء يقولون: إن هذه الأيام المراد بها أوقاتها؛ لأنه في ذلك الوقت لم يكن هنالك يوم؛ لأن اليوم من طلوع الشمس إلى غروبها، وإن لم يكن هنالك شمس لا يعرف اليوم، إلا أن الله قبل أن يخلق الشمس والقمر يعلم زمن الأيام قبل وجود الشمس.

وهذه الأيام قد جاء في روايات كثيرة أن أولها الأحد وآخرها الجمعة، والقرآن بيّن أنه خلق الأرض في يومين، ثم خلق فيها الجبال والأقوات والأرزاق في يومين، ثم خلق السماوات في يومين، فهي ستة أيام، ويوم السبت ليس منها، وما جاء في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن الله

---

[4] - كتاب صفات المنافقين وأحكامهم - باب ابتداء الخلق وخلق آدم -عليه السلام- (٢٧٨٩) (ج ٤ / ص ٢١٤٩).

خلق التربة يوم السبت، وجعل في كل من أيام الأسبوع بعض الخلق وإن كان في صحيح مسلم فهو غَلَطٌ، غَلِط بعض الرواة في رفعه، والظاهر أنه أخذه أبو هريرة -رضي الله تعالى عنه - عن كعب الأحبار أو نحوه من الإسرائيليات؛ لأنه خلاف القرآن الصحيح أن السبت لم يكن من الأيام التي خُلق فيها شيء، وأن السماوات والأرض وما بينهما خلقت في ستة أيام من الأسبوع أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة، خلق الله فيه آدم بعد صلاة العصر.

وهذه الأيام قال بعض العلماء إنها كأيام الدنيا، وقال بعضهم: اليوم منها هو المذكور في قوله: {وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ} [(٤٧) سورة الحـج] **والله خلق السماوات والأرض وما بينها في ستة أيام -مع أنه قادر على أن يخلق الجميع في لحظة واحدة كلمح البصر - لحكمته -جل وعلا -.**

قال بعض العلماء: أراد أن يعلّم خلقه التمهل في الأمور والتدرج فيها؛ ليقدروا عليها، وهو قادر على خلق ما يشاء في لحظة واحدة {وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ} [(٥٠) سورة القمر] **فهو يقول للشيء: كن فيكون، هذا معنى قوله: {الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ}** [(٥٤) سورة الأعراف]**.**

قال الحافظ ابن كثير: وأما قوله تعالى: {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} [(٥٤) سورة الأعراف] **فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جداً ليس هذا موضع بسطها، وإنما نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح، مالك والأوزاعي والثوري والليث بن سعد والشافعي وأحمد وإسحاق بن راهويه وغيرهم من أئمة المسلمين قديماً وحديثاً، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل، والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله لا يشبهه شيء من خلقه، و{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}** [(١١) سورة الشورى] **بل الأمر كما قال الأئمة، منهم: نعيم بن حماد الخزاعي -شيخ البخاري - قال: من شبه الله بخلقه كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة على الوجه الذي يليق بجلال الله ونفى عن الله تعالى النقائص فقد سلك سبيل الهدى.**

وقوله تعالى: {يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا} [(٥٤) سورة الأعراف] **أي: يذهب ظلام هذا بضياء هذا، وضياء هذا بظلام هذا، وكل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً أي: سريعاً لا يتأخر عنه.**

في قوله تعالى: **{يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا}** [(٥٤) سورة الأعراف] قراءة أخرى لعاصم وحمزة والكسائي بالتشديد **(يغشّي الليل النهار)**.

يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله - في معنى قوله تعالى: **{يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ}**:**"أي: يذهب ظلام هذا بضياء هذا، وضياء هذا بظلام هذا"** أي يغشي الليل النهار ويغشي النهار الليل مع أنه ما ذكرت الآية إلا واحداً **{يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ}** [(٥٤) سورة الأعراف] ولذلك قال بعض أهل العلم: إنه ما ذكره من باب الاكتفاء، كما ذكرنا -مراراً - أنه قد يذكر أحد المتقابلين أو النظيرين اكتفاء به عن ذكر الآخر؛ لأنه يدل عليه، ولذلك فإن بعضهم يجعل من هذا قوله تعالى: **{رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ}** [(٩) سورة المزمل] أي: والشمال والجنوب، وبعضهم يقول غير ذلك في هذا المثال، وكذلك هو الحال في قوله تعالى: **{فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى}** [(٩) سورة

الأعلى] يعني وإن لم تنفع على أحد الأقوال في تفسير الآية، وكذلك قوله تعالى: **{وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ}** [(٨١) سورة النحل] أي: والبرد.

بل إذا ذهب هذا جاء هذا، وعكسه، كقوله: {وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ * وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} [(٣٧ -٤٠) سورة يـــس].

فقوله: {وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ} أي: لا يفوته بوقت يتأخر عنه بل هو في أثره بلا واسطة بينهما، ولهذا قال: {يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ} [(٥٤) سورة الأعراف] منهم من نَصَبَ ومنهم من رَفَع، وكلاهما قريب المعنى.

قوله: "منهم من نصَب ومنهم من رفعَ" يعني في الشمس والقمر والنجوم، فالرفع قراءة ابن عامر وهي قراءة متواترة **(والشمسُ والقمرُ والنجومُ مسخراتٌ بأمره)** على أنها جملة اسمية من المبتدأ والخبر، يخبر الله عن تسخيرها.

وعلى قراءة النصب وهي قراءة البقية يكون ذلك عائداً على قوله: **{خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ}** [(٥٤) سورة الأعراف] يعني وخلق الشمس والقمر وخلق النجوم في حال كونها مسخرات.

منهم من نصب ومنهم من رفع، وكلاهما قريب المعنى، أي: الجميع تحت قهره وتسخيره ومشيئته، ولهذا قال منبهاً: {أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ} [(٥٤) سورة الأعراف] أي: له الملك والتصرف.

يقول تعالى: **{أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ}** [(٥٤) سورة الأعراف] أي: هو الذي يخلق وهو الذي يحكم ويشرع ويأمر وينهى -سبحانه وتعالى-.

وقد فرَّق تعالى هنا بين الخلق والأمر وهذا مما استدل به أهل السنة على أن الأمر غير الخلق، وهو مما ردوا به على من قال بخلق القرآن، والله المستعان.

{تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [(٥٤) سورة الأعراف] كقوله: {تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاء بُرُوجًا} الآية [(٦١) سورة الفرقان].

تبارك بمعنى كثرت بركته واتسعت، وبعضهم يقول: تبارك أي: تعاظم.

وفي الدعاء المأثور عن أبي الدرداء -رضي الله تعالى عنه- وروي مرفوعاً: "اللهم لك الملك كله، ولك الحمد كله، وإليك يرجع الأمر كله، أسألك من الخير كله، وأعوذ بك من الشر كله"[5].

---

[5] - أخرجه البيهقي في شعب الإيمان مرفوعاً عن أبي سعيد الخدري (٤٤٠٠) (ج ٤ / ص ٩٧) وقال الألباني: "موضوع" كما في ضعيف الترغيب والترهيب برقم (٩٦٤).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأعراف (٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم {ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ} [(٥٥ -٥٦) سورة الأعراف].

أرشد -تبارك وتعالى- عباده إلى دعائه الذي هو صلاحهم في دنياهم وأخراهم فقال: {ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً} قيل: معناه تذللاً واستكانة، {وَخُفْيَةً} كقوله: {وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ} الآية [(٢٠٥) سورة الأعراف].

وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري -رضي الله عنه- قال: رفع الناس أصواتهم بالدعاء فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أيها الناس اربَعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً إن الذي تدعون سميعاً قريباً)) الحديث[1].

وقال ابن جرير: {تَضَرُّعًا} تذللاً واستكانة لطاعته {وَخُفْيَةً} يقول: بخشوع قلوبكم وصحة اليقين بوحدانيته وربوبيته فيما بينكم وبينه لا جهراً مراءاة.

الدعاء ينقسم إلى دعاء مسألة وإلى دعاء عبادة، وبين النوعين ملازمة لا تخفى، وكثير من المواضع في القرآن محمولة على النوعين، على خلاف بين أهل العلم في تفاصيل تلك الأمثلة، فالله -عز وجل- يقول: **{وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ}** [(١٨٦) سورة البقرة] أي: أنه يجيب السائلين فيعطيهم سؤلهم، وهذا هو دعاء المسألة، ويثيب العابدين على عابدتهم وهذا هو دعاء العبادة.

ولا شك أن العابد سائل بفعله، فهو حينما يصلي فإنما يطلب بهذه الصلاة ثواب الله -تبارك وتعالى- فهو سائل بهذا الفعل، وهكذا أيضاً الذاكر، وقد جاء عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إن أفضل الدعاء الحمد لله)) وهو بإسناد حسن[2] فمن أهل العلم من حمله على هذا المعنى باعتبار أن المُثني على الله -تبارك وتعالى- الحامد له إنما يفعل ذلك طلباً لما عنده، وبعضهم يقول غير هذا.

وقوله تعالى: **{ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً}** [(٥٥) سورة الأعراف] يمكن أن يحمل على النوعين، وإن كان المتبادر أن المراد به دعاء المسألة، لكن دعاء العبادة ملازم لدعاء المسألة.

فقوله: **{ادْعُواْ رَبَّكُمْ}** يعني لا تدعوا غيره، وعلى معنى العبادة لا تعبدوا غير الله -عز وجل- وكونوا متذللين بعبادتكم له بحيث لا يكون الإنسان حينما يعبد ربه -تبارك وتعالى- كالمانِّ على الله -جل جلاله- فالله غني

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب المغازي - باب غزوة خيبر (٣٩٦٨) (ج ٤ / ص ١٥٤١) ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار - باب استحباب خفض الصوت بالذكر (٢٧٠٤) (ج ٤ / ص ٢٠٧٦).

[2] - أخرجه الحاكم (١٨٣٤) (ج ١ / ص ٦٧٦) والبيهقي في شعب الإيمان (٤٣٧١)(ج ٤ / ص ٩٠) وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم (١١٠٤).

عنه وعن عبادته، وهكذا أيضاً يخفي عمله الصالح فذلك أدعى للإخلاص، والمقصود أن هذا المعنى تحتمله الآية -أي دعاء العبادة - وإن كان المتبادر فيها هو دعاء المسألة، ومثل ابن القيم -رحمه الله - فإنه يحمل هذه الآية بخصوصها على النوعين.

والحاصل أنه في دعاء المسألة ينبغي على المسلم أن يدعو وهو في حال من التذلل ولا يدعو بشيء من العلو والترفع أو يدعو بأسلوب لا يليق ولا يتأدب فيه مع الله -جل جلاله - كالذي يرفع صوته رفعاً لا يليق، أو يتخير من العبارات ما لا يتناسب مع مقام المعبود -جل جلاله -، بل عليهم أن يدعوا ربهم ضارعين أي متذللين مخفين لهذا الدعاء، وذلك أدعى للإخلاص.

والعلماء -رحمهم الله - ذكروا فوائد كثيرة جداً لإخفاء الدعاء، والله -عز وجل - يعلم السر وأخفى ولا حاجة لرفع الصوت عند دعائه، فهذه عبادة وهي حاجة يرفعها العبد إلى مولاه الذي يعلم حاله ونجواه، فلا حاجة إلى إبداء ذلك للناس، فإن مقتضى الإخلاص أن يخفيه، ومن شاء فلينظر في بدائع الفوائد، فقد أطال الحافظ ابن القيم -رحمه الله - في فوائد إخفاء الدعاء.

ثم روي عن عطاء الخرساني عن ابن عباس في قوله: {إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} [(٥٥) سورة الأعراف] في الدعاء ولا في غيره.

إي أن قوله: {إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} [(٥٥) سورة الأعراف] يدخل فيه الاعتداء في الدعاء دخولاً أولياً؛ لأنه ذكر معه، فقوله: {إِنَّهُ} مشعر بالتعليل، أي لأنه لا يحب المعتدين، لكنه لم يخصص الدعاء، فيدخل فيه غير الدعاء أيضاً، فهو لا يحب المعتدين مطلقاً، الذين يجاوزون حدوده.

وقال أبو مجلز: {إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} [(٥٥) سورة الأعراف]: لا يسأل منازل الأنبياء.

وروى الإمام أحمد عن أبي نعامة أن عبد الله بن المغفل سمع ابنه يقول: اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها، فقال: يا بني سل الله الجنة وعذ به من النار، فإني سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم - يقول: ((يكون قوم يعتدون في الدعاء والطهور))[٣] وهكذا رواه ابن ماجه وأخرجه أبو داود، وهو إسناد حسن لا بأس به، والله أعلم.

الاعتداء في الدعاء يقع على صور وأنواع، فمن سأل ما يمتنع عقلاً فهو معتدٍ، كأن يسأل أن يجعله الله -عز وجل - في مكانين في وقت واحد، فهذا ممتنع عقلاً، وكذلك من سأل ما يمتنع شرعاً بحيث إن الشارع حكم بامتناعه كالذي يدعو للكافر الذي مات على الكفر بالمغفرة والرحمة، فهذا من الاعتداء في الدعاء، وكذلك من سأل ما يمتنع عادة، كالذي يسأل الولد من غير نكاح، فهذا ممتنع في مجاري العادات، وكذلك أيضاً من سأل شيئاً محرماً فيدعو أن ييسر الله له ذلك الحرام، فهذا لا يجوز وهو من الاعتداء، وهكذا أيضاً من رفع صوته رفعاً زائداً في الدعاء فهذا من الاعتداء لا سيما أن الله قال بعده: {تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً} [(٥٥) سورة الأعراف] لكن إذا كان ذلك في محضر غيره ممن يؤمِّنون على دعائه فيرفع رفعاً يتأدب فيه، وأما رفع الصوت الزائد فهذا خلاف الأدب مع الله -تبارك وتعالى -.

---

[3] - أخرجه أبو داود في كتاب الطهارة - باب الإسراف في الوضوء (٩٦) (ج ١ / ص ٣٦) وابن ماجه في كتاب الدعاء - باب كراهية الاعتداء في الدعاء (٣٨٦٤) (ج ٢ / ص ١٢٧١) وأحمد (١٤٨٣) (ج ١ / ص ١٧٢) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٣٩٦).

ومن الاعتداء رفع الصوت بالبكاء أثناء الدعاء بحيث يتحول ذلك إلى مناحة، فهذا من سوء الأدب مع الله - تبارك وتعالى -.

ومن الاعتداء سؤال التفاصيل، وإنما الذي ينبغي على الداعي أن يدعو بجوامع الكلم ويترك التفاصيل كهذا الذي سأل ربه قصراً أبيض عن يمين الجنة، فهذا من الاعتداء.

ومن الاعتداء تحويل الدعاء إلى موعظة كما يفعل كثير من الناس فبدلاً من أن يقول الداعي: رب إني أسأل كذا يتحول إلى ذكر القبور واللحود، وإذا سالت العيون، وذكر الجنادل والدود والصديد، وهذا في غاية القبح؛ فالدعاء ليس موعظة تُستجلب بها عواطف الناس وتستثار فيها نفوسهم ليبكوا منها، فهذا غير صحيح، فعلى الإنسان أن يحمد الله -عز وجل - ويثني عليه بما هو أهله ويصلي على النبي -صلى الله عليه وسلم - ويدعو بجوامع الكلم ولا يحوّل الدعاء إلى موعظة.

ومن الاعتداء ما يفعله بعض الناس حيث يأتون بالأسماء الحسنى المذكورة في بعض الأحاديث كما عند الترمذي والحاكم والتي لا تصح أسانيدها -أعني التسعة والتسعين - ثم يتكلف لكل اسم دعاء وتتحول القضية إلى فرجة للاستماع بعد أن امتلأ المسجد بالمصلين بل إن المساجد الأخرى تنتهي فيها الصلاة فيأتي المصلون ليسمعوا هذا الدعاء وتمتلئ الشوارع بالناس لأجل هذا كما يحصل في بعض البلاد، والله المستعان.

ومن ذلك التطويل الزائد، حتى إن مدة الصلاة تكون نصف ساعة ودعاء القنوت يستمر ساعة، وهذا غير صحيح.

وقد سئل الإمام أحمد -رحمه الله - عمَّا إذا زاد عما ورد في حديث الحسن: ((اللهم اهدنا فيمن هديت))[٤] فقال: اقطع صلاتك، فكيف لو رأى الدعاء الذي يستمر إلى ساعة إلا ربعاً أو ساعة؟

وبعض الأئمة يضعون وريقات صغيرة في كف اليد بحيث لا يراها الناس فيقلبها ويدعو بما كتب فيها لمدة ساعة كاملة، وهذا لا يليق!

وقد اشترطت مرة على أحدهم -أراد أن يلقي كلمة - أن لا يطيل في الدعاء، فأطال إطالة زائدة وكنت قد صليت خلفه فرفعت رأسي وجلست أنظر إليه وإذا به يقلب أوراقاً صغيرة بيده يقرأ منها هذا الدعاء الطويل مدة ساعة إلا ربعاً تقريباً!

وآخر صلى بجانبي وكان يبكي بكاء شديداً ورفع صوته بالبكاء إلى درجة قبيحة، حتى خشيت أن أخرج بمقت الله -عز وجل - ثم قطع صلاته وخرج من المسجد، أهذه صلاة وهذا دعاء؟!

هذا مما لا يليق، ولكنْ كثير من الناس تحكمهم عواطفهم لا الشرع، ولا يُعملون عقولهم ولو أعملوا عقولهم لما رضوا بمثل هذا.

على كل حال صور الاعتداء في الدعاء متنوعة يدخل فيها ما ذكرت وغير ما ذكرت، والله المستعان.

وقوله تعالى: {وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا} [(٥٦) سورة الأعراف] ينهى تعالى عن الإفساد في الأرض -وما أضره بعد الإصلاح -؛ فإنه إذا كانت الأمور ماشية على السداد ثم وقع الإفساد بعد ذلك كان

---

[4] - أخرجه الطبراني في الكبير (٢٧٠١) (ج ٣ / ص ٧٣) وأبو يعلى في مسنده (٦٧٥٩) (ج ١٢ / ص ١٢٧) والبيهقي في السنن الكبرى (٣٢٦٦) (ج ٢ / ص ٢١٠) وصححه الألباني في الإرواء برقم (٤٢٩).

أضر ما يكون على العباد، فنهى تعالى عن ذلك، وأمر بعبادته ودعائه والتضرع إليه والتذلل لديه فقال: {وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا} [(٥٦) سورة الأعراف] أي: خوفاً مما عنده من وبيل العقاب، وطمعاً فيما عنده من جزيل الثواب.

قوله تعالى: **{وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا}** [(٥٦) سورة الأعراف] يدخل فيه تغيير شرائع الإسلام، والخروج على أحكام الله -تبارك وتعالى -، والكفر به، ومحادة رب العالمين، وفعل المعاصي، كل ذلك من الإفساد في الأرض بعد إصلاحها، فالله -عز وجل - أنزل الكتب وأرسل الرسل بالهدى ودين الحق، وهذا هو عين الإصلاح، فلا يجوز لأحد أن يخرج عن ذلك وأن يكفر بالله -جل جلاله - أو يخرج عن شرعه فيكون بذلك مفسداً في الأرض بعد إصلاحها، أي بعد أن أصلحها الرسل -عليهم الصلاة والسلام -.

ومن دعا إلى الضلال، وفتن الناس عن الحق، ولبَّس عليهم أو أشاع الفاحشة في المجتمع فهذا من الإفساد في الأرض بعد إصلاحها.

ويدخل في الإفساد في الأرض تخريب العمران والسكك، وإفساد أموال الناس وقطع الأشجار وتخريب الأنهار، وتغوير المياه، وما أشبه ذلك مما يحصل به إفساد حياة الناس، وكذلك العبث والتخريب بالحروب التي تفسد ولا تصلح أو غير ذلك من صور الإفساد في الأرض وإفساد حياة الناس ومعاشهم، كل ذلك داخل في قوله: **{وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا}** [(٥٦) سورة الأعراف].

ثم قال: **{وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا}** [(٥٦) سورة الأعراف] ذكر –تبارك وتعالى - أدبين في أول الآية السابقة وأدبين في آخر هذه الآية، فأما الأدبان في أول الآية فقوله: **{ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً}** [(٥٥) سورة الأعراف] أي: ادعوه تعالى بتذلل وإخفاء، وأما الأدبان في آخر هذه الآية فهما الخوف والطمع حيث قال: **{وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا}** [(٥٦) سورة الأعراف] فالإنسان بجمعه بين الخوف والطمع يكون خائفاً راجياً.

وقوله: **{وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا}** [(٥٦) سورة الأعراف] يعني لا يكُن مدلاً لربه –جل وعلا - في دعائه، بمعنى أنه لا يدعو بترفع وكأنه متفضل على الله -عز وجل - وإنما يدعو في حال من الخوف وفي حال من الطمع.

والفرق بين الطمع والتمني أن التمني هو أن يؤمِّل حصول شيء أو يطلب حصول شيء محال أو بعيد المنال، أما الطمع فهو رجاء الشيء القريب المأخذ أي: الذي يرجى حصوله عن قريب.

قوله: **{وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا}** [(٥٦) سورة الأعراف] أي لا يدعو الإنسان ربه وهو يائس من إجابة الله -عز وجل - لدعائه، فهذا لا يليق؛ لأنه سوء ظن بالرب -جل جلاله - والله -عز وجل - يقول: ((أنا عند ظن عبدي بي))[5] فعلى العبد أن يحسن الظنَّ بالله -عز وجل - أنه يجيب دعوة الداعين، فالله –عز وجل يقول: **{ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ}** [(٦٠) سورة غافر].

ثم قال: {إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ} [(٥٦) سورة الأعراف] أي: إن رحمته مرسلة للمحسنين الذين يتبعون أوامره ويتركون زواجره، كما قال تعالى: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ} الآية

---

[5] - أخرجه البخاري في كتاب التوحيد - باب قول الله تعالى: **{وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللّهِ الْمَصِيرُ}** [(٢٨) سورة آل عمران] (٦٩٧٠) (ج ٦ / ص ٢٦٩٤) ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار - باب الحث على ذكر الله تعالى (٢٦٧٥) (ج ٤ / ص ٢٠٦١).

[(١٥٦) سورة الأعراف] وقال: قريب، ولم يقل: قريبة؛ لأنه ضمَّن الرحمة معنى الثواب، أو لأنها مضافة إلى الله، فلهذا قال: {قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ} [(٥٦) سورة الأعراف].

وقال مطر الوراق: "تَنَجَّزوا موعود الله بطاعته؛ فإنه قضى أن رحمته قريب من المحسنين" [رواه ابن أبي حاتم].

يقول تعالى: {إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ} [(٥٦) سورة الأعراف] لفظ "قريب" مذكر و"الرحمة" مؤنث، فلماذا لم يقل: إن رحمت الله قريبة من المحسنين؟ هذا وجه السؤال، وقد ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا جوابين عن هذا الإشكال، الأول: أنه لم يقل: إن رحمت الله قريبة؛ لأنه ضمن الرحمة معنى الثواب، والثواب مذكر، والمراد بالتضمين معلوم، فالعرب قد تضمن الفعل أو ما يقوم مقامه معنى فعل آخر وذلك أبلغ في الكلام، فقوله: {إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ} [(٥٦) سورة الأعراف] تكون الرحمة مضمنة معنى الثواب أو مفسرة بالثواب، يعني: إن ثواب الله قريب، والثواب مذكر، فيكون بذلك قد روعي المعنى.

والمعنى الثاني الذي ذكره الحافظ هو قوله: **"أو لأنها مضافة إلى الله، فلهذا قال: {قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ} [(٥٦) سورة الأعراف]"**

ومن أهل العلم من يقول: فيه مقدر محذوف، أي: إن رحمة الله شيء قريب من المحسنين، والقاعدة أن الكلام إذا دار بين الحذف والاستقلال فالأصل الاستقلال، يعني لا حاجة لدعوى الإضمار والتقدير إذا كان يمكن للكلام أن يكون مستقلاً على ظاهره من غير دعوى الحذف، وهذا ممكن هنا.

ومن الأجوبة الحسنة في هذا أن الرحمة مؤنث غير حقيقي والمؤنث غير الحقيقي يمكن أن يكون العائد إليه أو الصفة التي يوصف بها أو الضمير أو نحو ذلك يمكن أن يكون مذكراً أو مؤنثاً.

ومن الأجوبة أيضاً -ولعل هذا أحسن من الذي قبله- أن يقال: إن لفظة قريب إذا أريد بها قرابة النسب فإنها تكون مؤنثة مع المؤنث ومذكرة مع المذكر، تقول: زيد قريبي، زيد قريب لعمرو، ومع المؤنث تقول: فلانة قريبتي، وفلانة قريبة لزيد، وأما إذا أريد قرب المسافة أو قرب الزمان أو نحو ذلك فإنه يقال: قريب ولا يقال: قريبة، والله -عز وجل- وصف الساعة بأنها قريب وذلك قرب الوقت والزمان، وهنا: رحمة الله قريب من المحسنين بهذا الاعتبار، فهذا جواب جيد، وقد قيل غير ذلك، حتى إن بعضهم ذكر في هذا عشرة أجوبة.

{وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْموْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ} [(٥٧ -٥٨) سورة الأعراف].

لما ذكر تعالى أنه خالق السماوات والأرض وأنه المتصرف الحاكم المدبر المسخر، وأرشد إلى دعائه؛ لأنه على ما يشاء قادر، نبَّه تعالى على أنه الرزاق وأنه يعيد الموتى يوم القيامة فقال: (وهو الذي يرسل الرياح نشراً) أي: ناشرة بين يدي السحاب الحامل للمطر، ومنهم من قرأ {بُشْرًا} كقوله: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ} [(٤٦) سورة الروم].

هذا الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أعني قوله: **"لما ذكر تعالى أنه خلق السماوات والأرض..."** إلى آخره، هذا يسمونه بالمناسبة، وهو وجه الارتباط بين الآية وبين ما قبلها.

وقوله -تبارك وتعالى -: {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا} -بضم الباء وإسكان الشين - هذه قراءة عاصم، والمعنى أنها تبشر بالمطر كما قال الله -عز وجل - في الآية الأخرى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ} [(٤٦) سورة الروم] فهي تهب بين يدي المطر.

يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله -: "(وهو الذي يرسل الرياح نشراً) أي: **ناشرة بين يدي السحاب الحامل للمطر، ومنهم من قرأ** {بُشْرًا}" وقلنا: {بُشْرًا} هذه قراءة عاصم، والمعنى أنها تبشر بالمطر، و(نُشْراً) بضم النون وإسكان الشين هذه قراءة ابن عامر، وقرأ أهل الحرمين وأبو عمرو بضم النون والشين (نُشُراً) فبعضهم يقول: هذا جمع الجمع، وبعضهم يقول: إن (نُشُراً) يعني الرياح التي تهب من كل ناحية من النواحي المختلفة، وقراءة حمزة والكسائي بفتح النون والشين على المصدر يعني (نَشْراً) وفسر هذه القراءة كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله - بأنها الرياح الطيبة.

وعلى كل حال فقراءة {بُشْرًا} يعني أنها تبشر بالمطر، فإذا رآها الناس أمّلوا بنزول المطر، وهي رياح معينة فليست كل رياح يأتي معها المطر، وهذا الشيء الذي يستبشرون به لا يتنافى مع ما يداخله ويخالطه من الخوف من أن يكون ذلك عذاباً، فهذا إنما يكون لأهل المعرفة بالله -عز وجل -، وأهل الخشية؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم - كان إذا رأى السحاب دخل وخرج وظهرت عليه أمارات الخوف، ويخبر -صلى الله عليه وسلم -: أن قوماً قد رأوا هذا السحاب فكان عذاباً، مع أنهم لما رأوه استبشروا به وقالوا: {هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ} [(٢٤ -٢٥) سورة الأحقاف].

فالسحاب قد يكون نعمة وقد يكون عذاباً، ولهذا كان النبي -صلى الله عليه وسلم - يخاف غاية الخوف حتى ينزل المطر، فهذا لأهل المعرفة بالله -تبارك وتعالى -، وأما على قراءة (نُشْراً) فالمعنى أنها ناشرة للسحاب.

وقوله: {بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ} [(٥٧) سورة الأعراف] أي: بين المطر، كما قال: {وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ} [(٢٨) سورة الشورى] فقال: {فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [(٥٠) سورة الروم].

وقوله: {حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً} [(٥٧) سورة الأعراف] أي: حملت الرياح {سَحَابًا ثِقَالاً} أي: من كثرة ما فيها من الماء تكون ثقيلة كبيرة من الأرض مدلهمة.

يقول الحافظ: "**{بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ} [(٥٧) سورة الأعراف] أي: بين يدي المطر**" يعني تهب هذه الرياح ثم بعد ذلك يكون نزول المطر، وهذا شيء معروف يدركه الناس، فالرياح المثيرة للمطر هي التي تسوق السحاب وتنشره فينزل المطر بعدها، وفي بعض النواحي لا يكاد يخطئ توقع الناس لنزول المطر حينما تهب الرياح من ناحية معينة أو حينما يأتي السحاب من ناحية معينة.

قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً} [(٥٧) سورة الأعراف] {أَقَلَّتْ} يعني حملت ورفعت، فهذه الرياح هي التي تحمل السحاب وتسوقه حيث أراد الله -تبارك وتعالى -.

وقوله: {سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ} [(٥٧) سورة الأعراف] أي: إلى أرض ميتة مجدبة لا نبات فيها، كقوله: {وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا} الآية [(٣٣) سورة يـــس] ولهذا قال: {فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ

{الْمَوْتَى} [(٥٧) سورة الأعراف] **أي: كما أحيينا هذه الأرض بعد موتها كذلك نحيي الأجساد بعد صيرورتها رميماً يوم القيامة، ينزل الله -سبحانه وتعالى- ماء من السماء فتمطر الأرض أربعين يوماً فتنبت منه الأجساد في قبورها كما ينبت الحب في الأرض، وهذا المعنى كثير في القرآن يضرب الله مثلاً ليوم القيامة بإحياء الأرض بعد موتها، ولهذا قال: {لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}** [(٥٧) سورة الأعراف].

يعني ذكْر إحياء الأرض بعد موتها في القرآن هو أحد أنواع الأدلة الدالة على البعث، حيث يدل على قدرة الله -عز وجل-، وقد مر معنا خمسة أنواع من هذه في سورة البقرة، ومعلوم أن كل نوع من هذه الأنواع تحته أمثلة كثيرة في القرآن، فإحياء الأرض بعد موتها يتكرر في القرآن كثيراً حيث يستدل ربنا -تبارك وتعالى- به على قدرته على بعث الأجساد بعد موتها.

وقوله: {وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ} [(٥٨) سورة الأعراف] **أي: والأرض الطيبة يخرج نباتها سريعاً حسناً، كقوله: {وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا}** [(٣٧) سورة آل عمران].

{وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا} [(٥٨) سورة الأعراف] **قال مجاهد وغيره: كالسباخ ونحوها.**

قوله تعالى: **وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ}** [(٥٨) سورة الأعراف] **قال فيه** بعض أهل العلم: إن هذا مثل ضربه الله تعالى لسريع الفهم والبليد، لكن هذا القول فيه بعد.

وبعضهم قال: هذا مثل للقلوب من جهة تأثير الموعظة، فمنهم من إذا سمع الموعظة أثر فيه ذلك أبلغ التأثير، ومنهم من لا يرفع لذلك رأساً ولا يتأثر.

وبعضهم قال: هذا مثل لقلب المؤمن وقلب المنافق.

وبعضهم يقول: هذا مثل للطيب والخبيث، ولعل الحديث الذي ذكره الحافظ ابن كثير هنا –وسيأتي بعد قليل- يدل على ذلك، أعني حديث أبي موسى -رضي الله تعالى عنه- حيث مثل حال الناس في قبول هدى الله -تبارك وتعالى- والانتفاع به فجعلهم على ثلاثة أقسام، فقال تعالى: **{وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا}** [(٥٨) سورة الأعراف] فمن أراد الله هدايته وصلاح حاله إذا سمع هدى الله -تبارك وتعالى- ومواعظ القرآن أثرت فيه غاية التأثير فأنبت ذلك في قلبه الخوف والرجاء والمحبة، فأقبل على الله -تبارك وتعالى- وصار عابداً له، وأما الآخر فهو كما قال الله -تبارك وتعالى-: إنهم إذا خرجوا من عند النبي -صلى الله عليه وسلم- قالوا: **{مَاذَا قَالَ آنِفًا}** [(١٦) سورة محمد] **{وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ}** [(١٢٥) سورة التوبة] فلا ينتفعون بهذه الآيات، ولا بوحي الله -جل جلاله-.

وروى البخاري عن أبي موسى -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((مثل ما بعثني الله به من العلم والهدى كمثل الغيث الكثير، أصاب أرضاً فكانت منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به، فعَلِم وعلّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به))[6].

---

[6] - أخرجه البخاري في كتاب العلم - باب فضل من علم وعلم (٧٩) (ج ١ / ص ٤٢) ومسلم في كتاب الفضائل - باب بيان مثل ما بُعث به النبي -صلى الله عليه وسلم- من الهدى والعلم (٢٢٨٢) (ج ٤ / ص ١٧٨٧).

{لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} [(٥٩ -٦٢) سورة الأعراف].

لما ذكر تعالى قصة آدم في أول السورة وما يتعلق بذلك وما يتصل به وفرغ منه، شرع تعالى في ذكر قصص الأنبياء -عليهم السلام - الأول فالأول فابتدأ بذكر نوح -عليه السلام - فإنه أول رسول بعثه الله إلى الأرض بعد آدم -عليه السلام - وهو نوح بن لامك بن متوشلح بن خنوخ، وهو إدريس.

طبعاً هذه الأسماء في الكتب تختلف، أي أنها يدخلها شيء من التحريف، والله أعلم، فإذا نظرت في البداية والنهاية لابن كثير، وتاريخ الأمم والملوك لابن جرير، والسيرة لابن هشام، وغير ذلك من المصادر التي تُذكر فيها هذه الأسماء تجد فروقات في ضبط هذه الأسماء، فهنا يقول: **"نوح بن لامك بن متوشلح بن خنوخ وهو إدريس"** وبالطبع فإن هذه أسماء أعجمية.

وقوله: **"ابن خنوخ وهو إدريس"** هذا بناء على أن إدريس -صلى الله عليه وسلم - كان قبل نوح وأنه من أجداده، وهذا ذكره بعض المؤرخين، وذكره ابن إسحاق أيضاً، لكنه لا يثبت، بل قال ابن العربي المالكي: إن هذا وهم، فالأقرب أن إدريس -صلى الله عليه وسلم - كان بعد نوح، ومعلوم أن نوح -عليه الصلاة والسلام - هو أول رسول أرسل إلى أهل الأرض فلم يكن قبله رسول، وآدم -صلى الله عليه وسلم - كان نبياً.

وعلى قول من قال: إن إدريس -عليه الصلاة والسلام - من أجداد نوح يقولون: على هذا يكون من الأنبياء وليس من الرسل، وعلى كل حال لا يثبت أنه كان قبله.

وكثير ممن كتبوا في تاريخ الأهرام وتكلموا عليها ممن ينقلون من الأخبار الإسرائيلية والأشياء التي لا يمكن أن يوثق بها، يقولون: إن الذي بناها هو إدريس -عليه الصلاة والسلام - وإن كانوا لا يذكرونه بهذا الاسم لكنهم يقصدون إدريس -عليه الصلاة والسلام -، ويقولون: إنها كانت قد بنيت قبل الطوفان ولو كانت بعد الطوفان لعرفنا خبرها، يعني لو كان الذين بنوها هم الفراعنة مثلاً لعرفوا خبرها فحيث قد انقطع خبرها، هذا يدل على أنها بنيت قبل الطوفان.

هكذا يقولون، ويمكن الرجوع في هذا إلى ما كتبه المقريزي في كتاب الخطط، وكذلك السيوطي في حسن المحاضرة حيث أطال في الكلام على هذا.

وعلى كل حال لعل الأقرب -والله أعلم - أن إدريس -عليه الصلاة والسلام - كان بعد نوح ولم يكن قبله، وكان بين نوح وآدم -عليه الصلاة والسلام - عشرة قرون كلها على التوحيد، ولا يعني هذا بالضرورة أن المدة التي كانت بين آدم وبين نوح عشرة قرون، وإنما المقصود أن الذين كانوا على التوحيد عشرة قرون، ثم وقع الشرك في قوم نوح فبعث الله -عز وجل - إليهم نوحاً.

وهو نوح بن لامك بن متوشَلَح بن خنوخ - وهو إدريس النبي -عليه السلام - فيما يزعمون، وهو أول من خط بالقلم - ابن برد بن مهليل بن قنين بن يانش بن شيث بن آدم -عليه السلام -، هكذا نسبه محمد بن إسحاق وغير واحد من أئمة النسب.

قال عبد الله بن عباس وغير واحد من علماء التفسير: وكان أول ما عبدت الأصنام أن قوماً صالحين ماتوا فبنى قومهم عليهم مساجد وصوروا صورة أولئك فيها؛ ليتذكروا حالهم وعبادتهم، فيتشبهوا بهم، فلما طال الزمان جعلوا أجساداً على تلك الصور، فلما تمادى الزمان عبدوا تلك الأصنام، وسموها بأسماء أولئك الصالحين وداً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسراً، فلما تفاقم الأمر بعث الله -سبحانه وتعالى وله الحمد والمنة - رسوله نوحاً فأمرهم بعبادة الله وحدة لا شريك له، فقال: {يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [(٥٩) سورة الأعراف] **أي: من عذاب يوم القيامة، إذا لقيتم الله وأنتم مشركون به {قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ}** [(٦٠) سورة الأعراف] **أي: الجمهور والسادة والقادة والكبراء.**

الملأ يقال لجماعة الرجال خاصة ولا يقال للنساء، وقيل لهم: ملأ؛ لأنهم يتمالئون على الأمر، فهم أهل الحلّ والعقد، حيث إنهم الكبراء والأشراف والسادة، هكذا قيل، وقيل: إنهم قيل لهم ذلك؛ لأنهم يملئون صدور المجالس -وهذا يرجع أيضاً إلى المعنى السابق -أي أنهم من أشراف الناس، فالمقصود أن قوله: **{قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ}** يعني قال الكبراء من قومه.

{قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ} [(٦٠) سورة الأعراف] **أي: الجمهور والسادة والقادة والكبراء منهم: {إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ}** [(٦٠) سورة الأعراف] **أي: في دعوتك إيانا إلى ترك عبادة هذه الأصنام التي وجدنا عليها آباءنا.**

وهكذا حال الفجار إنما يرون الأبرار في ضلال، كقوله: {وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاء لَضَالُّونَ} [(٣٢) سورة المطففين] **{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ}** [(١١) سورة الأحقاف] **إلى غير ذلك من الآيات.**

{قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ} [(٦١) سورة الأعراف] **أي: ما أنا ضال ولكن أنا رسول من رب العالمين، ربِّ كل شيء ومليكه {أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}** [(٦٢) سورة الأعراف] **وهذا شأن الرسول أن يكون مبلغاً فصيحاً ناصحاً، عالماً بالله لا يدركهم أحد من خلق الله في هذه الصفات، كما جاء في صحيح مسلم أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم - قال لأصحابه يوم عرفة وهم أوفر ما كانوا وأكثر جمعاً: ((أيها الناس إنكم مسئولون عني فما أنتم قائلون؟)) قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فجعل يرفع إصبعه إلى السماء وينكتها عليهم ويقول: ((اللهم اشهد، اللهم اشهد))[7].**

قوله: **{أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي}** [(٦٢) سورة الأعراف] يعني رسالة ربي، فلما تضمنت شرائع وأحكاماً أطلق عليها رسالات بالجمع، أي أن الله خاطبهم بأمور كثيرة.

وقوله: **{وَأَنصَحُ لَكُمْ}** يعني أنه يمحّض لهم النصح بحيث لا يكون فيه غش ولا كتمان ولا دَخَل، وإنما يكون نصحاً محضاً.

{أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً عَمِينَ} [(٦٣ -٦٤) سورة الأعراف].

---

[7] - أخرجه مسلم في كتاب الحج - باب حجة النبي -صلى الله عليه وسلم - (١٢١٨) (ج ٢ / ص ٨٨٦).

يقول تعالى إخباراً عن نوح أنه قال لقومه: {أَوَعَجِبْتُمْ} الآية [(٦٣) سورة الأعراف] أي: لا تعجبوا من هذا؛ فإن هذا ليس بعجب أن يوحي الله إلى رجل منكم رحمة بكم ولطفاً وإحساناً إليكم {لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ} [(٦٣) سورة الأعراف] نقمة الله ولا تشركوا به، {وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [(٦٣) سورة الأعراف].

قال الله تعالى: {فَكَذَّبُوهُ} [(٦٤) سورة الأعراف] أي: تمادوا على تكذيبه ومخالفته، وما آمن معه منهم إلا قليل، كما نص عليه في موضع آخر.

{فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ} [(٦٤) سورة الأعراف] أي: السفينة، كما قال: {فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ} [(١٥) سورة العنكبوت].

{وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا} [(٦٤) سورة الأعراف] كما قال: {مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا} [(٢٥) سورة نوح].

وقوله: {إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً عَمِينَ} [(٦٤) سورة الأعراف] أي: عن الحق لا يبصرونه ولا يهتدون له، فبيّن تعالى في هذه القصة أنه انتقم لأوليائه من أعدائه، وأنجى رسوله والمؤمنين، وأهلك أعداءهم من الكافرين، كقوله: {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا} الآية [(٥١) سورة غافر] وهذه سنة الله في عباده في الدنيا والآخرة أنّ العاقبة فيها للمتقين والظفر والغلبة لهم، كما أهلك قوم نوح بالغرق ونجَّى نوحاً وأصحابه المؤمنين.

قال ابن وهب: بلغني عن ابن عباس أنه نجا مع نوح في السفينة ثمانون رجلاً، أحدهم جرهم وكان لسانه عربياً' رواه ابن أبي حاتم، وروي متصلاً من وجه آخر عن ابن عباس -رضي الله عنهما -.

هذا مما يؤخذ عن بني إسرائيل ولا يمكن التحقق من صحته، فالله أعلم، لكن الله -عز وجل - أخبر أنه ما آمن معه إلا قليل، حتى إن بعض المفسرين قال: ما آمن إلا بنوه -عدا الابن الذي غرق - وأزواج بناته، هؤلاء الذين ركبوا معه في السفينة، والله أعلم.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأعراف (٩)

الشيخ/خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى - في تفسير قوله تعالى: {وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ * قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ من قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وِإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ * أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [(٦٥ -٦٩) سورة الأعراف].

يقول تعالى: وكما أرسلنا إلى قوم نوح نوحاً -عليه السلام - كذلك أرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً -عليه السلام -.

قال محمد بن إسحاق: هم ولد عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح -عليه السلام -.

قلت: هؤلاء هم عاد الأولى الذين ذكرهم الله، وهم أولاد عاد بن إرم الذين كانوا يأوون إلى العمد في البر كما قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ} [(٦ -٨) سورة الفجر]؛ وذلك لشدة بأسهم وقوتهم كما قال تعالى: {فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ} [(١٥) سورة فصلت].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فقوله: **"قال محمد بن إسحاق: هم ولد عاد بن إرم."** إلى آخر ما ذكر، هذه الأنساب التي يذكرونها، وأسماء هذه الأمم، وأسماء الأنبياء الذين بعثوا إليهم من جهة النسب، يوجد فيها اختلاف في الروايات الواردة في ذلك من جهة الزيادة والنقص، والتقديم والتأخير، وضبط هذه الأسماء وما يتعلق بحروفها أيضاً، فالله تعالى أعلم.

وقوله: **"الذين كانوا يأوون إلى العمد"** يعني أنهم -على ما ذكره بعض المؤرخين - كانوا يضعون الخيام ذات العماد العالية الرفيعة؛ لطول قاماتهم، وقد ذكروا من ضخامة أجسامهم وطول قاماتهم شيئاً كثيراً حتى أوصله بعضهم إلى ستين ذراعاً في السماء، وحتى زعم بعضهم أن رأس الواحد منهم بقدر القبة، وزعم بعضهم أن عين الواحد منهم تلد فيها الذئبة أو الكلبة، وذكروا أشياء هي من قبيل المبالغات، حتى ذكروا أن حبة البر في ذلك الزمان بقدر كلية البقرة، وأن الرمانة يجلس فيها العشرة من الرجال، وأشياء قد لا تصدق، فالله تعالى ذكر أنه أعطاهم بسطة وقوة ولكن مثل هذه الأشياء التي يذكرها بعض المؤرخين قد يكون فيها كثير من المبالغات، فالله تعالى أعلم.

وقد كانت مساكنهم باليمن بالأحقاف، وهي جبال الرمل.

وفي بعض الروايات "وهي حبال الرمل" وأظن أنها أدق، والمقصود بحبال الرمل الكثبان المتواصلة، وهذا معروف في جنوب الجزيرة العربية، وهو ما يعرف بالربع الخالي الآن، فهم في جنوب الربع الخالي، وذكر بعضهم أن إرم هذه تطل على البحر عند بلدة يقال لها: الشِّحر وهي معروفة إلى اليوم، فبعضهم قال: إنها كانت تطل على البحر، وعلى كل حال هم في تلك الناحية، في حبال الرمل قريباً من حضرموت.

قوله تعالى: {إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ} [(٢١) سورة الأحقاف] يعني حبال الرمل، وهذا يدل على أن هذا المكان منذ ذلك الحين وذلك الزمان –قريباً من زمن نوح -عليه الصلاة والسلام - وقبل إبراهيم - وهو بهذه الصفة تقريباً، وما يزعمه بعضهم أن تلك الناحية ليست كما هي الآن وإنما كانت شيئاً آخر هذا فيه نظر؛ فالآية تقول: {أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ} [(٢١) سورة الأحقاف] يعني حبال الرمل، لكن لا يلزم أن تكون حبال الرمل لا يتخللها أنهار أو لا يكون فيها شيء من الجنات وما أشبه ذلك.

وروى محمد بن إسحاق عن أبي الطفيل عامر بن واثلة -رضي الله تعالى عنه - سمعت علياً -رضي الله تعالى عنه - يقول لرجل من حضرموت: "هل رأيت كثيباً أحمر يخالطه مَدَرة حمراء ذا أراكٍ وسِدْر كثير بناحية كذا وكذا من أرض حضرموت، هل رأيته؟"

المدر هو قطع الطين اليابس.

قال: نعم يا أمير المؤمنين، والله إنك لتنعته نعت رجل قد رآه؟ قال: "لا، ولكني قد حدثت عنه" قال الحضرمي: وما شأنه يا أمير المؤمنين؟ قال: "فيه قبر هود -عليه السلام -" [رواه ابن جرير].

وهذا فيه فائدة أن مساكنهم كانت باليمن، فإن هوداً -عليه السلام - دفن هناك، وقد كان من أشرف قومه نسباً؛ لأن الرسل إنما يبعثهم الله من أفضل القبائل وأشرفهم، ولكن كان قومه كما شُدِّد خلقهم شدد على قلوبهم، وكانوا من أشدِّ الأمم تكذيباً للحق، ولهذا دعاهم هود -عليه السلام - إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وإلى طاعته وتقواه.

قبر هود -عليه الصلاة والسلام - في تلك الناحية، وكان يزار محلٌ يزعم الناس أنه قبر هود -عليه الصلاة والسلام - ولست أدري هل لا يزال عندهم شيء من هذا أو لا؟ فأهل البدع القبوريون يزورون محلاً هناك ويزعمون أنه قبر هود، لكن طبعاً لا يثبت مكان بعينه أنه قبر هود، ولذلك يوجد عند أهل الشام مكان يزعمون أيضاً أنه قبر هود -عليه الصلاة والسلام -، ولست أدري أيضاً هل هذا الأمر موجود إلى الآن أو لا؟ لكن على كل حال ذكر هذا أهل العلم في كتبهم، وهذا لا يستغرب؛ فقبر الحسين -رضي الله عنه - في كربلاء، وفي مصر، وفي الشام، كما يزعمون وكذلك السيدة زينب موجودة في مصر وفي الشام، وهكذا تجد القبر الواحد موجوداً في أكثر من مكان!!

وعلى كل حال هؤلاء أحياناً يخترعون مكاناً بأن يقول بعضهم: إنه رأى الولي الفلاني في المنام وهو في المكان الفلاني ويقول: اتخذ هنا مكاناً أو مقاماً أو مزاراً، فينسب إلى هذا الشخص أنه في ذلك المكان ويأتون ويتعبدون عنده، وهكذا تبتكر أماكن جديدة لنفس الشخص بهذه الطريقة، وهكذا تلعب بهم الشياطين.

{قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ} [(٦٦) سورة الأعراف] والملأ هم الجمهور والسادة والقادة منهم {إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وِإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ} [(٦٦) سورة الأعراف] أي: في ضلالة حيث تدعونا إلى ترك عبادة

الأصنام والإقبال على عبادة الله وحده، كما تعجَّب الملأ من قريش من الدعوة إلى إلهٍ واحد فقالوا: {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا} الآية [(٥) سورة ص].

{قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ} [(٦٧) سورة الأعراف] أي: لست كما تزعمون بل جئتكم بالحق من الله الذي خلق كلَّ شيء فهو رب كل شيء ومليكه.

{أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ} [(٦٨) سورة الأعراف] وهذه الصفات التي يتصف بها الرسل البلاغ والنصح والأمانة.

{أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ} [(٦٣) سورة الأعراف] أي: لا تعجبوا أن بعث الله إليكم رسولاً من أنفسكم لينذركم أيام الله ولقاءه بل احمدوا الله على ذاكم.

هكذا ذكر الله -عز وجل- عن الأمم أنهم كانوا يستنكفون ويتعجبون أن يبعث الله -عز وجل- رجلاً رسولاً، كما قال الله تعالى عنهم: **{أَبَعَثَ اللّهُ بَشَرًا رَّسُولاً}** [(٩٤) سورة الإسراء] فهذا شيء عندهم في غاية الاستغراب والاستبعاد، والله -عز وجل- أجاب عن هذا في مواضع من القرآن، وقال: **{وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ}** [(٢٠) سورة الفرقان] وهكذا أخبر أن المرسلين كانوا رجالاً، وقضية استغراب الأمم والرد عليهم من الله -تبارك وتعالى- ومن أنبيائهم -عليهم الصلاة والسلام- هذه كثيرة في القرآن.

{وَاذكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ} [(٦٩) سورة الأعراف] أي: واذكروا نعمة الله عليكم في جعلكم من ذرية نوح -عليه السلام- الذي أهلك الله أهل الأرض بدعوته لما خالفوه وكذبوه.

{وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً} [(٦٩) سورة الأعراف] أي: زاد طولكم على الناس بسطة، أي: جعلكم أطول من أبناء جنسكم، كقوله في قصة طالوت: {وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ} [(٢٤٧) سورة البقرة].

{فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ} أي: نعمه ومننه عليكم {لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [(٦٩) سورة الأعراف] والآلاء: جمع إلٍّ، وقيل: إلىً.

إلىً وآلاء، مثل عنب وأعناب، ومعًا وأمعاء، وإنًا وآناء.

{قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤكُم مَّا نَزَّلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ * فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ} [(٧٠-٧٢) سورة الأعراف].

يخبر تعالى عن تمردهم وطغيانهم وعنادهم وإنكارهم على هود -عليه السلام-: {قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللّهَ وَحْدَهُ} الآية [(٧٠) سورة الأعراف]، كقول الكفار من قريش: {وَإِذْ قَالُواْ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاء أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [(٣٢) سورة الأنفال].

وقد ذكر محمد بن إسحاق وغيره أنهم كانوا يعبدون أصناماً، فصنم يقال له: صدى، وآخر يقال له: صمود، وآخر يقال له: الهباء، ولهذا قال هود -عليه السلام-: {قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ} أي: قد

وجب عليكم بمقالتكم هذه من ربكم رجس، قيل هو مقلوب من رجز، وعن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما -: معناه سخط وغضب.

{أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤكُم} [(٧١) سورة الأعراف] **أي: أتحاجُّونِّي في هذه الأصنام التي سميتموها أنتم وآباؤكم آلهة، وهي لا تضر ولا تنفع، ولا جعل الله لكم على عبادتها حجة ولا دليلاً، ولهذا قال: {مَّا نَزَّلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ}** [(٧١) سورة الأعراف] **وهذا تهديد ووعيد من الرسول لقومه، ولهذا عقبه بقوله: {فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ}** [(٧٢) سورة الأعراف]**.**

قوم هود قالوا لهود -عليه الصلاة والسلام -: **{مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ}** [(٥٣) سورة هود] وقالوا له: **{إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ}** [(٥٤) سورة هود] هكذا كانوا يجادلونه في هذه الآلهة ويخوفونه من أن توصل إليه مكروهاً كما خوّف قوم إبراهيم -عليه الصلاة والسلام - إبراهيم -صلى الله عليه وسلم - من آلهتهم، فهو يقول لهم: **{أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤكُم}** [(٧١) سورة الأعراف] يعني لا حقيقة لها وإنما اخترعتم لها هذه الأسماء وجعلتموها آلهة وهي جمادات لا تنفع ولا تضر ولا حقيقة لها وليس لها نصيب من الإلهية!

وقد ذكر الله سبحانه صفة إهلاكهم في أماكن أخر من القرآن بأنه أرسل عليهم الريح العقيم {مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ} [(٤٢) سورة الذاريات] **كما قال في الآية الأخرى: {وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ}** [(٦ -٨) سورة الحاقة] **لما تمردوا وعتوا أهلكهم الله بريح عاتية فكانت تحمل الرجل منهم فترفعه في الهواء ثم تنكسه على أمِّ رأسه فتثلغ رأسه حتى تُبينه من جثته، ولهذا قال: {كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ}** [(٧) سورة الحاقة]**.**

وقال محمد بن إسحاق: كانوا يسكنون باليمن بين عُمان وحضرموت، وكانوا مع ذلك قد فشوا في الأرض، وقهروا أهلها بفضل قوتهم التي آتاهم الله، وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله فبعث الله إليهم هوداً -عليه السلام - وهو من أوسطهم نسباً وأفضلهم موضعاً، فأمرهم أن يوحدوا الله ولا يجعلوا معه إلهاً غيره وأن يكفوا عن ظلم الناس، فأبوا عليه وكذبوه، وقالوا: {مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً} [(١٥) سورة فصلت] **واتبعه منهم ناس، وهم يسيرٌ يكتمون إيمانهم، فلما عتت عاد على الله وكذبوا نبيه وأكثروا في الأرض الفساد، وتجبروا وبنوا بكل ريع آية عبثاً بغير نفع، كلمهم هود فقال: {أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ}** [(١٢٨ -١٣١) سورة الشعراء]**.**

يعني من شدة بطرهم وأشرهم كانوا يبنون على الأماكن المرتفعة قصوراً لا حاجة لهم بها، أي فوق حاجتهم. وقوله تعالى: **{وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ}** [(١٢٩) سورة الشعراء] ذكرنا مراراً أنها الآية الوحيدة في القرآن التي تفسر فيها "لعل" بـــ"كأن" والباقي للتعليل، وفسرت المصانع بأنها القصور، وهي عملُ مَن كأنه سيخلد في هذه الدنيا.

ومن أوصاف قوم عاد ما ذكره الله عنهم في قوله: **{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ}** [(٦ -٨) سورة الفجر] هذا بعض ما وصف الله -عز وجل - به حالهم وجبروتهم وقوتهم.

{قَالُواْ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ} **[(٥٤) سورة هود] أي: بجنون {قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللّهِ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [(٥٤ -٥٦) سورة هود].**

وروى الإمام أحمد عن الحارث البكري -رضي الله تعالى عنه - قال: خرجت أشكو العلاء بن الحضرمي -رضي الله تعالى عنه - إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم - فمررت بالربذة، فإذا بعجوز من بني تميم منقَطِعٍ بها.

قوله: "**منقَطِعٍ بها**" يعني لا تجد من يبلغها إلى المكان الذي تريد، أو لا تجد وسيلة تصل بها إلى مبتغاها، والربذة منطقة معروفة وهي التي كان فيها أبو ذر -رضي الله عنه - وهي ناحية شرقي المدينة، فعلى بعد مائة وعشرين كيلو من المدينة تقريباً تأتي الحناكية -على الطريق القديم - فإذا دخلت في داخل الصحراء نحو الحناكية قريباً من أربعين كيلو تأتي الربذة التي لا زال بعض أطلالها إلى اليوم.

فإذا بعجوز من بني تميم منقطَعٍ بها، فقالت لي: يا عبد الله، إنّ لي إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم - حاجة، هل أنت مبلغي إليه؟ قال: فحملتها فأتيت المدينة، فإذا المسجد غاصٌّ بأهله، وإذا راية سوداء تخفق، وإذا بلال متقلد سيفاً بين يدي رسول الله -صلى الله عليه وسلم - فقلت: ما شأن الناس؟ قالوا: يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجهاً.

جاء في بعض الروايات أنها سرية ذات السلاسل، وفي بعض الروايات أن عمرو بن العاص قد قدم بهذا الجيش وقد وصل إلى المدينة.

قال: فجلست، فدخل منزله أو قال: رحله، فاستأذنت عليه فأذن لي، فدخلت وسلمت فقال: ((هل بينكم وبين تميم شيء؟)) قلت: نعم، وكانت لنا الدبرة عليهم.

الدبرة تقال للنصر والغلبة، وهي من الأضداد فيقال الدبرة للهزيمة أيضاً.

ومررت بعجوز من بني تميم منقطَعٍ بها، فسألتني أن أحملها إليك وها هي بالباب، فأذن لها فدخلت، فقلت: يا رسول الله: إن رأيت أن تجعل بيننا وبين تميم حاجزاً فاجعل الدهناء، فحميت العجوز واستوفزت وقالت: يا رسول الله، فإلى أين تضطر مضرك؟

النبي -صلى الله عليه وسلم - من مضر وقولها: "**تضطر مضرك**" يعني تضيق عليهم بهذا.

قال قلت: إن مثلي مثل ما قال الأول: "معْزى حملتْ حتفها"؛ حملتُ هذه ولا أشعر أنها كانت لي خصماً، أعوذ بالله وبرسوله أن أكون كوافد عاد، قال لي: ((وما وافد عاد؟)) وهو أعلم بالحديث منه ولكن يستطعمه

قوله: "**يستطعمه**" يعني يستزيده من الحديث.

قلت: إن عاداً قحطوا، فبعثوا وافداً لهم يقال له: قَيْل، فمرَّ بمعاوية بن بكر فأقام عنده شهراً يسقيه الخمر، وتغنيه جاريتان يقال لهما: الجرادتان، فلما مضى الشهر خرج إلى جبال مهرة، فقال: اللهم إنك تعلم أني لم أجئ إلى مريض فأداويه ولا إلى أسير فأفاديه، اللهم اسق عاداً ما كنت تسقيه، فمرت به سحابات سود، فنودي منها اختر، فأومأ إلى سحابة منها سوداء، فنودي منها: خذها رماداً رِمدَداً، لا تبق من عاد أحداً، قال: فما بلغني أنه بعث عليهم من الريح إلا قدر ما يجري في خاتمي هذا حتى هكلوا، قال أبو وائل: وصدق، قال: وكانت المرأة والولد إذا بعثوا وافداً لهم قالوا: لا تكن كوافد عاد، هكذا رواه الإمام أحمد في المسند، ورواه الترمذي نحوه ورواه النسائي وابن ماجه[1].

بعضهم رواه بسياق أطول من هذا وأكثر تفصيلاً، وبعضهم مختصراً، وهو في المسند قد ذكر له عدة روايات، وحسنه محقق المسند، وفي كتب التاريخ يذكرون تفاصيل أكثر من هذا، ويذكرون الأشعار التي كانت تغني بها الجاريتان، وأن معاوية بن بكر لما أطالوا المكث عنده لقن هؤلاء الجواري أبياتاً فرددنها على مسامع هؤلاء الوفد من أجل أنه أُحرج معهم وكره أن يشعرهم بشيء لئلا يظنوا أنه قد استثقل مكثهم عنده، ولما سمعوا بعض الأبيات حصل ما حصل، والله أعلم.

{وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ * قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا بِالَّذِيَ آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ} [(٧٣ -٧٨) سورة الأعراف].

قال علماء التفسير والنسب: ثمود بن عاثر بن إرم بن سام بن نوح وهو أخو جديس بن عاثر، وكذلك قبيلة طَسْم، كل هؤلاء كانوا أحياء من العرب العاربة قبل إبراهيم الخليل -عليه السلام- وكانت ثمود بعد عاد، ومساكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام، إلى وادي القُرى وما حوله، وقد مرَّ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على ديارهم ومساكنهم وهو ذاهب إلى تبوك في سنة تسع.

روى الإمام أحمد عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- قال: لمَّا نزل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بالناس على تبوك، نزل بهم الحِجر عند بيوت ثمود، فاستقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود، فعجنوا منها ونصبوا لها القدور، فأمرهم النبي -صلى الله عليه وسلم- فأهرقوا القدور وعلفوا العجين الإبل، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا وقال: ((إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم))[2].

---

[1] - أخرجه أحمد (١٥٩٩٦) (ج ٣ / ص ٤٨٢) وقال شعيب الأرنؤوط: "إسناده حسن".

[2] - أخرجه أحمد (٥٩٨٤) (ج ٢ / ص ١١٧) وقال شعيب الأرنؤوط: "إسناده صحيح على شرط الشيخين".

وروى أحمد أيضاً عن عبد الله بن عمر -رضي الله تعالى عنهما - قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم - وهو بالحِجر: ((لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم)) وأصل هذا الحديث مخرج في الصحيحين[٣].

يؤخذ من هذا الحديث أن الإنسان لا يقصد هذه الأماكن لزيارتها والفرجة، لكن من مرَّ بها فأراد أن يدخلها فإنه يدخل باكياً أو متباكياً، والآيات التي أرشد الله -عز وجل - بها في القرآن إلى السير في الأرض والنظر في عواقب المكذبين هذه لمن كان عنده تردد وشك فإنه يذهب وينظر في حال هؤلاء وما حصل لهم ليعتبر، وأما من عرف الحق وآمن به فلا حاجة به لمثل هذا.

قوله تعالى: {وَإِلَى ثَمُودَ} [(٧٣) سورة الأعراف] أي: ولقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود {أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} [(٧٣) سورة الأعراف] فجميع الرسل يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [(٢٥) سورة الأنبياء] وقال: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ} [(٣٦) سورة النحل].

ويدخل في هذا قوم لوط -عليه الصلاة والسلام -؛ لأن الله -عز وجل - لم يذكر في دعوتهم -كما سيأتي - أن لوطاً -صلى الله عليه وسلم - خاطبهم بالتوحيد ولهذا فهم منه بعض أهل العلم أنه لم يكن عندهم إشراك، وإنما كان عندهم الفاحشة، وهذا ليس بلازم، وإنما كان هؤلاء قد جاءوا بأمر لم يسبقوا إليه، وهو هذه الفاحشة، فجاءهم لوط -صلى الله عليه وسلم - فأنكرها عليهم، فلا يعني هذا بحال من الأحوال أن لوطاً -صلى الله عليه وسلم - ما خاطبهم بالتوحيد، ثم لو كان هؤلاء عندهم إيمان بالله -تبارك وتعالى - لما فعلوا هذا الفعل حتى كابروا غاية المكابرة واستهزءوا بلوط -عليه الصلاة والسلام - وهموا بإخراجه وإخراج المؤمنين معه حيث قالوا: **{أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ}** [(٨٢) سورة الأعراف] وكانوا يراودونه عن ضيوفه، وهذا لا يفعله أناس من أهل الإيمان، ثم إن كانوا مؤمنين فمن أين جاءهم ذلك الإيمان؟ فإبراهيم -صلى الله عليه وسلم - هاجر إلى الشام وآمن له لوط، وهو ابن أخيه، ولم يكن في تلك الناحية بل حتى على وجه الأرض أحد من المؤمنين، ولهذا استشكل العلماء قوله -تبارك وتعالى -: **{قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ}** [(٤) سورة الممتحنة] فمن الذين كانوا مع إبراهيم -صلى الله عليه وسلم - ولا يُعرف أنه آمن له أحد حينما كان في تلك الناحية عند قومه؟ ثم بعد ذلك لما هاجر آمن له لوط أو آمن له لوط عند هجرته **{وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي}** [(٢٦) سورة العنكبوت] فهاجر إلى الشام، ولوط -عليه الصلاة والسلام - ذهب إلى ناحية قريبة من فلسطين فمن أين جاءهم التوحيد قبل إبراهيم -صلى الله عليه وسلم -؟

الحاصل أن الله -عز وجل - لم يذكر أنه دعاهم إلى التوحيد، ولا يلزم ذلك أنه لم يدعهم إليه، فالله -عز وجل - يقول: **{وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ}** [(٢٥) سورة الأنبياء]

---

[3] - أخرجه البخاري في كتاب التفسير –باب تفسير سورة الحجر (٤٤٢٥) (ج ٤ / ص ١٧٣٧) ومسلم في كتاب الزهد والرقائق - باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين (٢٩٨٠) (ج ٤ / ص ٢٢٨٥).

ويقول: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ} [(٣٦) سورة النحل] أي كل رسول كان يأمر قومه بعبادة الله وحده، ومنهم لوط -صلى الله عليه وسلم -.

وقوله: {قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً} [(٧٣) سورة الأعراف] أي: قد جاءتكم حجة من الله على صدق ما جئتكم به، وكانوا هم الذين سألوا صالحاً -عليه السلام - أن يأتيهم بآية واقترحوا عليه بأن تخرج لهم من صخرة صماء عينوها بأنفسهم، وهي صخرة منفردة في ناحية الحِجر يقال لها الكاثبة فطلبوا منه أن تخرج لهم منه ناقة عُشَراء تَمْخض.

العُشَراء هي التي بلغت الشهر العاشر في الحمل.

فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم الله إلى سؤالهم وأجابهم إلى طلبتهم ليؤمنن به وليتبعنه، فلما أعطوه على ذلك عهودهم ومواثيقهم، قام صالح -عليه السلام - إلى صلاته ودعا الله -عز وجل - فتحركت تلك الصخرة ثم انصدعت عن ناقة جوفاء وبراء، يتحرك جنينها بين جنبيها كما سألوا، فعند ذلك آمن رئيس القوم جندع بن عمرو ومن كان معه على أمره، وأراد بقية أشراف ثمود أن يؤمنوا فصدهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد والحُباب صاحب أوثانهم، ورباب بن صمعر بن جلهس، وكان لجندع بن عمرو ابن عم يقال له: شهاب بن خليفة بن وخلة بن لبيد بن جواس، وكان من أشراف ثمود وأفاضلها، فأراد أن يسلم أيضاً فنهاه أولئك الرهط فأطاعهم، فقال في ذلك رجل من مؤمني ثمود يقال: له مهوش بن عنمة بن الدميل -رحمه الله -:

وكانت عصبة من آل عمرو	**إلى دين النبي دَعوا شهابا**
عزيزَ ثمود كلهم جميعاً	**فهمّ بأن يجيب فلو أجابا**
لأصبح صالحٌ فينا عزيزاً	**وما عدلوا بصاحبهم ذؤابا**
ولكن الغواة من آل حجر	**تولُّوا بعد رشدهم ذؤابا**

وأقامت الناقة وفصيلها بعدما وضعته بين أظهرهم مدة تشرب من بئرها يوماً وتدعه لهم يوماً وكانوا يشربون لبنها يوم شربها يحتلبون فيملئون ما شاءوا من أوعيتهم وأوانيهم كما قال في الآية الأخرى: {وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاء قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ} [(٢٨) سورة القمر] وقال تعالى: {هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ} [(١٥٥) سورة الشعراء]، وكانت تسرح في بعض تلك الأودية تردُ من فجٍّ وتصدر من غيره ليسعها؛ لأنها كانت تتضلع من الماء، وكانت على ما ذُكر خلقاً هائلاً ومنظراً رائعاً، إذا مرَّت بأنعامهم نفرت منها، فلما طال عليهم ذلك واشتد تكذيبهم لصالح النبي -عليه السلام - عزموا على قتلها ليستأثروا بالماء كل يوم، فيقال: إنهم اتفقوا كلهم على قتلها.

قال قتادة: بلغني أن الذي قتلها طاف عليهم كلهم أنهم راضون بقتلها، حتى على النساء في خدورهنَّ وعلى الصبيان، قلت: وهذا الظاهر لقوله تعالى: {فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا} [(١٤) سورة الشمس].

يعني أنهم تواطئوا على قتلها جميعاً ما عدا المؤمنين الذين آمنوا حينما رأوا هذه الآية، والدليل على أن قتلها كان بمواطأة من الجميع -من غير المؤمنين - أن الله نسب عقْرها إليهم فقال: {فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ

{رَبِّهِمْ} [(٧٧) سورة الأعراف] وقال تعالى: **{وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا}** [(٧٧) سورة الأعراف]؛ فنبي الله قال لهم: **{وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}** [(٧٣) سورة الأعراف] فلما عتوا عن أمر الله -عز وجل - قالوا له: ائتنا بهذا العذاب الذي توعدتنا به.

وقال: {وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا} [(٥٩) سورة الإسراء].

قوله: **{وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً}** أي آية مبصرة، وليس المقصود وصف الناقة أنها مبصرة.

وقال: {فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ} [(٧٧) سورة الأعراف] فأسند ذلك على مجموع القبيلة فدل على رضا جميعهم بذلك، والله أعلم.

أصل العقْر في كلام العرب هو الجرح، وبعضهم يقول: هو قطع عضو يؤثر في تلف النفس، تقول: عقرتُ الفرس إذا ضربت قوائمه بالسيف.

وبعضهم يقول: أصل العقْر هو كسر عرقوب البعير، ثم أطلق بعد ذلك على نحره؛ لأن كسر عرقوبه يؤدي إلى ذلك غالباً، أي يكون سبباً لنحره، يعني هم يضربون عرقوبه مثلاً من أجل أن يسهل عليهم نحره، وحتى في بعض الروايات في تفاصيل قتل الناقة –وهذا من المأخوذ عن بني إسرائيل - أنهم لما تآمروا على ذلك كمن لها أحدهم في صخرة فلما مرت به ضرب عرقوبها، ثم جاء الآخر وضربها في لبتها فنحرها، وفي الآية الأخرى أضاف العقر إلى واحد منهم فقال: **{فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ}** [(٢٩) سورة القمر] يعني عمل عملاً فعقر، وهذا هو أحيمر ثمود، ويذكرون في التواريخ تفاصيل كثيرة في فعلهم ذلك وأسبابه، فالله تعالى أعلم.

وذكر الإمام أبو جعفر بن جرير وغيره من علماء التفسير أن سبب قتل الناقة أن امرأة منهم يقال لها: عنيزة بنت غَنَم بن مجلز وتكنى أم غنم، كانت عجوزاً كافرة.

عنيزة بنت غَنَم يقال: كان لها غَنَم كبير وكانت الناقة إذا مرت نفرت الغنم منها، فكان هذا سبباً لمطالبتها بقتل الناقة.

وأما اسم هذه المرأة –عنيزة - فقد تكون نسبت إلى غنمها فقيل: بنت غَنَم لكثرة غنمها، أو من باب أن لكل مسمى له من اسمه نصيب سميت عنيزة بنت غنَم، وقيل: إنها كنيت بأم غنم لكثرة غنمها على ما ورد في بعض الأخبار، أما في أسماء بعض قادة التاريخ الإسلامي فيرد غنْم –بتسكين النون - وليس بفتحها، ومن أولئك عبد الرحمن بن غَنْم، وليس ابن غنَم كما يقول بعض الناس.

وكانت من أشدِّ الناس عداوة لصالح -عليه السلام - وكانت لها بنات حسان ومال جزيل، وكان زوجها ذؤاب بن عمرو أحد رؤساء ثمود، وامرأة أخرى يقال لها: صدوف بنت المحيا بن دهر بن المحيا ذات حسب ومال وجمال، وكانت تحت رجل مسلم من ثمود ففارقته، فكانتا تجعلان لمن التزم لهما بقتل الناقة، فدعت صدوف رجلاً يقال له الحُباب، فعرضت عليه نفسها إن هو عقر الناقة فأبى عليها، فدعت ابن عم لها يقال له: مصدع بن مهرج بن المحيا فأجابها إلى ذلك، ودعت عنيزة بنت غنم قُدارَ بن سالف بن جندع، وكان رجلاً أحمر أزرق قصيراً، يزعمون أنه كان ولد زنية، وأنه لم يكن من أبيه الذي ينسب إليه وهو سالف، وإنما هو من رجل يقال له: صهياد، ولكن وُلد على فراش سالف، وقالت له: أعطيك أيَّ بناتي شئت

على أن تعقر الناقة، فعند ذلك انطلق قدار بن سالف ومصدع بن مهرج فاستغويا غواة من ثمود فاتبعهما سبعة نفر فصاروا تسعة رهط، وهم الذين قال الله تعالى: {وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ} [(٤٨) سورة النمل] وكانوا رؤساء في قومهم فاستمالوا القبيلة الكافرة بكمالها فطاوعتهم على ذلك، فانطلقوا فرصدوا الناقة حين صدرت من الماء وقد كمن لها قدار بن سالف في أصل صخرة على طريقها وكمن لها مصدع في أصل أخرى، فمرت على مصدع فرماها بسهم، فانتظم به عضلة ساقها، وخرجت أم غنم عنيزة وأمرت ابنتها وكانت من أحسن الناس وجهاً فسفرت عن وجهها لقدار وذمَّرته وشدَّ على الناقة بالسيف فكسف عرقوبها، فخرت ساقطة إلى الأرض، ورغت رغاة واحدة، تحذّر سَقْبَها.

قوله: **"تحذر سقبها"** يعني ولدها.

ثم طعن في لبتها فنحرها، وانطلق سقْبها -وهو فصيلها - حتى أتى جبلاً منيعاً فصعد أعلى صخرة فيه ورغى، فروى عبد الرزاق عن معمر عمن سمع الحسن البصري أنه قال: يا ربي أين أمي؟ ويقال: إنه رغى ثلاث مرات وإنه دخل في صخرة فغاب فيها، ويقال: بل اتبعوه فعقروه مع أمِّه، فالله أعلم.

فلما فعلوا ذلك وفرغوا من عقر الناقة وبلغ الخبرُ صالحاً -عليه السلام - فجاءهم وهم مجتمعون، فلما رأى الناقة بكى وقال: {تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ} الآية [(٦٥) سورة هود].

الأهرامات هل هي ديار قوم معذبين فلا تجوز زيارتها؟:

بعض المؤرخين يقول: غالب الظن أنها كانت قبل الطوفان، أي قبل نوح -عليه الصلاة والسلام -، وكثير منهم يذكرون أن الذي بناها هو إدريس -صلى الله عليه وسلم - على أنه كان قبل نوح، ولا يثبت أن إدريس -عليه الصلاة والسلام - كان قبل نوح، وابن العربي يقول: هذا وهم، والأقرب أنه كان بعده.

وعلى كل حال فالأهرام إن كانت قبل الطوفان فهي ليست أماكن أناس معذبين، وإن كانت بعد الطوفان فينظر إن كانت لقوم ليسوا من المعذبين فلا ينطبق عليها هذا، وإن كانت كما يزعمون للفراعنة فهذا أيضاً محل نظر؛ باعتبار أن محل العذاب الذي وقع هو البحر وليست أرض مصر وإلا لكانت تلك الناحية جميعها أرضاً للمعذبين، وهذا لم يقل به أحد؛ والمقصود أن الذي لا يجوز زيارته هو المحل الذي نزل به العذاب.

وقد ذكر بعض أهل العلم أن وادي محسِّر لما مرَّ به النبي -صلى الله عليه وسلم - أسرع؛ لأنه المكان الذي أهلك الله فيه الفيل، وهذا لا يثبت -أعني أن الله أهلك الفيل هناك - ولذلك ذكر بعضهم مكاناً آخر، وربما كان النبي -صلى الله عليه وسلم - أسرع؛ لأن المحل يقتضي هذا، وكذلك نقل عن علي -رضي الله عنه - أنه لما مر بأرض الخسف من بابل أسرع وتلثم وأخر الصلاة حتى تجاوزه.

والناس يسألون كثيراً عن منتجات البحر الميت حيث توجد محلات ومصانع تصنع ألوان المستحضرات التجميلية وأشياء أخرى مما يتعالج به الناس وما أشبه ذلك وكلها مستخرجة منه، فيقولون: هل هذا هو المكان الذي عذب الله فيه قوم لوط -صلى الله عليه وسلم -؟

فأقول: وإن قال بهذا بعضهم إلا أني أظنه لا يثبت، والله -عز وجل - قال: {وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ} [(١٣٨) سورة الصافات] فهل المقصود بذلك أنهم كانوا يمرون على البحر الميت أو أن لهم قرى كانوا يمرون عليها، فالله تعالى أعلم، فالأصل أن المكان الذي لا يثبت أنه محل للمعذبين لا تجري عليه الأحكام

التي رتبها النبي -صلى الله عليه وسلم - على مدائن قوم صالح، حيث نهاهم أن يستقوا من الآبار، وما عُجن بتلك المياه أمرهم أن يعلفوه الدواب، وإنما يكون هذا الحكم سارياً على المكان الذي عرف بهذا، والله أعلم.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأعراف (١٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى -: وكان قتلهم الناقة يوم الأربعاء، فلما أمسى أولئك التسعة الرهط عزموا على قتل صالح -عليه السلام - وقالوا: إن كان صادقاً عجلناه قبلنا، وإن كان كاذباً ألحقناه بناقته {قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ} الآية [(٤٩ -٥١) سورة النمل] **فلما عزموا على ذلك وتواطئوا عليه وجاءوا من الليل ليفتكوا بنبي الله فأرسل الله -سبحانه وتعالى وله العزة ولرسوله - عليهم حجارة فرضختهم سلفاً وتعجيلاً قبل قومهم، وأصبح ثمود يوم الخميس -وهو اليوم الأول من أيام النظرة - ووجوههم مصفرة كما وعدهم صالح -عليه السلام - وأصبحوا في اليوم الثاني من أيام التأجيل -وهو يوم الجمعة - ووجوههم محمرَّة، وأصبحوا في اليوم الثالث من أيام المتاع -وهو يوم السبت - ووجوههم مسودَّة، فلما أصبحوا من يوم الأحد وقد تحنطوا وقعدوا ينتظرون نقمة الله وعذابه -عياذاً بالله من ذلك - لا يدرون ماذا يُفعل بهم ولا كيف يأتيهم العذاب، وأشرقت الشمس، جاءتهم صيحة من السماء ورجفة شديدة من أسفل منهم ففاضت الأرواح وزهقت النفوس في ساعة واحدة.**

{فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ} [(٧٨) سورة الأعراف] **أي: صرعى لا أرواح فيهم، ولم يفلت منهم أحد لا صغير ولا كبير، لا ذكر ولا أنثى، قالوا: إلا جارية كانت مقعدة واسمها كلبة بن السِّلْق، ويقال لها: الزُّرَيْقة، وكانت كافرة شديدة العداوة لصالح -عليه السلام -، فلما رأت ما رأت من العذاب أطلقت رجلاها، فقامت تسعى كأسرع شيء، فأتت حياً من الأحياء فأخبرتهم بما رأت وما حلَّ بقومها، ثم استسقتهم من الماء فلما شربت ماتت.**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فقوله -رحمه الله -:"**جاءتهم صيحة من السماء ورجفة شديدة من أسفل منهم**" هذا جمع بين ما ورد في كتاب الله -عز وجل - مما يُذكر فيه عقوبتهم، فقد ذكر الله -تبارك وتعالى - أنهم أخذتهم الرجفة، والرجفة: هي الزلزلة، أي اضطربت بهم الأرض واهتزت بهم.

وبعضهم يقول: أي الصيحة الشديدة، كما قال الله -عز وجل - في سورة هود: **{وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ}** [(٦٧) سورة هود] وأحسن ما يقال في هذا -والله تعالى أعلم - هو ما ذكره الحافظ ابن كثير ومشى عليه جماعة من المحققين، وممن قال به الشيخ محمد الأمين الشنقيطي من

المعاصرين، وهو أن الله -عز وجل - أخذهم بالرجفة، حيث صاح بهم الملك فاضطربت بهم الأرض ورجفت بهم فصاروا في دارهم جاثمين.

وأصل الجثوم هو اللصوق بالأرض والجُثِيّ على الركب والوجوه، والمقصود أنهم هلكوا وماتوا وفارقت أرواحهم أجسادهم.

يقول: **"إلا جارية كانت مقعدة واسمها كلبة بنت السِّلْق ويقال لها: الزريقة"** ويقال لها: الزريعة -هكذا ضبطُه في تفسير ابن جرير، وهو الذي رجحه الشيخ محمود شاكر -رحمه الله -؛ باعتبار أن العرب تقول للكلاب أولاد زارع.

والسِّلْق هو الذئب، فهي كلبة بن السلق وأولاد زارع يعني الكلاب، ولذلك يقال لهذه الزريعة، والعرب تقول: بأن الذئب ينزو على الكلبة ويولدها.

قال علماء التفسير: ولم يبقَ من ذرية ثمود أحد سوى صالح -عليه السلام - ومن تبعه -رضي الله عنهم - إلا أن رجلا يقال له: أبو رِغال كان لما وقعت النقمة بقومه مقيماً إذ ذاك في الحرم فلم يصبه شيء فلما خرج في بعض الأيام إلى الحل، جاءه حجر من السماء فقتله.

قال عبد الرزاق عن معمر أخبرني إسماعيل بن أمية أن النبي -صلى الله عليه وسلم - مرَّ بقبر أبي رغال فقال: ((أتدرون من هذا؟)) قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: ((هذا قبر أبي رِغال رجل من ثمود كان في حرم الله فمنعه حرمُ الله عذابَ الله، فلما خرج أصابه ما أصاب قومه فدفن هاهنا ودفن معه غصن من ذهب فنزل القوم فابتدروه بأسيافهم فبحثوا عنه فاستخرجوا الغصن)) وقال عبد الرزاق قال معمر قال الزهري: أبو رغال أبو ثقيف[1].

هذه الرواية عن معمر عن إسماعيل بن أمية عن النبي -صلى الله عليه وسلم - فهي واضحة أنها من المرسل، ولذلك ضعفها أهل العلم، فالله أعلم.

{فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ} [(٧٩) سورة الأعراف] هذا تقريع من صالح -عليه السلام - لقومه، لما أهلكهم الله لمخالفتهم إياه، وتمرُّدهم على الله وإبائهم عن قبول الحق، وإعراضهم عن الهدى إلى العمى، قال لهم صالح ذلك بعد هلاكهم تقريعاً وتوبيخاً وهم يسمعون ذلك، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم - لما ظهر على أهل بدر أقام هناك ثلاثاً، ثم أمر براحلته فشدت بعد ثلاث من آخر الليل فركبها ثم سار حتى وقف على القليب -قليب بدر - فجعل يقول: ((يا أبا جهل بن هشام يا عتبة بن ربيعة يا شيبة بن ربيعة ويا فلان بن فلان هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً؟)) فقال له عمر: يا رسول الله، ما تكلم من أقوام قد جيفوا؟ فقال: ((والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يجيبون))[2].

---

[1] - أخرجه أبو داود في كتاب الخراج - باب نبش القبور العادية يكون فيها المال (٣٠٩٠) (ج ٣ / ص ١٤٨) والطبراني في الأوسط (٢٧٨٨) (ج ٣ / ص ١٥٨) وعبد الرزاق في مصنفه (٢٠٩٨٩) (ج ١١ / ص ٤٥٤) وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة برقم (٤٧٣٦).

[2] - أخرجه البخاري في كتاب المغازي – باب قتل أبي جهل (٣٧٥٧) (ج ٤ / ص ١٤٦١) ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها - باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه (٢٨٧٣) (ج ٤ / ص ٢٢٠٢).

وهكذا صالح -عليه السلام - قال لقومه: {لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ} [(٧٩) سورة الأعـراف] أي: فلم تنتفعوا بذلك لأنكم لا تحبون الحق، ولا تتبعون ناصحاً، ولهذا قال: {وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ} [(٧٩) سورة الأعراف].

الأقرب -والله تعالى أعلم - أنه قال لهم ذلك بعد أن أهلكم الله -تبارك وتعالى -؛ لأنه ذكـره بعـد إهلاكهـم، والآية تحتمل أيضاً أن يكون قال ذلك لهم حينما عقروا الناقة واستوجبوا العذاب فقال لهم ذلك وفارقهم قبل أن ينزل بهم عذاب الله -عز وجل - ونقمته، وهذا قال به طائفة من السلف، لكن الأقرب هو ما ذكره ابن كثيـر -رحمه الله - ويدل عليه ظاهر القرآن، أي أنه قال ذلك بعد نزول العقوبة بهم، وكونه يوجه لهم هذا الخطـاب بعد ما هلكوا ليس ذلك بمشكل للحديث الذي سبق عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم -.

{وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ} [(٨٠ -٨١) سورة الأعراف].

يقول: ولقد أرسلنا لوطاً، أو تقديره، واذكر لوطاً إذ قال لقومه.

ولوط هو ابن هاران بن آزر، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل -عليهما السلام - وكان قد آمن مـع إبـراهيم -عليه السلام - وهاجر معه إلى أرض الشام فبعثه الله إلى أهل سَدُوم وما حولها من القرى يدعوهم إلـى الله -عز وجل - ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم والمحارم والفـواحش التـي اخترعوها لم يسبقهم بها أحد من بني آدم ولا غيرهم، وهو إتيان الذكور دون الإناث، وهذا شيء لم يكـن بنو آدم تعهده ولا تألفه ولا يخطر ببالهم حتى صنع ذلك أهل سَدُوم -عليهم لعائن الله -.

في قوله: {وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ} [(٨٠) سورة الأعراف] ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله - وجهين لنصب لوط -عليه الصلاة والسلام - الأول: واذكر لوطاً، أو يكون التقدير: لقد أرسلنا لوطاً، والحاصل أن لوطاً -عليـه الصلاة والسلام - قال لقومه: {أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ} [(٨٠) سورة الأعراف] قال ذلك على سبيل الاستنكار، وعبر عنها بالفاحشة وأدخل عليها "أل"، وكأن ذلك -والله تعالى أعلم - يشعر بأنها قد استحقت الوصف الكامل في الفحش، فهي في غاية الفحش، وذكر الله -عز وجل - فيها ما لم يـذكره فـي الزنا، فقال هنا: {أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ} [(٨٠) سورة الأعراف]، وقال: {بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ} [(٨١) سورة الأعراف] وذكر قرية هؤلاء وقال: {الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ} [(٧٤) سورة الأنبياء] فهو وصف القرية ويعني أهلها أنهم كانوا يعملون الخبائث ووصفهم بالفسق.

وقال لوط -صلى الله عليه وسلم -: {رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ} [(٣٠) سـورة العنكبـوت] فوصـفهم بالإفساد، ووصفهم أيضاً بالظلم في قوله: {إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ} [(٣١) سورة العنكبوت] وذلك لمـا جـاءت الملائكة لإبراهيم -صلى الله عليه وسلم - وبشروه بهلاكهم.

فهذه الأوصاف جميعاً ذكرها الله -عز وجل - لهؤلاء الذين يقارفون هذا المنكر الشنيع فهو في غاية البـشاعة والمنافاة للفطَر، وقد قال بعض خلفاء بني أمية: لولا أن الله -عز وجل - ذكر ذلك في القرآن لما صـدقت أن أحداً يقارف ذلك، أي أنه لا يتصور أن يقع هذا من أحد لولا أن الله -عز وجل - ذكره في كتابه.

وهذه الفاحشة مع منافاتها للفطرة فإن فيها أيضاً ألواناً من القبائح والرذائل والرزايا، وقد ذكر الحافظ ابن القيم -رحمه الله - أن من وقع عليه ذلك فإن ماء الرجل يدخل في كل عصب ومفصل فيفسد فطرته ويحصل له بسبب ذلك من المسخ والانتكاس ما لا يقادر قدره.

يقول: **"وهذا شيء لم يكن بنو آدم تعهده ولا تألفه ولا يخطر ببالهم حتى صنع ذلك أهل سَدوم"** وقال: **"وهاجر معه إلى أرض الشام فبعثه الله إلى أهل سدُوم وما حولها من القرى"** وسدوم هذه مجموعة من القرى كما قال الله تعالى: **{وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى}** [(٥٣) سورة النجم] وكما قال: **{وَالْمُؤْتَفِكَاتِ}** [(٧٠) سورة التوبة] فالمؤتفكة جنس يشمل جميع القرى، يعني القرى المؤتفكة، والمؤتفكات باعتبار أنها قرى وليست قرية واحدة، فسدوم يقولون عنها: إنها الأم، يعني هي عاصمة تلك البلاد، ويذكر بعضهم أنها من أعمال حلب، وأما القول بأنها في البحر الميت فلا أعلم عليه دليلاً، والله -عز وجل - ما ذكر أنها تحولت إلى بحر، وإنما أخبر أنه قلبها وأنه جعل عاليها سافلها، وقال: **{وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى}** [(٥٣) سورة النجم] يعني المنقلبة، أي أنه رفعها ثم قلبها ثم أتبع ذلك بالحجارة، والعلم عند الله -عز وجل -.

قال عمرو بن دينار في قوله: {مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ} [(٨٠) سورة الأعراف] قال: ما نزا ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط، ولهذا قال لهم لوط -عليه السلام -: {أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء} [(٨٠ -٨١) سورة الأعراف].

قوله: **{إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ}** هذا على قراءة نافع وحفص، ويكون ذلك على سبيل الإخبار، وقرأه الباقون بهمزتين **{أَئِنَّكُمْ}** فيكون ذلك على سبيل الاستفهام الذي يراد به التوبيخ، فهو يوبخهم على هذا الفعل.

أي عدلتم عن النساء وما خلق لكم ربكم منهن إلى الرجال وهذا إسراف منكم وجهل؛ لأنه وضع الشيء في غير محله.

في قوله: **{إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً}** يدل على أن الفطَر منتكسة، يعني أنهم لا يأتون ذلك لأمر أو لمعنى آخر، وإنما شهوة، والشهوة لا تتوجه إلى مثل هذا، ثم أيضاً يفعلون ذلك قضاء لوطرٍ ناشئ عن فطرة منكوسة وشذوذ.

وهذا الذي فعلوه وأخبر الله -عز وجل - أنهم فعلوه شهوة من غير اعتبار ولا نظر للمعاني التي جعلها الله -عز وجل - في المحل النظيف، وهو مقتضى الفطرة، حيث أودع الله -عز وجل - في فطر الرجال الميل الطبيعي للنساء، وذلك يجده الرجال في نفوسهم فيحصل بسبب هذا النكاح، ويحصل بسببه المودة والرحمة التي تنسى معها المرأة أباها وأمها وأخاها وقومها وعشيرتها، قال تعالى: **{وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً}** [(٢١) سورة الروم] وهذا المعنى لا يتصوره الإنسان إلا إذا تزوج، فهناك معانٍ لا يعرفها الإنسان إلا إذا جربها، مثل: شعور الآباء نحو الأبناء هذا لا يعرفه إلا من له ولد، وهذا مثلما لو تحدثت عن حلاوة الإيمان لمن لم يتذوق حلاوة الإيمان فإن ذلك الحديث لا ينفعه، وكذلك عندما تتحدث عن إعجاز القرآن لفاسد السليطة فإنه لا يتذوق الإعجاز وإن ردد مع الناس كلمة الإعجاز لكنه لا يتذوق هذا إطلاقاً، فهناك جملة من المعاني لا يتصورها الإنسان إلا إذا تحقق أمر زائد على مجرد السماع أو التصور، فيدرك عندئذ هذا المعنى، فالله -تبارك وتعالى - جعل في فطر الرجال الميل إلى النساء، وجعل من مقتضى النكاح المودة والرحمة، بل إن

الوطء يكون سبباً لمزيد من الإلف والمودة والرحمة وهو شيء معلوم، وقد ذكره جمع من أهل العلم، ولا يحتاج مثل هذا أن ينبه عليه، وهو أيضاً سبب للولد، وبقاء النسل الآدمي، ويخرج منه الأنبياء والصلحاء والمجاهدون في سبيل الله، والعلماء، كل ذلك بسبب هذا النكاح، ويحصل فيه قضاء الوطر أيضاً، وأما هذه الفاحشة والشناعة فلا يحصل منها شيء من ذلك إطلاقاً، ثم إن هذا الممسوخ الذي يقع عليه ذلك هو لا يلتذ به ولكنه فساد الفطَر.

ولهذا قال لهم في الآية الأخرى: {هَؤُلاء بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ} [(٧١) سورة الحجر] فأرشدهم إلى نسائهم فاعتذروا إليه بأنهم لا يشتهونهن.

قال: **"فأرشدهم إلى نسائهم"** مع أنه قال: **{بَنَاتِي}** وهذا كما يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله- باعتبار أن النبي بمنزلة الأب لقومه، فبهذا الاعتبار يكون أبناءُ قومه أبناءه وبناتُهم بناتَه، والله -تبارك وتعالى- قال: **{النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ}** [(٦) سورة الأحزاب] وفي القراءة الأخرى: **(وهو أب لهم وأزواجه أمهاتهم)** وهي قراءة أحادية معروفة -قراءة أبيّ وقراءة ابن عباس- وهذه الأبوة هي أبوة تربية، ورجحها بعض أهل العلم على أبوة النسب؛ لأن أبوة النسب يخرج فيها الإنسان إلى الحياة الدنيا، وأما هذه الأبوة فيخرج بها الإنسان من الظلمات إلى النور وإلى الحياة الحقيقية الكاملة التي يسعد بها في الدنيا ويسعد بها في الآخرة، فقوله: **{هَؤُلاء بَنَاتِي}** [(٧٨) سورة هود] يعني بنات القبيلة، أو بنات قومه، فهو يقول لهم: تزوجوا هؤلاء النساء، وبعضهم يقول: إنه عرض بناته عليهم ليتزوجوهن، فأبوا ذلك عليه.

{قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ} [(٧٩) سورة هود] أي: لقد علمت أنه لا أرَب لنا في النساء ولا إرادة، وإنك لتعلم مرادنا من أضيافك.

{وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ} [(٨٢) سورة الأعراف] أي: ما أجابوا لوطاً إلا أن همُّوا بإخراجه ونفيه ومن معه من بين أظهرهم، فأخرجه الله تعالى سالماً، وأهلكهم في أرضهم صاغرين مهانين.

وقوله تعالى: {إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ} قال قتادة: عابوهم بغير عيب، وقال مجاهد: {إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ} من أدبار الرجال وأدبار النساء، وروي مثله عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أيضاً.

قولهم: **{إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ}** يحتمل أنهم قالوا ذلك على سبيل التهكم والسخرية، ويحتمل أنهم قالوا ذلك على سبيل الحقيقة، ومن قال: إنهم قالوا هذا على سبيل السخرية فعلى أنهم لا يرون أن هذا من التطهر والتنزه، وذلك أنهم لما فسدت فطرهم صاروا يرون أن هذا هو عين الذوق والكمال، فزُين لهم سوء عملهم، كما هو مشاهد الآن في بلاد لا تعرف الله -عز وجل- حيث تجد أنه يُقر للمرأة في الكنيسة أن تعاشر المرأة، وللرجل أن يتزوج الرجل، وهذا في غاية القبح والمسخ، وفي البلاد التي لا يعترف لهم بذلك بصورة رسمية يخرجون بالملايين بمظاهرات حاشدة يطالبون بحقوقهم كما يزعمون، بل قد تجد بعض رؤساء الدول الكبار في أيام الانتخابات يزورون هؤلاء في مقارهم ويعدونهم بأن يعترفوا بحقوقهم وما أشبه ذلك، وهذا يدل على أن هؤلاء يمثلون وزناً وثقلاً في المجتمع، وأنهم أعداد كبيرة هائلة لا يستهان بها.

وأما الذين يتعاطون هذا الأمر في تلك المجتمعات فحدث ولا حرج حيث يقعون على كل شيء ويقع عليهم كل شيء، حتى الكلاب وغير الكلاب، ويقع الرجل على ابنته، وهكذا هي الفطَر الممسوخة، نسأل الله العافية.

قامت مظاهرة في إحدى الولايات الأمريكية التي تنتشر فيها المخدرات وهذه الولاية عُرف أهلها بالشر والشراسة والفساد حيث حكى ذلك رجل من المسلمين حضر إلى تلك الولاية ونزل في فندق وهو في غاية التوجس والخوف، فسمع جلبة بعد يوم، فأطل وإذا بمظاهرة عارمة كبيرة لمجموعة من الشواذ تحمل أعلام جميع الدول وتحمل لافتات، ثم سمع جلبة في ناحية أخرى وإذا هم بعض من يحملون الأعلام، فحمله الفضول على النزول، فلما وصل إذا بأناس من المسلمين ينازعونهم علم "لا إله إلا الله" ويقولون: لا تحملونه، وهم يقولون: بل نحمله، وهم يحتجون في هذه المظاهرة على جميع الدول لماذا لا تقر هذا الأمر رسمياً، فالله المستعان.

{فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ} **[(٨٣ -٨٤) سورة الأعراف].**

يقول تعالى: فأنجينا لوطاً وأهله، ولم يؤمن به أحد منهم سوى أهل بيته فقط، كما قال تعالى: {فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ} [(٣٥ -٣٦) سورة الذاريات].

وهذا مما يستدل به على أن لوطاً -صلى الله عليه وسلم- خاطبهم بالتوحيد وأن جميع الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- دعوا إلى التوحيد، فالله -تبارك وتعالى- ما أرسل من رسول إلا أوحى إليه: **{أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ}** [(٢٥) سورة الأنبياء] فهذه دعوة جميع الرسل، وقوم لوط ممن لم يكونوا على التوحيد، فهاجر لوط -صلى الله عليه وسلم- إلى تلك الناحية ودعا الناس إلى الله -تبارك وتعالى- فكونه لم يذكر في دعوته أنه دعاهم إلى التوحيد لا يعني أنه لم يوجه ذلك إليهم أو أنهم كانوا موحدين، وإنما ذُكروا بهذه الشناعة التي لم يسبقوا إليها.

هذا هو الجواب على قول من قال من أهل العلم: إنهم قد يكونون ممن لم يقع لهم شرك، فهذا القول فيه نظر؛ وإلا فمن أين تعلموا التوحيد؟.

إلا امرأته فإنها لم تؤمن به بل كانت على دين قومها تمالئُهم عليه وتُعْلمهم بمن يقدم عليه من ضيفانه بإشارات بينها وبينهم.

هذه هي خيانة امرأة لوط، فالله -عز وجل- قال: **{فَخَانَتَاهُمَا}** [(١٠) سورة التحريم] يعني امرأة نوح وامرأة لوط، فالخيانة المقصود بها أنها كانت تدل على أضيافه، ولا يجوز بحال من الأحوال أن تحمل الخيانة على الفجور والفاحشة وذلك أنه ما خانت امرأة نبي قط، فالله -عز وجل- يحفظ عرض أنبيائه ويصونه؛ لأن ذلك لو وقع فإنه يرجع إلى النبي فيدنس عرضه بهذا، فهذا لا يجوز بحال من الأحوال.

ولهذا لما أُمر لوط -عليه السلام- ليسري بأهله أُمر ألا يعلمها ولا يخرجها من البلد، ومنهم من يقول: بل اتبعتهم فلما جاء العذاب التفتت هي فأصابها ما أصابهم، والأظهر أنها لم تخرج من البلد ولا أعلمها لوط بل بقيت معهم، ولهذا قال هاهنا: {إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ} [(٨٣) سورة الأعراف] أي: الباقين، وقيل: من الهالكين، وهو تفسير باللازم.

لفظة "غبَر" هي من الأضداد، فتأتي بمعنى ذهب وتأتي بمعنى بقي، فقوله تعالى: **{إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ}** [(٨٣) سورة الأعراف]، يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله -: أي الباقين، وهذا هو المعنى المشهور -أي أن معنى الغابرين: الباقين - فالذين فسروه بالباقين منهم من قال: أي من المعمرين، كما قاله أبو عبيدة معمر بن المثنى، وذكره كبير المفسرين ابن جرير لكنه لم يرجحه وإنما قال: قيل من الباقين، أي أنها بقيت زماناً طويلاً قبل نزول العذاب، والله -عز وجل - قال: **{إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ}** [(١٧١) سورة الشعراء] فهي عاشت مدة طويلة، ثم جاء العذاب فهلكت، هكذا قال بعضهم، وأحسن من هذا -والله تعالى أعلم - أن يقال: إن المراد بقوله: **{إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ}** [(٨٣) سورة الأعراف] أي: كانت من الباقين في العذاب فلم تنجُ منه، وعلى المعنى الآخر يقال: كانت من الذاهبين أي: من الهالكين.

قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله -:**"وهو تفسير باللازم"** وذلك أن معنى ذهب هو أحد المعنيين للفظة "غبر"، وهذا من المشترك الذي يحمل المعاني المتضادة، والحاصل أن المشترك يجوز حمله على معنييه أو معانيه ما لم يوجد مانع يمنع من هذا، وهذا الذي ذكره الشافعي -رحمه الله - في "الرسالة" وذكره جماعة من أهل العلم وهو الراجح من أقوال الأصوليين، أي أنه يجوز حمل المشترك على معنييه، وفي هذا الموضع يمكن حمل المشترك على معنييه فيقال: **{مِنَ الْغَابِرِينَ}** [(٨٣) سورة الأعراف] أي من الباقين في العذاب الذين ذهبوا وهلكوا من الهالكين.

فقول ابن كثير -رحمه الله -: إن هذا من التفسير باللازم معناه أنها بقيت في العذاب ويلزم من ذلك أنها هلكت، وبهذا الاعتبار لا حاجة إلى الترجيح بين هذين المعنيين، والله أعلم.

وقوله: {وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا} [(٨٤) سورة الأعراف] مفسر بقوله: {وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ} [(٨٢ -٨٣) سورة هود].

وهذا السجِّيل المنضود مفسر أيضاً بقوله -تبارك وتعالى -: **{حِجَارَةً مِّن طِينٍ}** [(٣٣) سورة الذاريات] فالسجيل هو الطين.

ولهذا قال: {فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ} [(٨٤) سورة الأعراف] أي: انظر يا محمد كيف كان عاقبة من يجترئ على معاصي الله -عز وجل - ويكذب رسله.

وروى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما - قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم -: ((من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به))[3].

العلماء اختلفوا في عقوبة من فعل ذلك، فبعضهم قال: يلقى من أعلى بناء ثم يتبع بالحجارة، كما فعل الله -عز وجل - بهم حيث رفعهم ثم قلب عليهم القرى ثم أتبعهم بالحجارة، وقال بعضهم غير ذلك، والراجح هو ما ورد في هذا الحديث، أي يقتل الفاعل بهذه الطريقة، والمفعول به إذا كان راضياً فإنه يقتل بالسيف، ولا يفرق في هذا الأمر بين بكر ولا ثيب، وقد جاء في الحديث الآخر عن ابن عباس –رضي الله عنهما - أيضاً

[3] - أخرجه أبو داود في كتاب الحدود - باب فيمن عمِل عمَل قوم لوط (٤٤٦٤) (ج ٤ / ص ٢٦٩) والترمذي في كتاب الحدود – باب حد اللوطي (١٤٥٦) (ج ٤ / ص ٥٧) وابن ماجه في كتاب الحدود – باب من عمِل عمَل قوم لوط (٢٥٦١) (ج ٢ / ص ٨٥٦) وأحمد (٢٧٣٢) (ج ١ / ص ٣٠٠) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٢٤٢٢).

أن من وقع على بهيمة قتل وقتلت البهيمة، وقد ذكر بعض أهل العلم أن الحكمة من قتل البهيمة مع أنه لا ذنب لها أنها تُذكِّر بهذا الفعل القبيح، فمن رآها تذكر هذه الفاحشة، والله تعالى أعلم.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأعراف (١١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى - في تفسير قوله تعالى: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [(٨٥) سورة الأعراف].

قال محمد بن إسحاق: هم من سلالة مدين بن مديان بن إبراهيم، وشعيب هو ابن ميكيل بن يشجر، قال: واسمه بالسريانة يثرون، قلت: مدين تطلق على القبيلة وعلى المدينة، وهي التي بقرب مَعَان من طريق الحجاز، قال الله تعالى: {وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ} [(٢٣) سورة القصص] وهم أصحاب الأيكة كما سنذكره إن شاء الله وبه الثقة.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله: **"قال ابن إسحاق: "هم من سلالة مدين بن مديان بن إبراهيم، وشعيب هو ابن ميكيل بن يشجر"** قد ذكرتُ من قبل أن هذه الأسماء وقع فيها تحريف تارة بسبب الطباعة، وتارة بسبب آخر، والله تعالى أعلم، وهذه أسماء أعجمية في الغالب وحينما حولت إلى اللغة العربية وقع فيها شيء من الاختلال، والعرب لا يدققون في نقل الأعجمية، وعلى كل حال يبدو أن أكثر الأخطاء كانت بسبب النقَلة وما يقع من التصحيف في الكتب، والله تعالى أعلم، والأسماء التي مرت في أنساب الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام - وأمم الأنبياء إذا نظرت في المصادر وجدت إختلافاً كثيراً.

وهنا يقول: **"وشعيب هو ابن ميكيل"** وفي بعض المصادر ميكائيل، فقد يكون حصل تحريف، وفي تفسير ابن جرير قال كما هنا: "ابن يشجر" وفي البداية والنهاية بالنون "يشجن" وفي القرطبي "يشجر" وفي بعض المصادر بالباء "يشجب" وهكذا كلما تتبعت تجد أشياء لا تخرج معها بنتيجة في الغالب.

وبعضهم يقول في اسمه غير هذا، فيقول: هو شعيب بن عيفاء بن ثويب بن مدين بن إبراهيم، وبعضهم يقول: شعيب بن حُرّة بن يشجب بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق، وبعضهم يقول: شعيب بن صفوان بن عيفاء ين ثابت بن مدين بن إبراهيم، فالله أعلم.

{قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} [(٨٥) سورة الأعراف] هذه دعوة الرسل كلهم.

{قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ} أي: قد أقام الله الحجج والبيِّنات على صدق ما جئتكم به.

ثم وعظهم في معاملتهم الناس بأن يوفوا المكيال والميزان ولا يبخسوا الناس أشياءهم أي: لا يخونوا الناس في أموالهم ويأخذوها على وجه البخس، وهو نقص المكيال والميزان خفية وتدليساً.

الله -تبارك وتعالى- يقول: {فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ} فالكيل مصدر والميزان اسم آلة، فعطَف اسم الآلة –الميزان- على المصدر، فما قال: فأوفوا المكيال والميزان، ولا قال: أوفوا الكيل والوزن، فيكون عطْف اسم على اسم، أو مصدر على مصدر، وإنما قال: {فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ} فبعض أهل العلم يقول: المقصود بالكيل المكيال فيكون هذا من قبيل عطف الاسم على الاسم، وبعضهم يعكس فيقول: الميزان يقصد به الوزن، فالله تعالى أعلم.

كما قال تعالى: {وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ} [(١) سورة المطففين] إلى قوله: {لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [(٦) سورة المطففين].

قال لهم: {فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ} [(٨٥) سورة الأعراف] والحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا يقول: ولا يبخسوا الناس أشياءهم أي: لا يخونوا الناس في أموالهم، ويأخذوها على الوجه البخس.

والبخس هو النقص، ويكون بأي صورة من الصور التي يقع بها، ومن ذلك العبث بالموازيين والمكاييل كالذي ينقص ما يكيله للناس أو يزنه لهم، قال تعالى: {وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ} [(١-٣) سورة المطففين] فهم ينقصون حينما يكيلون للناس تارة بتثقيلها وبالإخلال بها أو بأي لون من الحيل التي لا يطلع عليها الناس، ويكون بخس الناس أشياءهم بالاحتيال عليهم لأخذ ما في أيديهم بدون ما يستحقه من الثمن، كالتزهيد فيه، وعيبه وذمِّه أو غير ذلك مما يُخدع به صاحب السلعة، كأن يقال له: هذه لا تساوي شيئاً، أو هذه لا يرغب بها أحد، أو هذه فيها عيوب، فمن فعل ذلك بقصد الحط من قيمتها فهذا من بخس الناس أشياءهم، ومِن بخس الناس أشياءهم أيضاً التجني عليهم بوصفهم بما ليس فيهم.

وحينما يكون الإنسان مبغضاً لآخر فيسلبه من كل المقومات في الدين والأخلاق، أو العلم أو العمل، أو غير ذلك، كأن يقول: فلان لا خير فيه؛ لأنه لا يحبه، فهذا من بخسه حقه، ومن ذلك أن يقول: فلان ليس من أهل العلم؛ لأنه يبغضه، وإذا أحب أحداً ولو كان دون ذلك بمراحل جعله علّامة ومحدثاً وأعطاه الأوصاف التي لا يستحق عُشْر معشارها، فكل هذا من بخس الناس أشياءهم، وكل ذلك مذموم، والله المستعان.

كما قال تعالى: {وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ} [(١) سورة المطففين] إلى قوله: {لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [(٦) سورة المطففين] وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، نسأل الله العافية منه.

ثم قال تعالى إخباراً عن شعيب -عليه السلام- الذي يقال له خطيب الأنبياء؛ لفصاحة عبارته وجزالة موعظته: {وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُواْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ * وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُواْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يْؤْمِنُواْ فَاصْبِرُواْ حَتَّى يَحْكُمَ اللّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ} [(٨٦-٨٧) سورة الأعراف].

ينهاهم شعيب -عليه السلام- عن قطع الطريق الحسي والمعنوي بقوله: {وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ} [(٨٦) سورة الأعراف] أي: تتوعدون الناس بالقتل إن لم يعطوكم أموالهم.

قال السدي وغيره: كانوا عشَّارين.

القطع الحسي معناه أنهم يقعدون في طريق الناس ويقطعون عليهم الطريق كقُطَّاع الطرق، ومن ذلك أخذهم المكوس من الناس.

قوله: **"كانوا عشَّارين"** يعني يأخذون العشر من أموال الناس الذين يجتازون تلك الناحية، وهذا كان يفعله أهل الجاهلية أيضاً، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال في المرأة التي زنت: ((لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس..))[1] فالمكوس بهذه المنزلة من الإثم.

يقول الحافظ -رحمه الله-: **"أي تتوعدون الناس بالقتل إن لم يعطوكم أموالهم"** وهذا صنيع قطاع الطرق، وأما قطع الطريق المعنوي فهو قوله: **{وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ}** [(٨٦) سورة الأعراف] أي أنهم يصدون الناس عن دين الله -عز وجل- ويحذرونهم من الإيمان بشعيب -عليه الصلاة والسلام- ولهذا قال: **{وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا}** [(٨٦) سورة الأعراف] أي: تريدون أن تكون الطريق مائلة عن الحق تابعة لأهوائكم وشهواتكم، هكذا كانوا يقطعون على الناس الطريق بهذا أو بهذا أو بالأمرين معاً.

وعن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وغير واحد: {وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ} [(٨٦) سورة الأعراف] أي: تتوعدون المؤمنين الآتين إلى شعيب -عليه السلام- ليتبعوه، والأول أظهر؛ لأنه قال: {بِكُلِّ صِرَاطٍ} وهو الطريق، وهذا الثاني هو قوله: {وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا} [(٨٦) سورة الأعراف].

في أول الكلام جمع الحافظ ابن كثير -رحمه الله- بين المعنيين حيث قال: **"ينهاهم شعيب -عليه السلام- عن قطع الطريق الحسي والمعنوي"** لكن قال هذا الكلام باعتبار الجملتين من قوله: **{وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ}** [(٨٦) سورة الأعراف] وإن كان قد حمل بعض أهل العلم قوله: **{وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ}** على الصراط المعنوي أي صرف الناس عن دين الله -عز وجل- فالآية تحتمل هذا، لكن الحافظ ابن كثير قال في أول كلامه: **"ينهاهم عن قطع الطريق الحسي والمعنوي"** ولا يقصد بهذا أن الجملة الأولى هي التي تحمل على المعنيين؛ لأن كلامه في النهاية واضح في الترجيح حيث قال: **"فنهاهم عن قطع الطريق الحسي بقوله: {وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ} [(٨٦) سورة الأعراف] والطريق المعنوي بقوله: {وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ} [(٨٦) سورة الأعراف]"** وهذا أحسن، والله تعالى أعلم؛ لئلا تكون الجملة الثانية من قبيل التكرار؛ لأن قطع الطريق المعنوي إذا كان مضمناً في الجملة الأولى فما معنى الجملة الثانية: **{وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ}**؟ [(٨٦) سورة الأعراف]

من هنا كان الأحسن أن تحمل الأولى على قطع الطريق الحسي بأخذ المكوس أو سلب أموال الناس بالقوة، والجملة الثانية معناها قطع الطريق المعنوي، والله أعلم.

وهذا الثاني هو قوله: {وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا} [(٨٦) سورة الأعراف] أي: وتودون أن تكون سبيل الله عوجاً مائلة.

هذه الآية هي كقول الله -عز وجل-: **{وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيمًا}** [(٢٧) سورة النساء]، وبعض أهل اللغة -كالزجَّاج- يقول: إنّ "عِوَج" -بالكسر- يكون في المعاني و"عَوَج" -بالفتح- يكون في الأمور المحسوسة، هكذا فرَّق بعض أهل اللغة بين المكسور والمفتوح.

---

[1] - أخرجه مسلم في كتاب الحدود - باب من اعترف على نفسه بالزنا (١٦٩٥) (ج ٣ / ص ١٣٢١).

{وَاذْكُرُواْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ} [(٨٦) سورة الأعراف] أي: كنتم مستضعفين لقلتكم، فصرتم أعزَّة لكثرة عددكم، فاذكروا نعمة الله عليكم في ذلك.

{وَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ} [(٨٦) سورة الأعراف] أي: من الأمم الخالية والقرون الماضية، وما حلَّ بهم من العذاب والنكال باجترائهم على معاصي الله وتكذيب رسله.

وقوله: {وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُواْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يْؤْمِنُواْ} [(٨٧) سورة الأعراف] أي: قد اختلفتم عليَّ {فَاصْبِرُواْ} [(٨٧) سورة الأعراف] أي: انتظروا {حَتَّى يَحْكُمَ اللّهُ بَيْنَنَا} [(٨٧) سورة الأعراف] أي: يفصل.

يعني أن الصبر المطلوب هنا ليس هو الصبر على الكفر، وإنما معناه انتظروا واحتبسوا حتى يأتي حكم الله فيفصل فيه بين الفريقين.

{وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ} [(٨٧) سورة الأعراف] فإنه سيجعل العاقبة للمتقين والدَّمار على الكافرين.

{قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ * قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ} [(٨٨ -٨٩) سورة الأعراف].

هذا خبر من الله تعالى عما واجهت به الكفار نبيه شعيباً -عليه السلام - ومن معه من المؤمنين في توعدهم إياه، ومن معه بالنفي عن القرية، أو الإكراه على الرجوع في ملتهم، والدخول معهم فيما هم فيه، وهذا خطاب مع الرسول والمراد أتباعه الذين كانوا معه على الملة.

قولهم: **{أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا}** [(٨٨) سورة الأعراف] هل العود الذي طالبوهم به هو عود إلى ما كانوا عليه من الكفر قبل الإيمان، وهل كان شعيب -عليه الصلاة والسلام - على الكفر قبل أن يُبعث في قومه نبياً رسولاً؟ أم أن العود هنا يحمل على معناه الآخر وهو الصيرورة؟، فيكون المعنى صيِروا كفاراً، باعتبار أن العود يفسر بمعنيين: الأول العود إلى الحال السابقة والثاني بمعنى الصيرورة.

من أهل العلم من يقول: إن الأنبياء كانوا على دين قومهم، وعلى هذا يقولون: إن إبراهيم -صلى الله عليه وسلم - حينما قال للكوكب **{هَذَا رَبِّي}** [(٧٦) سورة الأنعام] قاله: ناظراً لا مناظراً، إلا أن الأرجح أنه قال ذلك مناظراً، أي قال ذلك على سبيل التنزل ليبين بطلان قولهم.

وبعض أهل العلم قال: إن قولهم: **{أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا}** [(٨٨) سورة الأعراف] كان على سبيل التغليب، أي أنهم خاطبوا المجموع، فقوم شعيب ممن آمن معه كانوا قبلُ على دين قومهم، فتركوا دين قومهم لما دعاهم إلى الله، فالكفار طالبوهم بالرجوع إلى ما كانوا عليه، وعليه فلا يعني أن واحداً منهم -وهو شعيب -عليه الصلاة والسلام - كان كذلك وإنما خاطبوا المجموعة فغلّبوا أصحابه؛ لأنهم الأكثرية، فقالوا: **{أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا}** [(٨٨) سورة الأعراف] وهذا معنى كلام ابن كثير -رحمه الله - حيث قال: **"وهذا خطاب مع الرسول والمراد أتباعه الذين كانوا معه على الملة"** فالخطاب في قوله:**{لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا}** [(٨٨) سورة الأعراف] هو خطاب للجميع، لشعيب -عليه الصلاة والسلام - ومن

معه، فالعلماء قالوا: غُلّب الأتباع، وهذا على تفسير العود بمعنى الرجوع إلى الحال التي سبقت الحال الحاضرة.

ومن فسروا العود بمعنى الصيرورة قالوا: إن قوله: **{أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا}** [(٨٨) سورة الأعراف] أي: تصيرون إليها، كما تقول: عاد الخل خمراً أي صار خمراً وتقول: عاد الطين صخراً، وتقول: عاد الماء ثلجاً، وعاد الصبي شيخاً، وهكذا.

فالفعل "عاد" يأتي في اللغة لمعنيين كما ذكر ذلك الثعالبي في كتابه "فقه اللغة" حيث قال: إن هذا من خصائصها.

وهذا الموضع من القرآن هو أحد المواضع التي يتكلم العلماء فيها هل كان الأنبياء على دين قومهم أو لا؟ والذين يقولون: كانوا على دين قومهم يحتجون بمثل هذا الموضع، بل هو من أشهر المواضع التي يحتجون بها، ومن ذلك قصة إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- مع الكواكب.

والشنقيطي -رحمه الله- له كلام جيد حول هذه المسألة في أضواء البيان حيث أشار إشارة قصيرة لهذا المعنى، وتكلم بشكل أطول في مكان آخر.

قال -رحمه الله-: وفي هذه الآية الكريمة سؤال معروف مشهور؛ لأن ظاهر القرآن هنا أن شعيباً قد دخل في ملتهم سابقاً يوماً ما؛ لأن قولهم مخاطبين له: {أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا} [(٨٨) سورة الأعراف] **وقول شعيب مجيباً لهم: {قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللّهُ مِنْهَا} [(٨٩) سورة الأعراف] يدل بظاهره على أنه قد كان فيها سابقاً يوماً ما.**

وأكثر العلماء يقولون: إن الأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم- معادن وحيٍ ومحل الخير، والله يقول: {اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ} [(١٢٤) سورة الأنعام] **وفي القراءة الأخرى: (حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِه) [(١٢٤) سورة الأنعام] فلا يكفرون بالله؛ لأن فطرتهم التي ولدوا عليها لا يبدلها الله بالكفر لمكانتهم عنده، فبعض العلماء يقول: لو فرضنا أنهم وقع منهم بعض الشرك وأنابوا إلى الله فإنهم يصيرون إلى مثل حالهم قبله، وصار كأنه لم يكن.**

وأكثر الأصوليين وعلماء التفسير أن شعيباً لم يكن كافراً يوماً ما، ويجاب عن ظاهر الآية بجوابين:

أحدهما أن العرب تطلق لفظة "عاد" إطلاقين: أحدهما: عاد إلى أمر كان فيه سابقاً، والثاني تقول العرب: عاد كذا كذا، بمعنى صار إلى كذا من جديد، ومنه قولهم: عاد الطين خزفاً، وعاد الخل خمراً، ولا شك أن هذا الاستعمال موجود في "عاد" تقول العرب: عاد رجلاً فلان، أي صار إلى الرجولة، ولم يتقدمه وصف مماثل قبلها، ومنه بهذا المعنى قول الشاعر:

وربيته حتى إذا مـــا تركتـــه أخـــا ... القوم واستغنى عن المسح شـــاربه

وبالمحض حتى عاد جعداً عطنطنا ... إذا قام ساوى غارب الفعل غاربـــه

قالوا: معناه صار جعداً.

الوجه الثاني وبه قال غير واحد: أن نبي الله شعيباً كان معه جماعة من قومه آمنوا به، فالذين آمنوا به من قومه كانوا كفاراً على ملة قومهم، وهم عدد كثير وهو رجل واحد فعُبِّر باسم العدد الكثير وغلبوه على ذلك الواحد، والتزم معهم شعيب في هذا الخطاب تغليباً لقومه الأكثرين.

وظاهر كلام ابن جرير -رحمه الله - في تفسير هذه الآية الكريمة من سورة الأعراف ذاهباً أن شعيباً كان معهم سابقاً على ملتهم، وكذلك قال صريحاً عن إبراهيم -عليه السلام - في قوله: {فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي} [(٧٦) سورة الأنعام] **فنقل ابن جرير عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما -: أن إبراهيم كان يظن ربوبية الكوكب في ذلك الزمن، ونحن نقول: إن قوله في الخليل إبراهيم -عليه السلام - غلط محض لا شك فيه، وإنْ نسبه إلى ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما -؛ لأن الآيات القرآنية صرحت بأن إبراهيم لم يكن من المشركين، ونفى عنه الشرك في الكون الماضي، والكون الماضي يستغرق كل الزمن، كقوله: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}** [(٦٧) سورة آل عمران]**.**

قوله: {وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [(٦٧) سورة آل عمران] **نفى الشرك عن إبراهيم في الكون الماضي، والكون الماضي مستغرق، ومنه قوله تعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}** [(١٢٠) سورة النحل] **ونحو ذلك من الآيات، فنفْي هذا عن إبراهيم -عليه السلام - صريحٌ، ونفيه عن شعيب -عليه السلام - لم يقم دليل عليه في الصراحة كإبراهيم، وأقوال أهل العلم قد ذكرناها لكم الآن فيه، وهذا معنى قوله: {أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا}** [(٨٨) سورة الأعراف] **الملة: الشريعة والدين.**

وقوله: {أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ} [(٨٨) سورة الأعراف] **يقول: أوَ أنتم فاعلون ذلك ولو كنا كارهين ما تدعونا إليه؟**

الهمزة في قوله: **{أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ}** [(٨٨) سورة الأعراف] هي لإنكار ما طالبوهم به، أو إنكار وقوع ما طلبوا منهم من العود إلى ملتهم، والمعنى أوَ أنتم فاعلون ذلك ولو كنا كارهين؟ يعني أتخرجونا من قريتنا إن لم نعد في ملتكم؟

فإنا إن رجعنا إلى ملتكم ودخلنا معكم فيما أنتم فيه فقد أعظمنا الفرية على الله في جعل الشركاء معه أنداداً، وهذا تعبير منه عن أتباعه.

{وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ رَبُّنَا} [(٨٩) سورة الأعراف] **وهذا رد إلى المشيئة فإنه يعلم كل شيء، وقد أحاط بكل شيء علماً.**

ليس المقصود بقولهم: **{إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ رَبُّنَا}** [(٨٩) سورة الأعراف] أن الله -عز وجل - يشاء الكفر ديناً وشريعة، وإنما المقصود بالمشيئة هنا المشيئة الكونية؛ لأن الله -عز وجل - قال: **{إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ}** [(٧) سورة الزمر] فالله -تبارك وتعالى - لا يشاء وقوع الكفر ديناً -الإرادة الشرعية - وأما كوناً فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فلا يقع في الكون تحريكة ولا تسكينة إلا بمشيئته -تبارك وتعالى - قال الله تعالى: **{وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ}** [(١٣) سورة السجدة].

ومعنى قوله -تبارك وتعالى -: {إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ رَبُّنَا} [(٨٩) سورة الأعراف] -على قول أهل السنة وهو ما عبر به ابن جرير -رحمه الله - يعني إلا أن يكون سبق في علم الله أننا نعود فيه فلا بد من وقوع ذلك، أما بحسب ما نعتقده الآن وما نؤمن به فنقول: لا يصلح أن يقع منا الرجوع إلى الكفر موافقة لإرادتكم ودعائكم لنا، فنحن لن نفعل إلا أن يشاء الله ربنا، أي إذا كان سبق في علمه -تبارك وتعالى - أن يقع منا ذلك، فهو واقع لا محالة؛ لأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فما قدره الله -عز وجل - فلا بد أن يحصل.

{عَلَى اللّهِ تَوَكَّلْنَا} [(٨٩) سورة الأعراف] أي: في أمورنا ما نأتي منها وما نذر.

{رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ} [(٨٩) سورة الأعراف] أي: احكم بيننا وبين قومنا وانصرنا عليهم.

يقول: {وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ} [(٨٩) سورة الأعراف] الفُتاحة هي الحكومة، والفتح هو الحكم، والفاتح والفتاح هو الحاكم، وهي لغة لبعض العرب حيث يقولون للقاضي: فاتح، وفتاح، ويقال: تعال أفاتحك، يعني تعال أقاضِك.

وقوله: {افْتَحْ بَيْنَنَا} أي: احكم، والله -عز وجل - يقول: {إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءكُمُ الْفَتْحُ} [(١٩) سورة الأنفال] يعني إن تطلبوا الحكم بين الفريقين فقد جاءكم الفتح.

{وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ} [(٨٩) سورة الأعراف] أي: خير الحاكمين، فإنك العادل الذي لا يجور أبداً.

{وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ الْخَاسِرِينَ} [(٩٠-٩٢) سورة الأعراف].

يخبر تعلى عن شدة كفرهم وتمردهم وعتوهم وما هم فيه من الضلال، وما جبلت عليه قلوبهم من المخالفة للحق، ولهذا أقسموا وقالوا: {لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ} [(٩٠) سورة الأعراف] فلهذا عقَّبه بقوله: {فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ} [(٩١) سورة الأعراف].

أخبر تعالى هنا أنهم أخذتهم الرجفة وذلك كما أرجفوا شعيباً -عليه السلام - وأصحابه وتوعدوهم بالجلاء، كما أخبر عنهم في سورة هود فقال: {وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مَّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ} [(٩٤) سورة هود].

والمناسبة هناك -والله أعلم - أنهم لما تهكموا به في قولهم: {أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ} الآية [(٨٧) سورة هود] فجاءت الصيحة فأسكتتهم.

وقال تعالى إخباراً عنهم في سورة الشعراء: {فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [(١٨٩) سورة الشعراء]؛ وما ذاك إلا لأنهم قالوا له في سياق القصة: {فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاء} الآية [(١٨٧) سورة الشعراء] فأخبر أنه أصابهم عذاب يوم الظلة، وقد اجتمع عليهم ذلك كله فأخذهم عذاب يوم الظلة، وهي سحابة أظلتهم فيها شرر من نار ولهب ووهج عظيم، ثم جاءتهم صيحة من السماء ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم فزهقت الأرواح وفاضت النفوس وخمدت الأجسام.

هذا جمع لما ورد في الآيات التي تذكر عقوبتهم، حيث قال الله -عز وجل - هنا: {فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ} [(٩١) سورة الأعراف] وقال في سورة هود: {وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ} [(٩٤) سورة هود] أي صاح بهم الملك ورجفت بهم الأرض، والله تعالى أعلم.

وبالنسبة لقوله: {عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ} [(١٨٩) سورة الشعراء] من أهل العلم من يقول: إن شعيباً -صلى الله عليه وسلم - أرسل إلى قوم وقع لهم ذلك العذاب جميعاً، ومن ذلك أنهم أصابهم حر شديد ثم رأوا سحابة فذهبوا يستظلون تحتها، فوقع لهم العذاب يوم الظلة، فهو في قوم معينين.

ومن أهل العلم من يقول: إنه أرسل إلى طائفتين: هذه الطائفة التي أخذتهم الصيحة والرجفة، وطائفة أخذهم العذاب، أي ذلك الذي وقع لهم بما وصفه الله -عز وجل - بقوله: {عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ} [(١٨٩) سورة الشعراء] والإمام الشنقيطي -رحمه الله - له كلام في هذا.

يقول –رحمه الله -:

وفي هذه الآية الكريمة سؤال معروف مشهور عند العلماء وطلبة العلم، وهو أن الله في هذه الآية الكريمة من سورة الأعراف بيّن أن الذي أهلك الله به قوم شعيب رجفة، حيث قال: {فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ} [(٩١) سورة الأعراف] جاثمين أي: موتى. وكل واحد منهم منكب على وجهه لا روح في جسده، والجاثم الذي يلزم محلاً واحداً لربما كان على وجهه كما هو معروف، ومنه قول زهير في معلقته:

بها العينُ والآرامُ يمــشينَ خِلْفــةً وأطلاؤها ينهضنَ من كــل مَجْــثَمِ

المَجْثم: مكان الجثوم، وهو المكان الذي كان فيه منكباً على وجهه غالباً.

وهنا قال: إن سبب إهلاكهم بالرجفة، وصرَّح بسورة هود بأن سبب إهلاكهم صيحة، حيث قال: {وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ} [(٩٤) سورة هود].

وصرح في سورة الشعراء أن قوم شعيب أصحاب الظلة كان عذابهم في ظلة، المذكور في قوله: {فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [(١٨٩) سورة الشعراء]، تارة يعبّر عن سبب إهلاكهم بالرجفة، وتارة بالصيحة، وتارة بالظلة، فهذا هو وجه السؤال المعروف في هذه الآيات.

وحاصل الجواب: أن العلماء اختلفوا كما قدمنا، هل شعيب أرسل إلى أمة واحدة أو أرسل إلى أمتين؟ وكان قتادة -رحمه الله - في طائفة من العلماء يقولون: أرسل شعيب إلى أمتين، أرسل إلى مدين فأهلكم الله بالصيحة، وأرسل إلى أصحاب الأيكة بعد أن هلك أصحاب مدين فأهلكم الله بالظلة، وهذا القول قال به بعض العلماء، واستدلوا باختلاف نوع العذاب، وفي أن الله قال في أهل مدين: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا} [(٨٥) سورة الأعراف] ولم يقل في أصحاب الأيكة أخاهم، وأكثر العلماء على أن أهل مدين هم أهل الأيكة، وأنها أمة واحدة، وأنهم نسبوا إلى جدهم مدين بن إبراهيم، وأنه كانت لهم أيكة غيضة ملتفة من الشجر يعبدونها، وبعض المؤرخين يقول: كانت أيكتهم من شجر الدوم، والله تعالى أعلم.

الجواب عن هذا هو ما قال به غير واحد، وممن ألمّ به ابن كثير -رحمه الله - في تفسيره، أن كل ذلك وقع لقوم شعيب، وأن أصحاب مدين هم أصحاب الأيكة، والاسم مختلف فيهما والمسمى واحد.

قوله: **"ألمَّ به"** يعني تعرض له.

قالوا: لما أراد الله أن يهلكهم صاح بهم الملك صيحة شديدة ولهذا قيل: {وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ} [(٩٤) سورة هود] فلما صاح الملك اهتزت الأرض بهم هزاً عنيفاً، ورجفت بهم رجفة قوية، فصار هو معنى

قوله: {فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ} [(٩١) سورة الأعراف] ثم إن الله أضرم عليهم الظلة ناراً فاحترقوا، فاجتمعت لهم الصيحة من أعلى، والرجفة من أسفل، وأحرقهم الله، واجتمع لهم ذلك كله، والعياذ بالله تعالى.

قال بعض العلماء: وممن ذكره ابن كثير: أنهم كان لهم كاهنان أحدهما يسمى: سُميراً والثاني يسمى: عمران بن شداد، وأن رجلاً منهم يقال له: عمر بن جلهاء نظر إلى الأيكة ورأى فيها العذاب، فأطلعه الله عليه، وأنه كان يقول لهم أبياته المعروفة، يقول لهم:

يا قوم إن شـعيباً مرسـل فـذروا	**عنكم سُميراً وعمران بـن شـداد**
إني أرى غَبْية يا قوم قـد طلعـت	**تدعو بصوت على صَمّانة الـوادي**
وإنكم لن تروا فيهـا ضـحى غـد	**إلا الـرقيم يمـشي بـين أنجـاد**

والرقيم كلبهم، يقول: في ضحى غد لن يُرى إلا الكلب وحده يمشي؛ لكونهم قد أبادهم الله.

وزعم جماعة من المؤرخين: أن أبْجد وهوّز وحُطِّي وكَلَمُن وسَعْفص وقَرْشت، أنها أسماء ملوك مدين الذين أرسل إليهم شعيب، وأن وقت إهلاكهم كان في ذلك الوقت ملك مدين المسمى كلمن، وأنه لما أهلكه الله قالت ابنته -وبعضهم يقول: أخته - تبكيه:

كَلَمُـن قـدَّ هـد ركنـي	**هلكـه وسـط المحلـة**
سـيد القـوم أتـاه الـ	**حتـف نـاراً وسـط ظُلـة**
جُعلـت نـاراً علـيهم	**دارهـم كالمُـضْمَحِلّة**

وعلى كل حال فقد أهلكهم الله ودمرهم بالرجفة والصيحة والإحراق بعذاب يوم الظلة.

{وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ} [(٩٠) سورة الأعراف] أخبر تعالى هنا أنهم أخذتهم الرجفة وذلك كما أرجفوا شعيباً وأصحابه وتوعدوهم بالجلاء كما أخبر عنهم في سورة هود فقال: {وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مَّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ} [(٩٤) سورة هود] ثم قال تعالى: {كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا} [(٩٢) سورة الأعراف] أي: كأنهم لما أصابتهم النقمة لم يقيموا بديارهم التي أرادوا إجلاء الرسول وصحبه منها.

يقول الله تعالى: **{كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا}** [(٩٢) سورة الأعراف] يقال: غنيت بالمكان أي بقيت فيه أو مكثت فيه أو حللت فيه أو نزلت فيه، فهذه المادة "الغَنَى" يعني المكث والحلول بالمكان، تقول: غنينا بأرض كذا، يعني مكثنا فيها، فقوله: **{كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا}** [(٩٢) سورة الأعراف] يعني أنها صارت خاوية وخالية كأنهم لم ينزلوا فيها، وذلك أنها صارت لا يمشي فيها أحد، ولا يعمر دورها أحد، وأسواقها فارغة بعد أن أهلكهم الله -تبارك وتعالى -.

ومن مادة "الغنى" يقال: الغَناء، يعني النفع، فيقال: فلان ليس به غَناء، يعني ليس به نفع، ويقال: فلان لا يغني عنك، والغِنَى هو كثرة العرض، نقول: فلان غَنِيّ، والغناء -بالمد - هو الطرب الخبيث.

ثم قال تعالى مقابلاً لقيلهم: {الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ الْخَاسِرِينَ * فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ} [(٩٢ -٩٣) سورة الأعراف] أي: فتولى عنهم شعيب

-عليه السلام - بعد ما أصابهم من العذاب والنقمة والنكال، وقال مقرعاً لهم وموبخاً: {يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ} [(٩٣) سورة الأعراف**] أي: قد أديت إليكم ما أرسلت به فلا آسف عليكم، وقد كفرتم بما جئتكم به، فلهذا قال: {فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ} [**(٩٣) سورة الأعراف**].**

هذا الخطاب من شعيب لقومه يشبه خطاب نبي الله صالح لقومه، حيث قال الله تعالى: **{فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ}** [(٧٩) سورة الأعراف].

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأعراف (١٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله - في تفسير قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ * ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ آبَاءنَا الضَّرَّاء وَالسَّرَّاء فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ} [(٩٤ -٩٥) سورة الأعراف].

يقول تعالى مخبراً عما اختبر به الأمم الماضية الذين أرسل إليهم الأنبياء بالبأساء والضراء، يعني بالبأساء ما يصيبهم في أبدانهم من أمراض وأسقام، والضراء ما يصيبهم من فقر وحاجة ونحو ذلك.

{لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ} أي: يدْعون ويخشعون ويبتهلون إلى الله تعالى في كشف ما نزل بهم، وتقدير الكلام أنه ابتلاهم بالشدَّة ليتضرعوا فما فعلوا شيئاً من الذي أراد منهم، فقلب عليهم الحال إلى الرخاء ليختبرهم فيه، ولهذا قال: {ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ} [(٩٥) سورة الأعراف] أي: حوَّلنا الحالة من شدة إلى رخاء، ومن مرض وسقم إلى صحة وعافية، ومن فقر إلى غنىً؛ ليشكروا على ذلك فما فعلوا.

وقوله: {حَتَّى عَفَواْ} أي: كثروا وكثرت أموالهم وأولادهم، يقال: عفا الشيء إذا كثر.

{وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ آبَاءنَا الضَّرَّاء وَالسَّرَّاء فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ} [(٩٥) سورة الأعراف].

يقول تعالى: ابتليناهم بهذا وهذا؛ ليتضرعوا وينيبوا إلى الله فما نَجَع فيهم لا هذا ولا هذا ولا انتهوا بهذا ولا بهذا، بل قالوا: قد مسَّنا من البأساء والضراء، ثم بعده من الرخاء مثل ما أصاب آباءنا في قديم الزمان والدهر، وإنما هو الدهر تارات وتارات، بل لم يتفطنوا لأمر الله فيهم ولا استشعروا ابتلاء الله لهم في الحالين، وهذا بخلاف حال المؤمنين الذين يشكرون الله على السراء ويصبرون على الضراء، كما ثبت في الصحيح: ((عجباً للمؤمن لا يقضي الله له قضاءً إلا كان خيراً له، إن أصابته ضراءُ صبر فكان خيراً له، وإن أصابته سراءُ شكر فكان خيراً له))[١] فالمؤمن من يتفطن لما ابتلاه الله به من الضراء والسراء، ولهذا عقب هذه الصفة بقوله: {فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ} [(٩٥) سورة الأعراف] أي: أخذناهم بالعقوبة بغتة أي: على بغتة وعدم شعور منهم، أي: أخذناهم فجأة كما في الحديث: ((موت الفجأة رحمة للمؤمن، وأخذة أسف للكافر))[٢].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

---

[1] - أخرجه مسلم في كتاب الزهد والرقائق - باب المؤمن أمره كله خير (٢٩٩٩) (ج ٤ / ص ٢٢٩٥) ولفظه: ((عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له)).

[2] - أخرجه أحمد (٢٥٠٨٦) (ج ٦ / ص ١٣٦) ولفظه: ((راحة للمؤمن وأخذة أسف للفاجر)) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع برقم (٥٨٩٦).

فيقول الله -تبارك وتعالى -: {ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَواْ} [(٩٥) سورة الأعراف] لفظة "عفوا" من الأضداد فتأتي بالمعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله - وهو المراد بقوله: {حَتَّى عَفَواْ} أي: كثرت أموالهم وكثروا وحصل لهم الرخاء والقوة بعد الضعف، وما أشبه ذلك.

وتأتي "عفا" بضد هذا المعنى، أي بمعنى ذهب واندرس، تقول: عفت آثارهم أي: اندرست، وعفت ديارهم إذا ذهبت وتلاشت.

وهؤلاء الأقوام قلّبهم الله -عز وجل - بين هذا وهذا، فقالوا: هذه أمور لا علاقة لها بالأعمال، وإنما تحصل للناس جيلاً بعد جيل، فالدهرُ قُلَّب، ولا علاقة لهذا الأمر بإيمان أو كفر وطاعة أومعصية، وهذا ما يقوله أكثر الخلق اليوم من الأمم المكذبة الكافرة، بل إنهم يعاقِبُون من أضاف تلك المَثُلات والعقوبات التي تنزل هنا وهناك إلى أعمال الناس، وأنه بسبب جرمهم وكفرهم وعتوهم على الله -عز وجل -، ويتندرون بهذا ويتهكمون به، والله المستعان.

فالحاصل أن هؤلاء يقولون: هذا كله وقع لآبائنا وما حصل لهم ليس بعذاب وإنما هي أمور تعرض للخلق لا تتعلق بأعمالهم.

{وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ * أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَآئِمُونَ * أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ} [(٩٦ -٩٩) سورة الأعراف].

يخبر تعالى عن قلة إيمان أهل القرى الذين أرسل فيهم الرسل، كقوله تعالى: {فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ} [(٩٨) سورة يونس] أي: ما آمنت قرية بتمامها إلا قوم يونس، فإنهم آمنوا وذلك بعد ما عاينوا العذاب، كما قال تعالى: {وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ} [(١٤٧ -١٤٨) سورة الصافات] وقال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ} الآية [(٣٤) سورة سبأ].

وقوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ} [(٩٦) سورة الأعراف] أي: آمنت قلوبهم بما جاءت به الرسل، وصدقت به واتبعوه {وَاتَّقَواْ} بفعل الطاعات وترك المحرمات {لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ} [(٩٦) سورة الأعراف] أي: قطر السماء ونبات الأرض.

قال تعالى: {وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ} [(٩٦) سورة الأعراف] أي: ولكن كذبوا رسلهم فعاقبناهم بالهلاك على ما كسبوا من المآثم والمحارم.

ثم قال تعالى مخوِّفاً ومحذِّراً لمخالفة أوامره والتجرؤ على زواجره: {أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى} [(٩٧) سورة الأعراف] أي الكافرة {أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا} أي: عذابنا ونكالنا {بَيَاتاً} ليلاً {وَهُمْ نَآئِمُونَ} [(٩٧) سورة الأعراف].

{أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ} [(٩٨) سورة الأعراف] أي: في حال شغلهم وغفلتهم.

{أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ} [(٩٩) سورة الأعراف] أي: بأسه ونقمته وقدرته عليهم وأخذه إياهم في حال سهوهم وغفلتهم.

{فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ} [(٩٩) سورة الأعراف] ولهذا قال الحسن البصري -رحمه الله -: المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق وجلٌ خائف، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن.

يقول الله -تبارك وتعالى -: **{وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ}** [(٩٦) سورة الأعراف] فسَّر الحافظ ابن كثير بركات السماء بقطر السماء، وبركات الأرض بنبات الأرض، والمعنى أعم وأوسع من ذلك -والله تعالى أعلم - فبركات السماء لا تختص بالمطر وبركات الأرض لا تختص بالنبات، والله -عز وجل - أخبر أنه أنزل على بني إسرائيل المنَّ والسلوى.

وعلى كل حال فإن البركة من الله -عز وجل -، فإذا أنزل الله البركة في شيء للإنسان مِن ولدٍ وزوجة ومتاع ومال وزرع وضرع وغير ذلك فإنه يحصل به مقصوده ومطلوبه وزيادة، فيحصل له الانتفاع، فبركات الأرض لا تختص بالنبات وهكذا بركات السماء لا تختص بالمطر.

وفي قوله -تبارك وتعالى -: **{أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ}** [(٩٩) سورة الأعراف]، يُلاحظ أن هذه الصفة لم تأتِ على سبيل المقابلة، مع أنه في بعض المواضع تأتي كذلك، كقوله تعالى: **{وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا}** [(٥٠) سورة النمل] وكقوله تعالى: **{وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ}** [(٣٠) سورة الأنفال]، وكثير من أهل العلم يقولون: إن هذه الصفات تنسب إلى الله -عز وجل - وتضاف إليه إذا كان ذلك في مقابل فعل الكافرين، وهذا القول يرده هذا الموضع من كتاب الله -عز وجل - **{أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ}** [(٩٩) سورة الأعراف] حيث لم يجعل مكره في مقابل مكرهم.

وهكذا الكيد تارة يأتي في مقابلة كيدهم كقوله تعالى: **{إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا}** [(١٥-١٦) سورة الطارق]، وقد يأتي بغير المقابلة كقوله تعالى: **{وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ}** [(١٨٣) سورة الأعراف].

والمقصود أن هذه الصفات ثابتة لله -عز وجل - على ما يليق بجلاله وعظمته، فنحن نثبت لله -تبارك وتعالى - ما أثبته لنفسه أو أثبته له رسوله -صلى الله عليه وسلم - من غير تكييف ولا تمثيل ولا تحريف ولا تعطيل، ولكن مثل هذه الصفات لا تضاف إلى الله -عز وجل - على سبيل الإطلاق، فلا يقال: إن الله -عز وجل - كائد، أو ماكر، كما يقال: سميع وبصير وعليم وحكيم؛ لأن السميع والبصير والعليم والحكيم والرزاق وما أشبه ذلك هي أوصاف كمال على سبيل الإطلاق، وأما هذه الصفات فإنها تكون كمالاً في المحل الذي تكون كمالاً فيه، وتكون نقصاً في غير ذلك، ولذلك فإنها تطلق على الله -عز وجل - مقيدة، والله تعالى أعلم.

وبعضهم يعبر بأن هذا من قبيل المشاكلة، وقد تجد هذا القول عند بعض طلاب العلم ممن ينتسب إلى السنة، والحقيقة أن المشاكلة نوع من المجاز، والذين يقولون: مشاكلة ممن يُقرأ في كتبهم يقصدون أنه لا حقيقة لهذه الصفات، أي أنه عبر بعبارة لا حقيقة لها فيما أطلقت فيه، وإنما ذكرت للمشاكلة اللفظية كما قال القائل:

قالوا اقترح شيئاً نُجد لك طبخه ... قلت اطبخوا لي جبّة وقميصاً

قالوا هذه مشاكلة، فالجبة والقميص ما تطبخ، لكن هم عبروا بالطبخ، فلما أراد أن يعْلمهم أنه ليس بحاجة إلى طعام وإنما بحاجة إلى لباس، شاكَل عبارتهم وقال: اطبخوا لي جبة وقميصاً.

فهؤلاء الذين يقولون هذا، يقولون: الله -عز وجل - لما قال: **{وَيَمْكُرُونَ}** [(٣٠) سورة الأنفال] استعمل نفس اللفظة فيما يتعلق به -عز وجل - فقال: **{وَيَمْكُرُ اللّهُ}** ومثلها قوله تعالى: **{إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا}**

[(١٥-١٦) سورة الطارق] فسماه كيداً مع أنه لا يمتّ إلى هذا بصلة، لكن يقال لهم: وماذا تقولون في قوله تعالى: {وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ} [(١٨٣) سورة الأعراف] وماذا يقولون في هذه الآية: {أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ} [(٩٩) سورة الأعراف] أين المشاكلة التي يزعمون؟ لا توجد مشاكلة ولا يستطيعون أن يقولوا: فيها مشاكلة.

والحاصل أن أهل السنة يقولون: هذه الأوصاف ثابتة لكن حيث يكون ذلك لائقاً ومناسباً وكمالاً، ومعلوم أن هذا قد يكون كمالاً وقد يكون نقصاً، فلو أن أحداً مفسداً ضارباً في الفساد، يسفك الدماء، وينتهك الأعراض، ويؤذي الناس غاية الأذية، ولا يبالي بهم، فجاء من استدرجه حتى أوقعه في سيئ عمله واستراح الناس منه ومن شره، ألا يُحمد هذا الذي استدرجه؟ هذا الاستدراج كمال في هذه الحالة فيُحمد صاحبه، لكن الذي يمكر بالناس لينتهك أعراضهم ويسفك دماءهم ويوقعهم في حبائله من غير جرم اقترفوه، فمثل هذا لا يحمد، بل هذا ماكر وصاحب حيلة، وهذا نقص في حقه.

والخلاصة أن من الصفات ما تكون كمالاً بإطلاق، فهذه تطلق على الله -عز وجل- إن كانت قد وردت في الكتاب والسنة، وقد يقال هذا الوصف أو ذاك على سبيل الخبر، ومعلوم أن الخبر أوسع من باب التسمية والوصف، فالعليم مثلاً اسم يتضمنه صفة كمال، والحكيم والرزاق والقدير والرحيم وما أشبه ذلك، هذه كلها أوصاف كمال تقال لله -عز وجل-.

وهناك أوصاف تكون كمالاً بالنسبة للمخلوق ونقصاً بالنسبة للخالق، مثل الولد فإنه كمالٌ بالنسبة للمخلوق ويكون نقصاً بالنسبة للخالق، فلا تضاف إلى الله -عز وجل- وهذا يسمى الكمال النسبي، أي بالنسبة للمخلوق كمال وبالنسبة للخالق نقص، ومن أمثلة ذلك النوم فهو بالنسبة للمخلوق كمال والذي لا ينام مريض، لكن هذا لا يقال على الله -عز وجل-؛ فهو -سبحانه وتعالى- كما قال: {لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ} [(٢٥٥) سورة البقرة].

وهناك أوصاف تكون كمالاً في موضع وتكون نقصاً في موضع آخر كهذه التي مرت معنا آنفاً، فهذه لا تقال على الله بإطلاق ولا يشتق منها اسم له -تبارك وتعالى- والله أعلم.

{أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاء أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ} [(١٠٠) سورة الأعراف].

قال ابن عباس -رضي الله عنهما- في قوله: {أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا} [(١٠٠) سورة الأعراف]: أولم نبيّن لهم أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم؟، وكذا قال مجاهد وغيره.

وقال أبو جعفر بن جرير في تفسيرها: يقول تعالى: أولم نبيّن للذين يُستخلفون في الأرض من بعد إهلاك آخرين قبلهم كانوا أهلها فساروا سيرتهم وعملوا أعمالهم وعتوا {أَن لَّوْ نَشَاء أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ}؟ [(١٠٠) سورة الأعراف].

الصواب أن عبارة ابن جرير بالياء هكذا **"أولم يَبِن للذين يستخلفون في الأرض من بعد إهلاك آخرين قبلهم كانوا أهلها فساروا سيرتهم وعملوا أعمالهم وعتوا {أَن لَّوْ نَشَاء أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ}؟ [(١٠٠) سورة الأعراف]".**

والمعنى ألم يتبين لهؤلاء الذي حلوا مكان المعذبين وتظهر لهم قدرتنا على إهلاكهم وإفنائهم والقضاء عليهم؟، هذا هو المراد، والله تعالى أعلم.

وقال أبو جعفر بن جرير في تفسيرها: يقول تعالى: أولم يبن للذين يستخلفون في الأرض من بعد إهلاك آخرين قبلهم كانوا أهلها فساروا سيرتهم وعملوا أعمالهم وعتوا على ربهم {أَن لَّوْ نَشَاء أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ}؟ [(١٠٠) سورة الأعراف] يقول: أن لو نشاء فعلنا بهم كما فعلنا بمن قبلهم {وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ} [(١٠٠) سورة الأعراف] يقول: ونختم على قلوبهم {فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ} [(١٠٠) سورة الأعراف] موعظة ولا تذكيراً.

قلت: وهكذا قال تعالى: {أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَى} [(١٢٨) سورة طـه] وقال تعالى: {أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ} [(٢٦) سورة السجدة] وقال: {أَوَلَمْ تَكُونُواْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ * وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ} الآية [(٤٤ -٤٥) سورة إبراهيم].

قوله تعالى: {وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ} [(٤٥) سورة إبراهيم] هذه الآية تفسر ما جاء في المواضع الأخرى كقوله تعالى: {أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ} [(١٢٨) سورة طـه] يعني أولم يتبيّن ويتضح ويظهر لهم؟.

قال تعالى: {وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا} [(٩٨) سورة مريم] أي: هل ترى لهم شخصاً أو تسمع لهم صوتاً، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على حلول نقمه بأعدائه وحصول نعمه لأوليائه، ولهذا عقب بقوله وهو أصدق القائلين ورب العالمين: {تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللّهُ عَلَىَ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ * وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ} [(١٠١ -١٠٢) سورة الأعراف].

لما قصَّ تعالى على نبيِّه -صلى الله عليه وسلم- خبر قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب، وما كان من إهلاكه الكافرين وإنجائه المؤمنين، وأنه تعالى أعذر إليهم بأن بيّن لهم الحق بالحجج على ألسنة الرسل -صلوات الله عليهم أجمعين- قال تعالى: {تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ} [(١٠١) سورة الأعراف] أي: يا محمد {مِنْ أَنبَآئِهَا} أي: من أخبارها {وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ} [(١٠١) سورة الأعراف] أي: الحجج على صدقهم فيما أخبروا به، كما قال تعالى: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً} [(١٥) سورة الإسراء]، وقال تعالى: {ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ * وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ} [(١٠٠ -١٠١) سورة هود].

وقوله تعالى: {فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ} [(١٠١) سورة الأعراف] الباء سببية، أي: فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل بسبب تكذيبهم بالحق أول ما ورد عليهم، حكاه ابن عطية -رحمه الله- وهو متّجه حسن، كقوله: {وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ * وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ} الآية [(١٠٩ -١١٠) سورة الأنعام].

هذا الموضع أعني قوله تعالى: {فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ} [(١٠١) سورة الأعراف] يحتمل معانيَ متعددة، فالحافظ ابن كثير -رحمه الله- قال فيه ما ذكره في آية الأنعام، وما ذكره في آية الأنعام هو أن الله -عز وجل- قال: {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [(١١٠) سورة الأنعام] يعني عقوبة

لهم، حيث إنهم طلبوا الآيات، فالله -عز وجل- قال: {وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ} [(١٠٩) سورة الأنعام] وفي القراءة الأخرى (وما يشعركم أنها إذا جاءت لا تؤمنون) فقوله: {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [(١١٠) سورة الأنعام] يعني لما كذبوا به أول مرة قلب الله قلوبهم وأبصارهم عن الحق، فزاغوا وضلوا جزاءً وفاقاً، كما قال الله تعالى: {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ} [(٥) سورة الصف] وكما قال تعالى: {وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُواْ صَرَفَ اللّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُون} [(١٢٧) سورة التوبة] فالجزاء من جنس العمل.

قوله تعالى: {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [(١١٠) سورة الأنعام] أي: أن الله جازاهم على كفرهم الأول بأن قلب قلوبهم وأبصارهم فلم تعُد تنفع فيهم الآيات والمعجزات ودلائل الحق، ولا تصل المواعظ إلى قلوبهم، بل سدت منافذ هذه القلوب، فلا يصل إليها وعظ ولا تذكير ولا تنتفع بالبراهين وبالآيات الواضحات الدالة على صدق ما جاء به الرسل -عليهم الصلاة والسلام- وهذا المعنى استحسنه الشنقيطي -رحمه الله-.

ومن المعاني التي تحتملها هذه الآية: {كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [(١١٠) سورة الأنعام] وقوله تعالى: {فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ} [(١٠١) سورة الأعراف] يعني لم يؤمنوا كما سبق في علم الله حينما استخرجهم من ذرية آدم على هيئة الذر، وأخذ عليهم الميثاق أنهم يكفرون ولا يهتدون، وهذا كقوله -تبارك وتعالى- على أحد المعاني التي تحتملها الآية: {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ} [(٩٧) سورة يونس] يعني سبق في علم الله تعالى أنهم لا يؤمنون فلن تنفع فيهم الآيات مهما وردت على أسماعهم وشاهدوا من دلائل الحق فإنهم لا يؤمنون كما قال تعالى: {وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ} [(١٠١) سورة يونس].

وهذا المعنى في قوله تعالى: {كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [(١١٠) سورة الأنعام] أي: كما سبق في علم الله -عز وجل- حينما أخذ عليهم الميثاق أنهم لن يؤمنوا، هذا قاله بعض أهل العلم، وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-.

وبعضهم يذكر معنى آخر فيقول: إن قوله تعالى: {فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ} [(١٠١) سورة الأعراف]: يعني أنهم عندما يتمنون الرجعة إلى الدنيا ولو ردوا لكذبوا به كما لم يؤمنوا به أول مرة كما قال الله -عز وجل-: {وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} [(٢٨) سورة الأنعام] لكن هذا المعنى فيه بُعد، والله أعلم، لذلك يمكن أن يقال: إن الباء سببية في قوله: {بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ} ويكون المعنى أن تلك القرى المهلكة التي نقص عليك لم تنفعهم الآيات التي اقترحوها على الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- بسبب تكذيبهم الأول، فقوم صالح قالوا: نريد ناقة فخرجت لهم ناقة لكن لم ينفعهم ذلك ولم يؤمنوا عقوبة لهم، قال تعالى: {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [(١١٠) سورة الأنعام].

ولذلك ينبغي على الإنسان إذا عرف الحق وقامت دلائله أن يؤمن به وأن ينقاد ويذعن ويمتثل أمر الله -عز وجل- ولا يكابر، فإن المكابرة والإعراض، قد يكون سبباً للطمس على القلب، أما إذا أذعن وانقاد وقال:

سمعاً وطاعة لله ورسوله -صلى الله عليه وسلم- فإن هذا يكون سبباً لهداية قلبه ونقله من هداية إلى هداية، ومعلوم أن من أعرض عما هو بصدده شغل بما يضره ولا ينفعه، كما قال الله -عز وجل- عن اليهود الذين تركوا العمل بالتوراة: {وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ} [(١٠٢) سورة البقرة] أي أنهم عوقبوا بنقيض ما هم بصدده فبدلاً من اتباع الوحي صار اتباعهم للشياطين والسحر الذي يقابل الوحي، فالوحي فيه الهدى الكامل، والسحر هو معدن الشر والضلال، والمحادة لله -عز وجل-.

ولهذا قال هنا: {كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللّهُ عَلَىَ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ * وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم} [(١٠١-١٠٢) سورة الأعراف] أي: لأكثر الأمم الماضية {مِّنْ عَهْدٍ} [(١٠٢) سورة الأعراف]

{وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ} [(١٠٢) سورة الأعراف] أي: ولقد وجدنا أكثرهم فاسقين خارجين عن الطاعة والامتثال.

قوله تعالى: {وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ} [(١٠٢) سورة الأعراف] بعض العلماء يقول: هذا في الأمم المعذبة التي قص الله أخبارها، يعني تلك القرى نقص عليك من أنبائها وما وجدنا لأكثرهم من عهد.

وبعضهم يقول: إن قوله: {وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ} [(١٠٢) سورة الأعراف] هذا في عموم الناس، وهذا العهد بعضهم يحمله على الميثاق الأول الذي أُخذ عليهم حينما استخرجهم الله -عز وجل- من صلب آدم، والمعنى فما بقي أكثرهم على هذا العهد وما عملوا بمقتضاه، وهذا المعنى هو الذي مال إليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله- لكن لا يبعد أن يكون المعنى أوسع من هذا وأعمّ فلا يحمل على خصوص هذا العهد الذي كان في الأصلاب، بل يقال -كما قال ابن جرير -رحمه الله-: {وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ} [(١٠٢) سورة الأعراف] أي: من وفاء بما وصيناهم به، وأمرناهم من الإيمان وطاعة الله -عز وجل- والقيام بحقه وتوحيده واتباع رسله، والعمل بطاعته.

وفي قوله تعالى: {وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ} [(١٠٢) سورة الأعراف] قال بعض العلماء: "إن" هذه نافية، وذلك أنّ "إنْ" تأتي أحياناً للنفي، وأحياناً تكون مخففة من الثقيلة، ومن شواهد مجيئها للنفي شاهد ابن هشام في شرحه لألفية ابن مالك:

إنْ هـو مستولياً على أحد ... إلا على أضعف المجانين

يعني ما هو مستولياً على أحد إلا على أضعف المجانين.

ومن شواهد مجيئها للنفي قوله تعالى: {إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا} [(١٠) سورة إبراهيم] يعني ما أنتم إلا بشر مثلنا، والمقصود أن بعضهم يقول في قوله تعالى: {وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ} [(١٠٢) سورة الأعراف]: يعني وما وجدنا أكثرهم، وقالوا: إن اللام في قوله: {لَفَاسِقِينَ} هي بمعنى "إلا" ويكون معنى الآية: وما وجدنا أكثرهم إلا فاسقين، لكن هذا المعنى لا يخلو من تكلف، وليس هو الظاهر المتبادر، والله أعلم.

والعهد الذي أخذه هو ما جبلهم عليه وفطرهم عليه وأخذ عليهم في الأصلاب أنه ربهم ومليكهم، وأنه لا إله إلا هو، فأقروا بذلك وشهدوا على أنفسهم به، وخالفوه وتركوه وراء ظهورهم، وعبدوا مع الله غيره بلا دليل ولا حجة لا من عقل ولا شرع، وفي الفطرة السليمة خلاف ذلك، وجاءت الرسل الكرام من أولهم إلى آخرهم بالنهي عن ذلك، كما جاء في صحيح مسلم: ((يقول الله تعالى: إني خلقت عبادي حنفاء

فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم))[٣] وفي الصحيحين: ((كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه)) الحديث[٤].

---

[3] - أخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها - باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (٢٨٦٥) (ج ٤ / ص ٢١٩٧).

[4] - أخرجه البخاري في كتاب التفسير – باب تفسير سورة الروم (٤٤٩٧) (ج ٤ / ص ١٧٩٢) ومسلم في كتاب القدر - باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين (٢٦٥٨) (ج ٤ / ص ٢٠٤٧).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأعراف (١٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى - في تفسير قوله تعالى: {ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُواْ بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ} [(١٠٣) سورة الأعراف].

يقول تعالى: {ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم} أي: الرسل المتقدم ذكرهم كنوح وهود وصالح ولوط وشعيب -صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر أنبياء الله أجمعين -.

{مُّوسَى بِآيَاتِنَا} أي: بحججنا ودلائلنا {إِلَى فِرْعَوْنَ} وهو ملك مصر في زمن موسى،{وَمَلَئِه} أي: قومه، {فَظَلَمُواْ بِهَا} أي: جحدوا وكفروا بها ظلماً منهم وعناداً، كقوله تعالى: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ} [(١٤) سورة النمل] أي: الذين صدوا عن سبيل الله وكذبوا رسله، أي: انظر كيف فعلنا بهم، أغرقناهم عن آخرهم بمرأى من موسى وقومه، وهذا أبلغ في النكال بفرعون وقومه، وأشفى لقلوب أولياء الله -موسى وقومه - من المؤمنين به.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول الله -تبارك وتعالى -: **{ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ}** [(١٠٣) سورة الأعراف]، فالملأ هم علية القوم بصرف النظر عن السبب الذي من أجله سموا بذلك، كقول بعضهم: لأنهم يملئون صدور المجالس، يعني أنهم في مقدمة القوم، أي أنهم الكُبراء، أو قول من قال: إنهم يتمالئون على الأمر، يعني هم أهل الحل والعقد، فكل هذا حاصل في الملأ، فهم الذين يتصدرون المجالس، وهم الذين يتمالئون.

قوله تعالى: **{إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ}** قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله -: **"أي: قومه"** فإذا كان الملأ يطلق على علية القوم -كما ذكرنا - فما وجه تخصيص ذلك بالملأ مع أنه أرسل للجميع؟

الجواب: أنه عبر بالملأ؛ لأن غيرهم تبعٌ لهم، ولهذا قال ابن كثير -رحمه الله -: **"إلى فرعون وقومه"** فلا يأتِ أحد ويستدرك على ابن كثير هذا التفسير ويقول: الملأ ليسوا كل القوم، بل علية القوم.

قال الله تعالى: **{فَظَلَمُواْ بِهَا}** [(١٠٣) سورة الأعراف] قال الحافظ: **"أي: جحدوا وكفروا بها ظلماً منهم وعناداً"**.

ويمكن أن يُختصر فيقال: **{فَظَلَمُواْ بِهَا}** أي: كفروا بها.

فإن قيل: لماذا سمي الكفر ظلماً؟ يقال: لأن الكفر أظلم الظلم، كما قال الله تعالى: **{لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}** [(١٣) سورة لقمان].

وأصل الظلم هو وضع الشيء في غير موضعه، فكل من وضع شيئاً في غير موضعه فقد ظلم، ومنه قول المرأة التي تضرب اللبن قبل أن يروب قائلة:

ظلمـــتُ لكـــم ســـقائي ... وهل يخفى علـى العَكِـدِ الظَّلِـيمُ

العَكِد هو عصب اللسان، وقولها: ظلمت لكم سقائي: يعني أنها ضربته قبل أن يروب، وهذا يضيِّع زبده، فتكون بذلك قد وضعت الضرب في غير موضعه، وهكذا القبر لما كان محفوراً في مكان ليس محلاً للحفر، قيل لتلك الحفرة: المظلومة.

وعلى كل حال فقوله تعالى عن فرعون: **{فَظَلَمُواْ بِهَا}** [(١٠٣) سورة الأعراف] أي: كفروا، كما قال عنهم: **{وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا}** [(١٤) سورة النمل] فكفر فرعون كان من قبيل الجحود.

{وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} **[(١٠٤ - ١٠٦) سورة الأعراف].**

يخبر تعالى عن مناظرة موسى -عليه السلام - لفرعون وإلجامه إياه بالحجة، وإظهاره الآيات البينات بحضرة فرعون وقومه من قبط مصر، فقال تعالى: {وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ} [(١٠٤) سورة الأعراف] أي: أرسلني الذي هو خالق كل شيء وربه ومليكه.

{حَقِيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ} [(١٠٥) سورة الأعراف] أي: واجب وحق عليَّ ذلك، أن لا أخبر عنه إلا بما هو حق وصدق لما أعلم من جلاله وعظيم شأنه.

قوله: **{حَقِيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ}** يقول: **"أي واجب وحق عليّ ذلك"** وقرأ بعضهم **(حقيق عليَّ أن لا أقول على الله إلا الحق)** [(١٠٥) سورة الأعراف]، وفي قراءة لابن مسعود: **(حقيق ألا أقول على الله إلا الحق)** [(١٠٥) سورة الأعراف].

وبعض أهل العلم في القراءة المشهورة **{حَقِيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ}** [(١٠٥) سورة الأعراف] قال: إن "على" بمعنى الباء، ومعلوم أن حروف الجر تتناوب، فيكون المعنى:حقيق بأن لا أقول على الله إلا الحق"، وبهذا وردت قراءة غير متواترة قرأ بها بعض السلف كأُبَيّ والأعمش **(حقيق بأن لا أقول)**.

والقراءة الآحادية يستفاد منها ثلاث فوائد، ومن هذه الفوائد أنه يفسر بها القراءة المتواترة، فقوله تعالى في القراءة المشهورة **{حَقِيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ}** [(١٠٥) سورة الأعراف] تفسرها قراءة أُبَيّ والأعمش فيقال: أي: حقيق بأن لا أقول على الله إلا الحق.

وبعض أهل العلم يقول بتضمين الفعل وما في معناه معنى الفعل، ففي هذا الموضع يقولون: إن لفظة **{حَقِيقٌ}** ليست فعلاً لكنها مضمنة معنى الفعل حرص، ولفظة حريص تُعدَّى بـــ"على" فتقول: فلان حريص على فلان، وفلان حريص على ماله، وفلان حريص على شبابه، وهكذا فإن قوله: **{حَقِيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ}** [(١٠٥) سورة الأعراف] إذا كانت مضمنة معنى حريص يكون المعنى: حريص على أن لا أقول على الله إلا الحق.

وإذا ضمن الفعل أو ما في معناه معنى الفعل فإنه يُعدَّى تعديته كما في قوله تعالى: **{عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ}** [(٦) سورة الإنسان] فقوله: **{يَشْرَبُ بِهَا}** مضمّن معنى يرتوي أو يلتذُّ، فيكون المعنى عيناً يرتوي بها، حيث ضمِّن الشرب معنى الارتواء أو الالتذاذ، وهكذا يمكن أن يقال في قوله: **{حَقِيقٌ عَلَى}** أنه مضمن معنى حريص، وحريص يتعدى بـــ"على" ويكون المعنى كما سبق: حريص على أن لا أقول على الله إلا الحق،

وهذا ليس ببعيد، وإن كان القول الذي قبله قد يقال: إنه أوضح وأقرب وأسهل منه، لكن تضمين الفعل وما في معناه معنى الفعل أبلغ، والله أعلم.

{قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ} [(١٠٥) سورة الأعراف] أي: بحجة قاطعة من الله أعطانيها دليلاً على صدقي فيما جئتكم به.

{فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ} [(١٠٥) سورة الأعراف] أي: أطلقهم من أسرك وقهرك، ودعهم وعبادة ربك وربهم، فإنهم من سلالة نبي كريم إسرائيل، وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن.

{قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} [(١٠٦) سورة الأعراف] أي: قال فرعون: لستُ بمصدقك فيما قلت ولا بمطيعك فيما طلبت، فإن كانت معك حجة فأظهرها لنراها إن كنت صادقاً فيما ادعيت.

{فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء لِلنَّاظِرِينَ} [(١٠٧ -١٠٨) سورة الأعراف].

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما - في قوله: {ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ} الحية الذَّكر، وكذا قال السدي والضحاك.

فسَّر الثعبان بأنه الحية الذكر، وأما المبين فيعني البيّن الظاهر الذي لا لبس فيه، أي أن العصا تحولت إلى حية لا لبس فيها ولا خفاء، فأمرها لا يلتبس أنها حية بل هي واضحة وليس ذلك من الأمور التي تَحتمل أن يكون البصر اختلط عليه الأمر أو نحو ذلك، بل هي حية ظاهرة لا لبس فيها.

يقول تعالى: **{فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ}** [(١٠٧) سورة الأعراف] قال ابن عباس -رضي الله عنهما -: "الحية الذَّكَر" وفي موضع آخر قال الله -تبارك وتعالى -: **{فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ}** [(١٠) سورة النمل] فالعرب تطلق الجان على صغار الحيات.

وبالنسبة للجمع بين قوله تعالى: **{فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ}** [(١٠٧) سورة الأعراف] وقوله تعالى: **{فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى}** [(٢٠) سورة طــه] يقال: إنها في ضخامتها ثعبان مبين وفي سرعة الحركة كأنها صغار الحيات لا تكاد تدركها لسرعتها وخفة حركتها، والله أعلم.

وأما الروايات الإسرائيلية فحدِّث ولا حرج، ومن ذلك أن هذه الحية وضعت فكها الأسفل في الأرض وفكها الأعلى على جدار القصر، وكذلك يذكرون من طول الحية وضخامتها الشيء العجيب، ويقولون: إنها توجهت إلى فرعون فاغرة فاها وأن الرجل ولّى هارباً وجعل يستغيث بموسى، ويذكرون أموراً يستحي الإنسان من ذكرها، فالله تعالى أعلم.

وفي حديث الفُتون من رواية يزيد بن هارون عن الأصبغ بن زيد عن القاسم بن أبي أيوب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما - قال: فألقى عصاه فتحوّلت حية عظيمة فاغرة فاها مسرعة إلى فرعون، فلما رآها فرعون أنها قاصدة إليه اقتحم عن سريره واستغاث بموسى أن يكفّها عنه ففعل.

حديث الفتون -وفي بعض الكتب يقولون: حديث النتوق من قوله تعالى: **{وَإِذ نَتَقْنَا الْجَبَلَ}** [(١٧١) سورة الأعراف]- هو حديث طويل في نحو اثنتي عشرة صفحة وهو من حديث ابن عباس -رضي الله عنه - وليس من حديث النبي -صلى الله عليه وسلم - فابن عباس يورد فيه خبر موسى -صلى الله عليه وسلم - دون أن يضيف ذلك إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم - لكن يظهر -والله أعلم - أن هذا الحديث يوجد منه قطع

هي من كلام النبي -صلى الله عليه وسلم- أي أن ابن عباس -رضي الله عنهما- سمعها من النبي -صلى الله عليه وسلم- مباشرة أو بواسطة، وفيه قطع أخرى هي من أخبار بني إسرائيل، فابن عباس -رضي الله عنهما- مزج ذلك في سياق واحد طويل، هذا هو حديث الفتون.

وقال السدي في قوله: {فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ} [(١٠٧) سورة الأعراف] **الثعبان: الذكر من الحيات، فاتحة فاها، واضعة لحيها الأسفل في الأرض والأعلى على سور القصر، ثم توجهت نحو فرعون لتأخذه فلما رآها ذعر منها ووثب وأحدث، ولم يكن يُحدث قبل ذلك.**

هذا كله من الإسرائيليات، وهذا الكلام لا يصدَّق ولا يكذب.

وصاح يا موسى خذها وأنا أؤمن بك وأُرسل معك بني إسرائيل، فأخذها موسى -عليه السلام- فعادت عصا.

وقوله: {وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء لِلنَّاظِرِينَ} [(١٠٨) سورة الأعراف] **أي: أخرج يده من درعه بعدما أدخلها فيه فإذا هي بيضاء تتلألأ من غير برَص ولا مرض، كما قال تعالى: {وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ} الآية [(١٢) سورة النمل].**

وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في حديث الفتون: {مِنْ غَيْرِ سُوءٍ} [(١٢) سورة النمل] يعني من غير برص، ثم أعادها إلى كمِّه فعادت إلى لونها الأول، وكذا قال مجاهد وغير واحد.

قوله تعالى: **{وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ}** [(١٢) سورة النمل] هذه آية غير الآية التي في قوله تعالى: **{وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ}** [(٣٢) سورة القصص] فالأولى هي أنه كان إذا أدخل يده في جيبه ثم أخرجها صار لها نور ساطع، أما الثانية فهي أنه إذا أصابه شيء من الخوف فضمَّ إليه جناحه اطمأنت نفسه وذهب عنه ما يجد من الخوف، فإذا جاء إلى فرعون أعتى أهل الأرض فإنه يصيبه ما يصيبه من الخوف الذي ذكره الله في قوله: **{إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى}** [(٤٥) سورة طـه] فالله -عز وجل- قال: **{لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى}** [(٤٦) سورة طـه] وأرشده إلى أنه إذا ضم إليه جناحه ذهب عنه هذا الخوف، فالمقصود أن هذه الآية غير إدخال اليد في الجيب.

{قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ} [(١٠٩-١١٠) سورة الأعراف] أي: قال الملأ -وهم الجمهور والسادة من قوم فرعون- موافقين لقول فرعون فيه بعدما رجع إليه روعُه واستقر على سرير مملكته، بعد ذلك قال للملأ حوله: {إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ} [(١٠٩) سورة الأعراف] فوافقوا وقالوا كمقالته، وتشاوروا في أمره، كيف يصنعون في أمره، وكيف تكون حيلتهم في إطفاء نوره وإخماد كلمته وظهور كذبه وافترائه، وتخوفوا أن يستميل الناس بسحره فيما يعتقدون، فيكون ذلك سبباً لظهوره عليهم وإخراجه إياهم من أرضهم، والذي خافوا منه وقعوا فيه كما قال تعالى: {وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ} [(٦) سورة القصص] فلما تشاوروا في شأنه وائتمروا فيه اتفق رأيهم على ما حكاه الله تعالى عنهم في قوله تعالى: {قَالُواْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ} [(١١١-١١٢) سورة الأعراف].

أراد الحافظ ابن كثير –رحمه الله - أن يجمع بين الآيات فأضاف هذا القول إلى الملأ، وفي الموضع الآخر قال: إن هذا من قول فرعون، أعني قوله: {إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ} [(٣٤) سورة الشعراء] فهو أراد أن يجمع بين هذه الآيات فقال:: لما هدأ فرعون وذهب عنه الفزع حينما رأى الحية تشاوروا فيما بينهم ماذا يقولون؛ من أجل أن تصدر عنهم كلمة موحدة يتناقلها الناس، وذلك أن هذه الإسقاطات تؤثر في الناس، فاتفقوا وائتمروا على إطلاق معين يرِد على ألسنة هؤلاء الكبراء جميعاً فيتبعهم الناس في ذلك وينفرهم من موسى، فاجتمعوا كما اجتمع كبراء قريش لينتقوا بعناية لقباً أو إطلاقاً يطلقونه على النبي -صلى الله عليه وسلم - فيصدر على ألسنتهم ويتناقله الناس وينطبع ذلك فيه لينفّروا الناس منه، فهنا ائتمروا فصدر ذلك الإطلاق من فرعون وصدر من الملأ حيث كلهم قالوا: إنه ساحر عليم، يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون؟.

وقولهم: فماذا تأمرون يحتمل أن يكون من كلام الملأ موجهاً إلى الملأ؛ لأنها بصيغة الجمع؛ لأنهم هم أهل الحل والعقد، أي ما هو الشيء الذي تتفقون عليه وترون أن يُفعل تجاه موسى؟ ويحتمل أن يكونوا وجهوا الخطاب إلى فرعون ولكن خاطبوه بصيغة الجمع من باب التعظيم، فما قالوا له: ماذا تأمر وإنما قالوا: ماذا تأمرون، أي ماذا ترون في هذا الأمر؟

ويحتمل أن يكون هذا من كلام فرعون، فالملأ قالوا: {إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ} [(١٠٩) سورة الأعراف] وفرعون قال: {فَمَاذَا تَأْمُرُونَ} [(١١٠) سورة الأعراف] ويكون بهذا الاعتبار من قبيل الموصول لفظاً المفصول معنىً، وذكرنا له أمثلة من قبل، كقوله تعالى في سورة النمل: {وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ} [(٣٤) سورة النمل] فقوله تعالى: {وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ} يحتمل أن يكون من كلام ملكة سبأ، ويحتمل أن يكون من كلام الله يقرر كلامها، ومن ذلك قوله تعالى في سورة مريم: {وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى} [(٣٦) سورة آل عمران] وقوله تعالى في سورة يوسف: {ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ} [(٥٢) سورة يوسف] يحتمل أن يكون من بقية كلامها، ويحتمل أن يكون من كلام يوسف -عليه الصلاة والسلام -.

فلما تشاوروا في شأنه وائتمروا فيه اتفق رأيهم على ما حكاه الله تعالى عنهم في قوله تعالى: {قَالُواْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ} [(١١١ -١١٢) سورة الأعراف].

قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما -: {أَرْجِهْ} [(١١١) سورة الأعراف] أخِّرْه {وَأَرْسِلْ} [(١١١) سورة الأعراف] أي: ابعث {فِي الْمَدَآئِنِ} أي: في الأقاليم ومدائن ملكك {حَاشِرِينَ} أي: من يحشر لك السحرة من سائر البلاد ويجمعهم.

وقد كان السحر في زمانهم غالباً كثيراً ظاهراً، واعتقد من اعتقد منهم وأوهم من أوهم منهم أن ما جاء به موسى -عليه السلام - من قبيل ما تشعبذه سحرتهم، فلهذا جمعوا له السحرة يعارضوه بنظير ما أراهم من البينات كما أخبر تعالى عن فرعون حيث قال: {فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى * قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى * فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى} [(٥٨ - ٦٠) سورة طـــه].

قوله تعالى: {يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ} [(١١٢) سورة الأعراف] فيها قراءة أخرى متواترة للكوفيين عدا عاصماً (يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ) [(١١٢) سورة الأعراف] والسحار صيغة مبالغة، والمعنى شديد السحر أو عظيم

السحر، أي أنهم لم يجمعوا له كل من اشتغل بالسحر وإنما جمعوا أعلم السحرة وأشدهم، والروايات الإسرائيلية كثيرة في ذكر ذلك، فبعضهم يقدّرهم بثمانيين ألفاً، وبعضهم يذكر أنهم عشرات فقط، وهذا من التباين الشديد في الأخبار الإسرائيلية، فلم يكن الفرق يسيراً حتى يمكن أن يقال: هذا من جبر الكسر أو نحو ذلك، وإنما بعضهم يذكر أنهم عشرات، وبعضهم يقول: مئات، وبعضهم يقول: إنهم آلاف، وبعضهم يقول: هم ثمانون ألفاً، وبعضهم يقول: أكثر من ذلك، فالله أعلم.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأعراف (١٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَجَاء السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالْواْ إِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإَنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ} [(١١٣-١١٤) سورة الأعراف] يخبر تعالى عما تشارط عليه فرعون والسحرة الذين استدعاهم لمعارضة موسى -عليه السلام- إن غلبوا موسى ليُثِيبنّهم وليعطينهم عطاءً جزيلاً، فوعدهم ومنّاهم أن يعطيهم ما أرادوا، ويجعلهم من جلسائه والمقربين عنده.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى- عن قول السحرة في هذه الآية: {إِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ} [(١١٣) سورة الأعراف] يكون هذا تقريراً جاءوا به بصيغة خبرية ليتوثقوا منه، وكأنه شيء قريب المنال، أو أنه شيء يتوقعونه أو يثقون بحصوله، فقالوا: لنا أجر إذا كنا نحن الذين غلبنا موسى -صلى الله عليه وسلم-، وفي الآية الأخرى جاء بأسلوب الاستفهام {أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا} [(٤١) سورة الشعراء] أي أنهم يسألونه: هل تعطينا أجراً؟ والفرق بين القراءتين ظاهر، لكن هذه الآية وإن لم تكن بصيغة الاستفهام إلا أن المقام والسياق يشعر به، فهم يقولون لفرعون: {إِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ} [(١١٣) سورة الأعراف] كأنهم يشترطون ذلك عليه فجاءوا به على صيغة الخبر.

فلما توثقوا من فرعون -لعنه الله- {قَالُواْ يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ * قَالَ أَلْقُوْاْ فَلَمَّا أَلْقَوْاْ سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ} [(١١٥-١١٦) سورة الأعراف] هذه مبارزة من السحرة لموسى -عليه السلام- في قولهم: {إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ} أي: قبلك، كما قال في الآية الأخرى: {وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى} [(٦٥) سورة طـه] فقال لهم موسى -عليه السلام-: {أَلْقُوْاْ} [(١١٦) سورة الأعراف] أي أنتم أولاً.

قولهم: {إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ} يدل على شدة ثقتهم بأنفسهم وأن ما سيأتي به مستعدون لإبطاله، فهم واثقون من أنفسهم تماماً.

ومن أهل العلم من يقول: إنهم قالوا ذلك من باب الأدب الذي اعتاده من يتبارون من أهل العلوم أو الصناعات أو الأعمال المختلفة إذا كانوا في مقام التباري والتنافس، كما يقال في المناظرة مثلاً: تسأل أو أسأل؟ لكن هذا لا يقوله إلا من كان واثقاً بنفسه تمام الثقة، وإلا فإنه يطلب شيئاً معيناً؛ لأنه قد رتب عليه أمراً آخر، فيخاف أن يفوته.

قيل الحكمة في هذا -والله أعلم- ليرى الناس صنيعهم ويتأملوا، فإذا فرغوا من بهرجهم ومحالهم جاءهم الحق الواضح الجليّ بعد التطلب له والانتظار منهم لمجيئه فيكون أوقع في النفوس، وكذا كان.

الحافظ ابن كثير -رحمه الله - يعلل لماذا قال لهم موسى -صلى الله عليه وسلم -: ابدءوا أنتم، فيقول: ليكون ذلك أوقع في نفوس الناس، باعتبار أنهم يرون البهرج ثم بعد ذلك ينتظرون ماذا سيلقي موسى.

ويمكن أن يقال بعبارة أخرى -وكل هذا وجه ظاهر والله تعالى أعلم -: إنه أراد أن يكون الحق هو آخر ما يلامس أو يصادف أو يراه الناس؛ فإنه يعلق في آذان الناس عادة آخر ما يرون، ولذلك فالنهايات معتبرة في كل شيء، فمن كانت نهايته سيئة فلا عبرة بحسن بدايته، فلو أن إنساناً دعا ناساً وأكرمهم ثم في آخر المجلس أساء إليهم فإن الذي يعلق في الأذهان تلك الإساءة التي نسخت كل الإحسان، وهكذا في كل شيء يبقى الإنسان يعلق في ذهنه ما كان في آخر المطاف، أو آخر الأمر، فموسى –عليه السلام - أراد -والله تعالى أعلم - أن يكون آخر ما يقع عليه أبصار الناس وآخر ما يقفون عليه هو الحق؛ ليكون هو العالق في الأذهان؛ لأن ما تقدمه ينتقل إلى الذاكرة ويختزن فيها وقد يفوت منه ما يفوت فإذا جاء بعده أخذ نصيباً من الأول، وهكذا، فإذا كثرت الأشياء أنسى بعضها بعضاً، وما يأتي ثانياً فالعادة أنه يُذهل عن الذي قبله، فالمقصود أن موسى -صلى الله عليه وسلم - أراد أن يكون الحق هو آخر ما يراه الناس، والله أعلم.

ولهذا قال تعالى: {فَلَمَّا أَلْقَوْاْ سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ} [(١١٦) سورة الأعراف] أي: خيلوا إلى الأبصار أن ما فعلوا له حقيقة في الخارج ولم يكن إلا مجرد صنعة وخيال.

السحر الذي جاء به السحرة الذين أرادوا أن ينتصروا به على موسى -صلى الله عليه وسلم - هو من باب سحر التخييل، لكن ليس معنى ذلك أن السحر بجميع أنواعه من هذا القبيل، فبعض أهل العلم يقول: السحر هو سحر أعين الناس فقط بمعنى أنه لا حقيقة للسحر وإنما هو تخييل وتزييف فيتراءى للإنسان مثلاً أن هذا يدخل حديدة في جوفه، فهذا تخييل، لكن ليس كل السحر تخييلاً، فمثلاً من يرفع الإنسان ويجعله معلقاً بالهواء -كما تعرض بعض القنوات الفضائية - هذا قد يكون تخييلاً للناس وهو ليس كذلك، وقد تكون الشياطين هي التي ترفعه، ولذلك إذا جاء أحد وذكر الله، وقال رقية أو نحو ذلك فإن هذا المعلق يسقط، حيث يبطل عمل الساحر ويتخلى عنه الشيطان الذي يحمله كما حصل لأناس كانوا يرتفعون بالهواء ويطيرون فلما حصل لبعض من ورث ذلك عن أبيه وذكر الله لما ارتفع سقط وتكسر وتحطمت عظامه.

والمقصود أن السحر الذي وقع من سحرة فرعون كان من قبيل سحر التخييل، وإلا فإن السحر منه ما له حقيقة، ويُمرض بإذن الله -عز وجل -، وقد يقتل بإذن الله -عز وجل - لكن تبقى بعض التفاصيل مثل: هل يستطيعون تغيير حقائق الأشياء مثل تغيير الإنسان إلى بهيمة فعلاً أم لا؟ هذه مسائل العلماء تكلموا عليها لكن يبقى الأصل أن السحر له حقيقة، وبالنسبة للسحر الذي وقع للنبي -صلى الله عليه وسلم - هو من قبيل سحر التخييل.

كما قال تعالى: {فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى * قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَى * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى} [(٦٧ -٦٩) سورة طـه].

روى سفيان بن عيينة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما -: ألقوا حبالاً غلاظاً وخشباً طوالاً، قال: فأقبلت يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى.

الإسرائيليات في هذا لا تحصى، فهناك أمور عجيبة وغريبة ذكرت في الأشياء التي ألقوها، وكم وكيف كانت تملأ الوادي، لكن مثل هذه الإسرائيليات لا يعول عليها.

{وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَانقَلَبُواْ صَاغِرِينَ * وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُواْ آمَنَّا بِرِبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ} [(١١٧ - ١٢٢) سورة الأعراف].

يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله موسى -عليه السلام - في ذلك الموقف العظيم الذي فرّق الله تعالى فيه بين الحق والباطل - يأمره بأن يلقي ما في يمينه وهي عصاه {فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ} [(١١٧) سورة الأعراف] أي: تأكل {مَا يَأْفِكُونَ} [(١١٧) سورة الأعراف] أي: ما يلقونه ويوهمون أنه حقٌ وهو باطل.

وفي قراءة أخرى متواترة، وهي قراءة الأكثر **(تلقَّف)** وهذا يدل على التكثير، والتعبير بالمضارع لا يخفى ما يدل عليه؛ لأنه يصور الأمر الماضي بصورة كأنك تطالعها وتشاهدها وأنت تسمع هذا السياق والخبر عما حصل.

قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما -: فجعلت لا تمر بشيء من حبالهم ولا من خشبهم إلا التقمته، فعرفت السحرة أن هذا شيء من السماء ليس هذا بسحر، فخروا سجداً وقالوا: {آمَنَّا بِرِبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ} [(١٢١ -١٢٢) سورة الأعراف].

وقال محمد بن إسحاق: جعلت تبتلع تلك الحبال والعصيّ واحدة واحدة حتى ما يُرى بالوادي قليل ولا كثير مما ألقوا، ثم أخذها موسى فإذا هي عصا في يده كما كانت، ووقع السحرة سجداً {قَالُواْ آمَنَّا بِرِبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ} [(١٢١ -١٢٢) سورة الأعراف] لو كان هذا ساحراً ما غلبنا.

وقال القاسم بن أبي بزة: أوحى الله إليه أن ألق عصاك، فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين فاغر فاه، يبتلع حبالهم وعصيهم، فأُلقي السحرة عند ذلك سجداً فما رفعوا رءوسهم حتى رأوا الجنة والنار وثواب أهلهما.

ورد في بعض الآثار عن بعض السلف أنهم رأوا الجنة والنار، لكن مثل هذا حتى لو قيل: له حكم الرفع؛ لأنه لم يؤخذ من الإسرائيليات فإن هذا يكون في حكم المرسل، لكن لو أن ذلك صح فهو يفسر أمراً قد يُتساءل عنه هنا -وهو وراد تماماً- وذلك أن هؤلاء سحرة وهم أسوأ الناس وأظلم الناس نفوساً، وأبعد الناس عن الخير، وهو جاء بكل سحار عليم، وهؤلاء السحرة بهذه المثابة وبهذه المنزلة معناها أنه جاء بأقذر من في مصر وأظلم الناس نفوساً وقلوباً وأبعدهم عن الحق والهدى، والعجيب أن التفاصيل التي جاءت بعده في هذه السورة وفي غيرها **{إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى}** [(٧٣) سورة طـه] و**{إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى * وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى * جَنَّاتُ عَدْنٍ}** [(٧٤ -٧٦) سورة طـه] وتفاصيل من أين عرفوها بهذه اللحظات؟!

أنا كنت أقف دائماً عند مثل هذه الآيات وأقول: ما الذي وقع للسحرة، كيف عرفوا هذه التفاصيل العجيبة، وهم أظلم الناس نفوساً وأبعد الناس عن الخير؟ من أين عرفوا هذه التفاصيل كلها وكيف كان منهم هذا الثبات العظيم؟، ثم إن الله –تبارك وتعالى - عقّب بالفاء في بعض الآيات كقوله: **{فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا**

بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى} [(٧٠) سورة طـه] فيدل على المباشرة أي أنهم بمجرد ما رأوا هذا خروا سجداً، وثبتوا هذا الثبات العظيم، وأمام من؟ وهم قبل لحظات كانوا يقولون: **{أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ}** [(٤١ -٤٢) سورة الشعراء] فمن الذي يستطيع أن يكون مقرباً عند فرعون وهم إنما جاءوا لطمع، ولا تسأل عن الآفات والأمراض فكل أمراض الدنيا موجودة في نفوس هؤلاء العتاة من السحرة، من الحسد والتنافس غير الشريف، والتهافت على الدنيا وعلى التوصل إليها بأقذر الأشياء، فهذا معروف، ومع كل ذلك يتحولون مباشرة إلى هذا الثبات العظيم، وهذا الرد البليغ، وهذه التفاصيل في الرد، فكيف عرفوها؟ لو صحّ أنهم رأوا الجنة والنار أو الجنة والثواب فقد يكون هذا جواباً، أي أن هؤلاء لما رأوا الجنة ذكروا هذه الأشياء وحصل لهم هذا الثبات العظيم، فالإنسان قد يرى آية ولا يؤمن، كما حصل لفرعون، فموقفهم لا يقل عن موقف فرعون؛ لأنه في مقام المباراة والمناظرة أو المحاجَّة أو المغالبة يكون للنفوس حضور كبير عند العلماء بالشريعة فضلاً عن السحرة الذين هم أوسخ الناس، فالعلماء في الفقه إذا حصل بينهم تناظر أو نحو ذلك يكون لحظوظ النفس حضور كبير، ولذلك تجد الوجه يحمر، وتجده يحتج بأشياء هو لا يرتضيها أصلاً ولا يرى أنها تصلح متمسكاً في الاحتجاج، ومع ذلك يتمسك بها وربما رد الآية أو الحديث في مقام المناظرة والطيش ونحو ذلك، بل ذكر بعضهم -كابن قدامة والجويني - وجماعة: أنه يصل الأمر إلى أن الرجل يأخذ بلحية صاحبه، وربما قذفه في عرضه وأمه من الغضب أثناء المناظرة وهم علماء! فإذا كان هذا يحصل بين علماء في مقام المناظرة في أمور شرعية، فتصور سحرة جاءوا أمام فرعون وأمام الناس في يوم عيد حيث إن العالَم ذلك اليوم في أجازة وهم جالسون يتفرجون فرأوا هزيمة ساحقة، وليس ذلك فقط بل القضية أن فرعون سيسحقهم حيث سيقول لهم: خذلتموني وسيكون مآلهم القتل حتى لو لم يؤمنوا، والله أعلم.

أضف إلى ذلك أن هؤلاء الناس حينما أتوا ليس لهم صنعة إلا السحر فهل يُتوقع أنه يكون خلال أيام أو شهور ناجحاً في مجالات أخرى كأن يتحول إلى فقيه أو عالم أو نحو ذلك؟ مثل هذا يحتاج أن يبدأ من الصفر في الكتاتيب، ولهذا فإن الشيخ المعلمي اليماني -رحمه الله - في كتاب التنكيل الذي أفرد جزءاً منه فسماه "القائد إلى تصحيح العقائد" ذكر فصلاً في غاية الأهمية في أسباب رد الحق، فقال: "ومنهم من يكون له في الباطل شهرة ومعيشة" أي أن بعض الناس يردون الحق؛ لأن لهم في الباطل شهرة ومعيشة، فالساحر له شهرة وله معيشة فهو يقدّر في باله أنه إذا اتبع الحق وأعلنه فمعنى ذلك أن شهرته والأضواء التي كانت له ستذهب، وستذهب معها الأموال التي يأخذها من الناس وسيصير فقيراً لا يجد له وظيفة إذ ليست عنده مؤهلات.

ومنهم من يقدر أشياء أخرى فيقول مثلاً: إذا أعلنتُ الحق أو اتبعت صاحب الحق فمعنى ذلك أن الحق ظهر على يده وصار له فضل عليَّ فكيف أقر له بهذا إذ كيف يفضل عليّ ويجيء الحق على يده؟، وهذا باب من أبواب الحسد، ثم يقدر أشياء أخرى فيقول: إذا قلت: إن ما مع الآخر هو الحق فمعنى ذلك أنـي كنت على الباطل طول عمري الذي ذهب حتى شابت مفارقي! وليس ذلك فحسب بل الأهل والعشيرة وقومي كلهم على الباطل، إذاً ما هو الحل؟ الإصرار على هذا الباطل والتمسك به ومكابرة الأدلة وبراهين الحق، وردها ولو كانت أوضح من الشمس!

والمقصود أن هذه الأمور كلها مجتمعة لهؤلاء السحرة ومع ذلك أقروا في لحظة أنهم كانوا على باطل ولم يبالوا بفرعون، ولو كان حصل منهم هذا الرجوع إلى الحق في غياب فرعون لقيل: غيبة فرعون عن مشاهدة الحدث جعلت ذلك أخف وطأة في النفوس وأثراً لكن العجيب أن هذا كله حصل أمامه وهو حاضر بكل ما عنده من إمكانية في الحضور من جنده ووزرائه، فكل هذه الأمور مجتمعة تجعلهم يتمسكون بالباطل ويكابرون موسى -صلى الله عليه وسلم- لكن الذي حدث أنهم في لحظات رجعوا إلى الحق وصاروا أناساً متهذبين فسجدوا لله خاضعين مقرين بالحق.

{قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلاَفٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُواْ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ * وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ} [(١٢٣-١٢٦) سورة الأعراف].

يخبر تعالى عما توعد به فرعون -لعنه الله- السحرة لما آمنوا بموسى -عليه السلام- وما أظهره للناس من كيده ومكره في قوله: {إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا} [(١٢٣) سورة الأعراف] أي: إنّ غلبته لكم في يومكم هذا إنما كان عن تشاور منكم ورضاً منكم بذلك، كقوله في الآية الأخرى: {إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ} [(٧١) سورة طـه] وهو يعلم وكل من له لبّ أن هذا الذي قاله من أبطل الباطل؛ فإن موسى -عليه السلام- بمجرد ما جاء من مدين دعا فرعون إلى الله وأظهر المعجزات الباهرة والحجج القاطعة على صدق ما جاء به، فعند ذلك أرسل فرعون في مدائن ملكه ومعاملة سلطنته، فجمع سحرة متفرقين من سائر الأقاليم ببلاد مصر ممن اختاره هو والملأ من قومه، وأحضرهم عندهم ووعدهم بالعطاء الجزيل، ولهذا قد كانوا من أحرص الناس على ذلك وعلى الظهور في مقامهم ذلك والتقدم عند فرعون، وموسى -عليه السلام- لا يعرف أحداً منهم ولا رآه ولا اجتمع به، وفرعون يعلم ذلك، وإنما قال هذا تستراً وتدليساً على رعاع دولته وجهلتهم كما قال تعالى: {فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ} [(٥٤) سورة الزخرف] فإن قوماً صدقوه في قوله: {أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى} [(٢٤) سورة النازعات] من أجهل خلق الله وأضلهم.

وقال السدي في تفسيره بإسناده المشهور عن ابن مسعود وابن عباس وغيرهما من الصحابة -رضي الله تعالى عنهم أجمعين- في قوله تعالى: {إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ} [(١٢٣) سورة الأعراف] قال: التقى موسى -عليه السلام- وأمير السحرة فقال له موسى: أرأيتك إن غلبتك أتؤمن بي وتشهد أن ما جئت به حق؟ قال الساحر: لآتين غداً بسحر لا يغلبه سحر، فو الله لئن غلبتني لأؤمنن بك ولأشهدن أنك حق، وفرعون ينظر إليهما، قالوا: فلهذا قال ما قال.

على كل حال هذا عن السدي، ومثل هذا لو صح إسناده فإنه مما لا يقال من جهة الرأي، فإن لم يكن مأخوذاً عن بني إسرائيل فإنه يكون له حكم الرفع، لكن طريق السدي لا تصح أصلاً، فالله أعلم.

وقوله: **{لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ}** [(١٢٣) سورة الأعراف] يعني خطة مبيتة، فالتدبير بخفاء يقال له: مكر.

قوله: **{مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ}** [(١٢٣) سورة الأعراف] يحتمل أن يكون المعنى أن هذا المكر حيك حينما كنتم في المدينة، يعني تكون المدينة ظرفاً للمكر بمعنى أن هذا المكر وقع فيها، يعني هي خطة اتفقتم عليها في المدينة التي هي مصر، ويحتمل أن يكون **{لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ}** [(١٢٣) سورة الأعراف] يعني أنكم دبرتم أمراً

ضد هؤلاء الناس من أهل المدينة، أو ضد البلد وأهل البلد؛ وعلى هذا لا يكون المعنى أن المكر وقع ونُسج داخل المدينة، وهذا هو الأقرب والله تعالى أعلم، أي أن المقصود أن هذا مكر موجه إلى البلد وأهل البلد {لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا} [(١٢٣) سورة الأعراف] والله أعلم.

وقوله: {لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا} [(١٢٣) سورة الأعراف] أي: تجتمعوا أنتم وهو وتكون لكم دولة وصولة وتُخرجوا منها الأكابر والرؤساء.

يعني هو يريد أن يقول: أنتم فقط تريدون السلطة وليست مسألة دعوة ولا وحي ولا هدى ولا نبوة ولا رسالة ولا شيء.

وتخرجوا منها الأكابر والرؤساء وتكون الدولة والتصرف لكم {فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} [(١٢٣) سورة الأعراف] أي: ما أصنع بكم، ثم فسر هذا الوعيد بقوله: {لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلاَفٍ} [(١٢٤) سورة الأعراف] يعني يقطع يد الرجُل اليمنى ورجْله اليسرى أو بالعكس.

{ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ} وقال في الآية الأخرى: {فِي جُذُوعِ النَّخْلِ} [(٧١) سورة طـه] أي: على الجذوع.

قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما -: وكان أولَ من صَلب وأول من قطع الأيدي والأرجل من خلاف فرعون.

وقول السحرة: {إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ} [(١٢٥) سورة الأعراف] أي: قد تحققنا أنا إليه راجعون وعذابه أشدّ من عذابك ونكاله على ما تدعونا إليه اليوم وما أكرهتنا عليه من السحر أعظم من نكالك، فلنصبرنَّ اليوم على عذابك؛ لنخلص من عذاب الله، ولهذا قالوا: {رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا} [(٢٥٠) سورة البقـرة] أي: عُمنا بالصبر على دينك والثبات عليه {وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ} [(١٢٦) سورة الأعـراف] أي: متابعين لنبيك موسى -عليه السلام -.

وقالوا لفرعون: {فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى * إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيى * وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى} [(٧٢ -٧٥) سورة طـه] فكانوا في أول النهار سحرة، فصاروا في آخره شهداء بررة.

قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما - وعبيد بن عمير وقتادة وابن جريج: كانوا في أول النهار سحرة وفي آخره شهداء.

{وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ * قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللّهِ وَاصْبِرُواْ إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * قَالُواْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ} [(١٢٧ -١٢٩) سورة الأعراف].

يخبر تعالى عما تمالأ عليه فرعون وملؤه وما أضمروه لموسى -عليه السلام - وقومه من الأذى والبغضة.

{وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ} أي: لفرعون {أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ} [(١٢٧) سورة الأعراف] أي: أتدعهم {لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ} [(١٢٧) سورة الأعراف] أي: يفسدوا أهل رعيتك ويدعوهم إلى عبادة ربهم دونك.

يا لله العجب؛ صار هؤلاء يشفقون من إفساد موسى وقومه! ألا إن فرعون وقومه هم المفسدون ولكن لا يشعرون، ولهذا قالوا: {وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ} [(١٢٧) سورة الأعراف].

وقال السدي في قوله: {وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ} [(١٢٧) سورة الأعراف]: وآلهته فيما زعم ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما - كانت البقر، كانوا إذا رأوا بقرة حسناء أمرهم فرعون أن يعبدوها فلذلك أخرج لهم السامري عجلاً جسداً له خوار.

قوله: **{أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ}** **[(١٢٧) سورة الأعراف]** يحتمل أن يكون المقصود مجموع الأمرين، يعني أتتركه ليفسد في الأرض، ويذرك وآلهتك، كيف ترضى منه هذين الأمرين؟

ويحتمل أن يكون المعنى غير هذا، وذلك أن قوله: **{وَيَذَرَكَ}** فيها قراءة أخرى بالرفع **(ويذرُك)** فعلى هذه القراءة يكون كأنه نتيجة، يعني أنهم قالوا: أتتركه يفسد في الأرض؟، ثم ذكروا قضية أخرى هي نتيجة لذلك وتتمثل في أن يذرك وآلهتك.

وقوله: **{وَآلِهَتَكَ}** المعروف أن فرعون كان يقول: **{أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى}** [(٢٤) سورة النازعات] فكيف أخبر الله -عز وجل - فقال: **{وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ}** هل كان له آلهة؟

هنا نرجع إلى ما ذكره عن ابن عباس -رضي الله عنهما -: أنهم كان يعبدون البقر، ويقال: إن فرعون أصلاً من أهل اصتخر، وفي بعض الروايات أنه أصلاً من أهل المشرق، فقد تكون جاءته عبادة البقر من تلك الناحية، لكن هذه لا يثبت فيها شيء، ويحتمل -كما قيل -: إنهم كانوا يعبدون النجوم، أي أنهم كانت لهم معبودات متعددة، وبعضهم يقول: كانوا يعبدون الأصنام تقرباً إلى فرعون، فإذا قال: **{أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى}** [(٢٤) سورة النازعات] فالمعنى أنهم لهم أرباب لكن هو الرب الأعلى، وقوله: **{مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي}** [(٣٨) سورة القصص] يكون باعتبار أنهم كانوا يعبدون الأصنام تقرباً إليه؛ لأنه أمرهم بهذا، هكذا جاء في بعض الروايات عن التابعين والعلم عند الله -عز وجل -.

وقيل: إنهم كانوا يعبدون الشمس، ويمكن أن يكون قد قال: **{مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي}** [(٣٨) سورة القصص] باعتبار أنه هنا في مقام الإلزام والرد فقال ذلك على سبيل المبالغة ولا سيما أنه يرى أن كل شيء لا بد أن يكون بإذنه، فكيف يعبدون الله -عز وجل -، والآمر الناهي هو فرعون؟

ويمكن أن يكون قوله: **{وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ}** كما فسره بعض أهل العلم أي: يذرك وعبادتك، وهذا يكون أوضح في القراءة الأخرى وهي قراءة غير متواترة عن علي وابن عباس والضحاك: **(وإلهتك)** وهذه واضحة؛ فإلهتك يعني عبادتك، فالإلهة هي العبادة، تقول: أله يأله إلهة يعني عبادة، والمألوه هو المعبود.

وفي قراءة غير متواترة لأبيّ بن كعب **(ليفسدوا في الأرض وقد تركوك أن يعبدوك)** وهذه واضحة صريحة، وعليها لا تكون الآلهة بمعنى المعبودات الأخرى، وذلك أنه يزعم أنه هو الإله الوحي بالنسبة لهم، فالله أعلم.

فأجابهم فرعون فيما سألوه بقوله: {سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ} [(١٢٧) سورة الأعراف] وهذا أمر ثانٍ بهذا الصنيع، وقد كان نكّل بهم قبل ولادة موسى -عليه السلام - حذراً من وجوده فكان خلاف ما رامه وضد ما قصده فرعون، وهكذا عومل في صنيعه أيضاً لما أراد إذلال بني إسرائيل وقهرهم فجاء الأمر على خلاف ما أراد، أعزهم الله وأذله وأرغم أنفه وأغرقه وجنوده.

القتل الأول المشهور سببه أن الكهنة قالوا له: إنه سيولد ولد يكون ذهاب ملكك على يديه فصار يقتل ويقتل، فقيل له: إن قتلت هؤلاء جميعاً فمعنى ذلك أن الفراعنة سيتولون الخدمة في الأمور المهينة، فصار يقتل سنة ويترك سنة، ويمكن أن يكون فعل ذلك لإضعافهم أي أنه يبقي بقية منهم من أجل امتهانهم وابتذالهم ليعملوا له في الأمور الوضيعة؛ لئلا يتولاها الفراعنة، واستحياء النساء معناه أنهم يبقون البنت حية لا يقتلونها من أجل الخدمة، وهذا لا يقل عن القتل بل هو أشد من القتل، أي أن تبقى بنت الإنسان في قبضة عدوه يذلها ويهينها ويستعملها في الأمور المهينة ويحملها التكاليف الشاقة، فهذا لا شك أنه أمر صعب وشديد على النفوس.

والتقتيل الثاني أيضاً من أجل الاستضعاف، وهذا ظاهر حيث قالوا له: كيف تترك هؤلاء يفسدوا في الأرض؟، قال: هم تحت السيطرة، فنحن سنقتل أولادهم وسيبقون بقيةً قليلة جداً ضعيفة، لا يكون لهم شأن ولا قوة.

ولما صمم فرعون على ما ذكره من المساءة لبني إسرائيل، قال موسى لقومه: {اسْتَعِينُوا بِاللّهِ وَاصْبِرُواْ} [(١٢٨) سورة الأعراف] ووعدهم بالعاقبة وأن الدار ستصير لهم في قوله: {إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * قَالُواْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا} [(١٢٨ -١٢٩) سورة الأعراف] أي: قد فعلوا بنا مثل ما رأيت من الهوان والإذلال من قبل ما جئت يا موسى ومن بعد ذلك.

هذا يدخل فيه كل الأذى الذي حصل لبني إسرائيل من الفراعنة قبل ذلك من كونهم يعملون في الخدمة، ومن كون التقتيل وقع على أبنائهم في المرة الأولى واستحياء النساء، وغير ذلك ولا حاجة لتخصيص نوع معين من الأذى، ولذلك فإن موسى -صلى الله عليه وسلم - طالبه فقال: **{فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ}** [(٤٧) سورة طـه] ومعنى ذلك أنه كان مُحكِم القبضة عليهم مبقيهم عنده يعملون بالأعمال الشاقة، فكانوا أمة ممتهنة مبتذلة مصادرة الحقوق عند هؤلاء الفراعنة، فطالبه موسى -صلى الله عليه وسلم - بإطلاقهم وتركهم، وترك تعذيبهم وأذيتهم، لذلك قالوا: **{قَالُواْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا}** [(١٢٩) سورة الأعراف] أي: ويتوعدنا بهذه الأمور من بعد ما جئتنا.

فقال منبهاً لهم على حالهم الحاضر وما يصيرون إليه في ثاني الحال: {عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ} الآية [(١٢٩) سورة الأعراف] وهذا تحضيض لهم على العزم على الشكر عند حلول النعم وزوال النقم.

"عسى" إذا كانت من كلام الله -عز وجل - فهي متحققة الوقوع، فالله –عز وجل - إذا قال: عسى أن يجعل كذا، عسى أن يحصل كذا، فيقولون كما جاء عن ابن عباس وغيره: عسى من الله واجبة، وهكذا إذا صدر من نبي كريم يخبرهم عن وعد الله -عز وجل - لهم فهو مؤيد بالوحي، فالله يقول: **{إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى}** [(٤٦) سورة طـه] فـ"عسى" حينما يقولها نبي فمعنى ذلك أنها متحققة الوقوع؛ لأن أصل معنى عسى الترجي، فيكون ذلك على سبيل الوعد الثابت، لكن قال بعض أهل العلم: إنها جرت عادة الكبراء والعظماء

والملوك أنه إذا أراد أن ينجز حاجة غيره يقول له: عسى أن نفعل لك كذا، عسى أن يحصل مقصودك، وهـــو يقصد العِدَة، والله تعالى أعلم.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأعراف (15)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ * فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ} [(130 -131) سورة الأعراف].

يقول تعالى: {وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ} أي: اختبرناهم وامتحناهم وابتليناهم {بِالسِّنِينَ} وهي سِنيُّ الجوع بسبب قلة الزروع {وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ} قال مجاهد: وهو دون ذلك، وقال أبو إسحاق عن رجاء بن حيوة: كانت النخلة لا تحمل إلا ثمرة واحدة {لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ} [(130) سورة الأعراف].

{فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ} [(131) سورة الأعراف] أي: من الخصب والرزق {قَالُواْ لَنَا هَذِهِ} أي: هذا لنا بما نستحقه {وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ} أي: جدب وقحط {يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ} أي: هذا بسببهم وما جاءوا به، {أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللّهِ} قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللّهِ} يقول: مصائبهم عند الله {وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ} [(131) سورة الأعراف].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول الله -عز وجل-: {وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ} [(130) سورة الأعراف] يعني الجوع والقحط {وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ} [(130) سورة الأعراف]، أي: أن الثمار لا تخرج كما كانت تخرج في مجاري العادات بل يصيبها من الآفات التي تنقصها وتضعفها.

{لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ} لعل تفيد التعليل، أي: من أجل أن يتذكروا، فالله -عز وجل- يسوق إليهم ذلك من أجل أن يعودوا ويرجعوا إليه -عز وجل-.

يقول تعالى: {فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَذِهِ} [(131) سورة الأعراف] يعني هذا لنا بما نستحقه.

قال: {وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ} [(131) سورة الأعراف] جاءت الحسنة معرّفة والسيئة منكّرة، ويحتمل -والله تعالى أعلم- أن هذا التفاوت جاء باعتبار أن الحسنة هي الأصل، فالحسنة هي الشيء المستمر أو الغالب أو المعهود، وأما السيئة فجاءت منكرة باعتبار أنها شيء عارض على خلاف الأصل، فهي شيء نادر أو قليل الوقوع.

قوله: {يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ} [(131) سورة الأعراف] يعني أنهم يتشاءمون به، فيقولون: هذا بسببك، ما رأينا الشر والآفات والرزايا إلا منك حينما جئتنا، كما قال الله -عز وجل- عن المشركين: {وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَذِهِ مِنْ عِندِكَ} [(78) سورة النساء]، وقال قوم صالح -عليه الصلاة والسلام- لنبيهم صالح: {اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ} [(47) سورة النمل]، وكذلك أصحاب القرية

{قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ} [(18 -19) سورة يـــس].

قال: {أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللّهِ} [(131) سورة الأعراف] أي: مصائبهم عند الله، وقيل: إن المراد ما كتب عليهم، وقيل: إن سبب خيرهم وشرهم هو عند الله -عز وجل- والطائر يطلق على العلم، كما قال الله -عز وجل-: {وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا} [(13) سورة الإسراء]، ويمكن أن يراد به هنا في هذا الموضع {أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللّهِ} [(131) سورة الأعراف] يعني: ما قدّر عليهم من خير أو شر، كله عند الله -تبارك وتعالى- وليس بسبب مجيئك، ولهذا قال: {قُلْ كُلًّ مِّنْ عِندِ اللّهِ} [(78) سورة النساء] كل ذلك عند الله -تبارك وتعالى- قدّره وخلقه وكتبه وأراده.

{وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ * وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُواْ يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ} **[(132 -135) سورة الأعراف].**

هذا إخبار من الله -عز وجل- عن تمرد قوم فرعون وعتوهم وعنادهم للحق وإصرارهم على الباطل في قولهم: {مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ} [(132) سورة الأعراف] يقولون: أيُّ آية جئتنا بها ودلالة وحجة أقمتها رددناها فلا نقبلها منك ولا نؤمن بك ولا بما جئت به.

قال الله تعالى: {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ} عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في رواية: كثرة الأمطار المغرقة المتلفة للزروع والثمار، وعنه -رضي الله تعالى عنه- في رواية أخرى: هو كثرة الموت، وقال مجاهد: الطوفان الماء والطاعون على كل حال.

قال أبو جعفر النحاس: إن الطوفان كل ما يطوف بالإنسان من آفة مرض أو مياه مغرقة، أو غير ذلك مما يُهلِك يقال له طوفان، وهذا المعنى قريب مما ذكره ابن جرير -رحمه الله-: أن الطوفان هو أمر من الله -عز وجل- طاف بهم.

والطوفان بالنسبة لعرف الناس اليوم إذا أطلق فهو لا يتجه إلا إلى الماء خاصة، لكن مثل معاني القرآن لا تحمل على ما استقر عليه العرف في العصر الحديث، وإنما تحمل على عرف المخاطبين بالقرآن، فالطوفان عندهم أعم من الماء وهم عرب خلّص.

وأما الجراد فمعروف مشهور وهو مأكول لما ثبت في الصحيحين عن أبي يعفور قال: سألت عبد الله بن أبي أوفى -رضي الله تعالى عنه- عن الجراد، فقال: "غزونا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- سبع غزوات نأكل الجراد"[1].

إذا نزل الجراد بمكان ما فإنه يغطي وجه الأرض، ولا يترك شيئاً إلا أكله، ومن عادة الناس أن يصيدوه ليلاً لنزوله على الأشجار والأرض.

---

[1] - رواه مسلم، كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب إباحة الجراد، (1546/3)، برقم: (1952).

وروى الشافعي وأحمد بن حنبل وابن ماجه من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما - عن النبي -صلى الله عليه وسلم - قال: ((أحلت لنا ميتتان ودمان، الحوت والجراد والكبد والطحال))[2].

وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى: {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ} [(133) سورة الأعراف] قال: كانت تأكل مسامير أبوابهم وتدع الخشب.

وأما القُمَّل فعن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما -: هو السوس الذي يخرج من الحنطة، وعنه أنه الدبى، وهو الجراد الصغير الذي لا أجنحة له، وبه قال مجاهد، وعكرمة وقتادة، وعن الحسن وسعيد بن جبير: القُمَّل دواب سود صغار.

القُمَّل هو السوس الذي يكون بالحنطة، ويفسدها تماماً ولا يبقى منها إلا مثل بقايا القطن إذا ضرب، ولا تصلح للأكل.

قال: **"وعنه: أنه الدبى"** الدبى: الجراد الصغير، وهو أعظم آفة من الجراد الكبير؛ لأن الجراد الكبير ينزل في مكان ما، ثم بعد ذلك يغادر إلى مكان آخر فيفسد مكاناً ثم ينتقل إلى آخر، أما الدبى فإنه لا يطير وهو جالس في مكان معين يقرضه، فلا يطير ولا يغادر، ولا يؤكل، ويفتك فتكاً ذريعاً.

وقال بعضهم: القُمَّل هو البراغيث، وبعضهم قال: هو نوع من القراد الصغير الذي يكون في البهائم وتصل الأعداد التي اكتشفت منه إلى حوالي خمس وثلاثين ألف نوع، ولا يزالون يكتشفون ويقولون: الرقم مؤهل إلى الخمسين ألفاً، وهو أنواع: منه نوع طفيلي صغير يعيش على جسم الإنسان، يوجد في البيوت.

وقال بعضهم: القُمَّل هو الجعلان، وكل هذه الأقوال تدور على أن القُمَّل حشرة صغيرة مزعجة مؤذية، تنغص عليهم عيشهم وحياتهم، وإن كان المشهور -والله أعلم - أن القُمَّل هو الذي يكون في الحنطة والسوس، وبعضهم فسره بالقَمْل، وفيه قراءة غير متواترة، قراءة الحسن البصري.

وروى أبو جعفر بن جرير عن سعيد بن جبير قال: لما أتى موسى -عليه السلام - فرعون قال له: {فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ} [(105) سورة الأعراف] فلم يرسلهم، فأرسل الله عليهم الطوفان وهو المطر فصبّ عليهم منه شيئاً خافوا أن يكون عذاباً، فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا المطر، فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه فكشف عنهم، فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل، فأنبت لهم في تلك السنة شيئاً لم ينبته قبل ذلك من الزروع والثمار والكلأ، فقالوا: هذا ما كنا نتمنى، فأرسل الله عليهم الجراد فسلطه على الكلأ، فلما رأوا أثره في الكلأ عرفوا أنه لا يبقي الزرع، فقالوا: يا موسى ادع لنا ربك فيكشف عنا الجراد، فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه فكشف عنهم الجراد، فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل فداسوا وأحرزوا في البيوت، فقالوا: قد أحرزنا، فأرسل الله عليهم القُمَّل -وهو السوس الذي يخرج منه - فكان الرجل يخرج عشرة أجربة إلى الرحى فلا يرد منها إلا ثلاثة أقفزة، فقالوا: يا موسى ادع لنا ربك يكشف عنا القُمَّل فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه فكشف عنهم، فأبوا أن يرسلوا معه بني إسرائيل فبينما هو جالس عند فرعون إذ سمع نقيق ضفدع فقال لفرعون: ما تلقى أنت وقومك

---

[2] - رواه ابن ماجه، كتاب الأطعمة، باب الكبد والطحال (1102/2)، برقم: (3314)، وأحمد (97/2)، برقم: (5723).

من هذا؟، فقال: وما عسى أن يكون كيد هذا؟، فما أمسوا حتى كان الرجل يجلس إلى ذقنه في الضفادع ويهم أن يتكلم فيثب الضفدع في فيه، فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا هذه الضفادع فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل فدعا ربه فكشف عنهم، فلم يؤمنوا، وأرسل الله عليهم الدم فكانوا ما استقوا من الأنهار والآبار وما كان في أوعيتهم وجدوه دماً عبيطاً، فشكوا إلى فرعون فقالوا: إنا قد ابتلينا بالدم وليس لنا شراب، فقال: إنه قد سحركم، فقالوا: من أين سحرنا ونحن لا نجد في أوعيتنا شيئاً من الماء إلا وجدناه دماً عبيطاً؟، فأتوه وقالوا يا موسى ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم، فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه فكشف عنهم، فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل.

تقول بعض الروايات: إذا استقت المرأة الإسرائيلية الماء لم يتغير، وإذا استقت الفرعونية صار دماً، فلما اشتد بهم العطش، كانت المرأة الفرعونية تقول لجارتها الإسرائيلية: مُجِّي الماء في فمي، فتمجّه من فمها إلى فمها فيتحول إلى دم، وبعض أهل العلم فسر الدم هنا: بالرعاف، والله تعالى أعلم.

وقد رُوي نحو هذا عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما - والسدي وقتادة وغير واحد من علماء السلف: أنه اخبر بذلك.

وقال محمد بن إسحاق بن يسار -رحمه الله -: فرجع عدو الله فرعون حين آمنت السحرة مغلوباً مغلولاً ثم أبى إلا الإقامة على الكفر، والتمادي في الشر، فتابع الله عليه الآيات، فأخذه بالسنين وأرسل عليه الطوفان، ثم الجراد ثم القُمَّل ثم الضفادع ثم الدم، آيات مفصلات، فأرسل الطوفان وهو الماء ففاض على وجه الأرض، ثم ركد لا يقدرون على أن يحرثوا ولا أن يعملوا شيئاً، حتى جهدوا جوعاً، فلما بلغهم ذلك، قالوا: {يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ} [(134) سورة الأعراف] فدعا موسى ربه فكشف عنهم.

{بِمَا عَهِدَ عِندَكَ} [(134) سورة الأعراف] أي: بما استودعك من العلم، وقال بعضهم: **{بِمَا عَهِدَ عِندَكَ}** [(134) سورة الأعراف] يعني: من معرفة الاسم الأعظم الذي إذا سألت ربك به أعطاك، وبعضهم يقول: **{بِمَا عَهِدَ عِندَكَ}** [(134) سورة الأعراف] بما أعطاك الله -عز وجل - من النبوة واختصك به من القرب والاصطفاء والتكليم.

فدعا موسى ربه فكشف عنهم، فلم يفوا له بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم الجراد فأكل الشجر فيما بلغني حتى إن كان ليأكل مسامير الأبواب من الحديد، حتى تقع دورهم ومساكنهم، فقالوا مثل ما قالوا، فدعا ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم القُمَّل، فذكر لي أن موسى -عليه السلام - أُمر أن يمشي إلى كثيب حتى يضربه بعصاه، فمشى إلى كثيب أهيل عظيم فضربه بها فانثال عليهم قملاً حتى غلب على البيوت والأطعمة، ومنعهم النوم والقرار، فلما جهدهم قالوا مثل ما قالوا، فدعا ربه فكشف عنهم، فلم يفوا له بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم الضفادع فملأت البيوت والأطعمة والآنية، فلا يكشف أحد ثوباً ولا طعاماً إلا وجد فيه الضفادع قد غلبت عليه، فلما جهدهم ذلك قالوا له مثل ما قالوا، فسأل ربه فكشف عنهم، فلم يفوا له بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم الدم فصارت مياه آل فرعون دماً، لا يستقون من بئر ولا نهر ولا يغترفون من إناء إلا عاد دماً عبيطاً.

هذه كلها من العقوبات، وجنود الله -عز وجل - لا تحصى، وكل شيء له آفة إلا نعيم الجنة، وليس في الدنيا مصلحة خالصة، وإنما هي مشوبة، والمصالح الخالصة في الجنة.

(مسألة): يقول: رجل أتى بوالدته وزوجته من مصر لأداء فريضة الحج، ثم أصيب في ركبته فلا يستطيع الذهاب معهم، فهل يجوز أن يذهبا بدون محرم، علماً بأن خال الزوجة موجود بمكة، ويمكن أن يصطحبها، في المناسك؟

(الجواب): لا بد في السفر من محرم، ودليل ذلك حديث ابن عباس -رضي الله عنهما - قال: جاء رجل إلى النبي -صلى الله عليه وسلم - فقال: يا رسول الله، إني كتبت في غزوة كذا وكذا وامرأتي حاجّة، قال: ((ارجع فحج مع امرأتك))[3] .

(مسألة): هل يصح تحديد آيات معينة تقرأ على المصروع أو الممسوس؟

(الجواب): الرقى باب من أبواب الطب، والأصل في باب الطب الإباحة ما لم يشتمل على شيء محرم، فإذا سلمت الرقى من شيء محرم، أو أمور مبهمة غامضة فلا بأس أن تكون بآيات معينة، إذا دلت التجربة على أنها تؤثر بإذن الله -عز وجل - ولا بأس أن يقرأ الإنسان في كل مقام بحسب ما يناسب المقام، فمثلاً الذي يعاني من الضيق والاكتئاب يقرأ عليه الآيات التي فيها الانشراح، والذي يعاني من الخوف فيمكن أن يُرقى بآيات السكينة، وكان شيخ الإسلام يكتب على جبين من أصيب بالرعاف قول الله -عز وجل - **{وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ}** [(44) سورة هود] فيقف الرعاف بإذن الله -عز وجل[4] -.

---

[3] - رواه البخاري، كتاب الجهاد، باب كتابة الإمام الناس (1114/3)، برقم: (2896).

[4] - نقل عنه ذلك تلميذه ابن القيم – رحمه الله – في زاد المعاد (4 / 326).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأعراف (١٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه تعالى- في تفسير قوله تعالى: {فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ * وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ} [(١٣٦ - ١٣٧) سورة الأعراف].

يخبر تعالى أنهم لما عتوا وتمردوا -مع ابتلائه إياهم بالآيات المتواترة واحدة بعد واحدة- انتقم منهم بإغراقه إياهم في اليم، وهو البحر الذي فرقه لموسى -عليه السلام- فجاوزه وبنو إسرائيل معه، ثم ورده فرعون وجنوده على أثرهم، فلما استكملوا فيه ارتطم عليهم فغرقوا عن آخرهم، وذلك بسبب تكذيبهم بآيات الله وتغافلهم عنها، وأخبر تعالى أنه أورث القوم الذين كانوا يستضعفون -وهم بنو إسرائيل- مشارق الأرض ومغاربها.

وعن الحسن البصري وقتادة في قوله: {مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا} [(١٣٧) سورة الأعراف] يعني الشام.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فالأرض المذكورة في قوله -تبارك وتعالى-: **{وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا}** [(١٣٧) سورة الأعراف]، فيها خلاف على قولين:

الأول: الأرض هي جميع الأرض مشارقها ومغربها، ومعلوم أن الذين كانوا مع موسى -صلى الله عليه وسلم- بعد أن أغرق الله فرعون لم يحصل لهم ملك الأرض جميعاً، ولكن الذي قال بهذا القول قصد به أن ملك الأرض حصل لبني إسرائيل فيما بعد، فقد كان ملك سليمان -عليه الصلاة والسلام- يبلغ ذلك، وعلى هذا لا تكون "أل" في الأرض للعهد.

الثاني: أن "أل" في الأرض عهدية ويبقى النظر في هذه الأرض، هل هي الشام أو فلسطين، أو مصر والشام؟، واختار ابن جرير -رحمه الله- أن الأرض المباركة هي أرض الشام

والتعبير بالإيراث في قوله: **{وَأَوْرَثْنَا}** باعتبار أنها حصلت لهم بعد غيرهم، فالذين كانوا في بلاد الشام هم العمالقة، فجاءها بنو إسرائيل.

ودليل من قال: إن الأرض المباركة هي فلسطين قول الله -تبارك وتعالى-: **{سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ}** [(١) سورة الإسراء].

وقوله: {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ بِمَا صَبَرُواْ} [(١٣٧) سورة الأعراف] قال مجاهد وابن جرير: وهي قوله تعالى: {وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً}[(٥) سورة القصص].

صرح ربنا –تبارك وتعالى - في قوله: {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ} [(١٣٧) سورة الأعراف] وفي قوله: {كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ} [(٥٩) سورة الشعراء] أن القوم الذين أورثهم الأرض هم بنو إسرائيل.

ومعنى قوله –تبارك وتعالى -: {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ} [(١٣٧) سورة الأعراف] أي: مضت على التمام، وقد وعدهم فتم وعده على ما وعد، من غير تخلف ولا نقصان فمكنهم في الأرض، كما قال الله -عز وجل -: {وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ} [(٥ - ٦) سورة القصص].

وقوله: {وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ} [(١٣٧) سورة الأعراف] أي: وخربنا ما كان فرعون وقومه يصنعون من العمارات والمزارع، {وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ} [(١٣٧) سورة الأعراف] قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما - ومجاهد: يعرشون: يبنون.

قال بعض أهل العلم: إن معنى قوله –تبارك وتعالى -: {وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ} [(١٣٧) سورة الأعراف]، أي: من الجنات، كما قال الله -عز وجل -: {جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ} [(١٤١) سورة الأنعام]، والمشهور أن معنى قوله: {وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ} [(١٣٧) سورة الأعراف] أي: يبنون، وذلك معروف في كلام العرب، وهو اختيار ابن جرير –رحمه الله -.

{وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَآئِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَؤُلاء مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [(١٣٨ -١٣٩) سورة الأعراف].

يخبر تعالى عما قاله جهلة بني إسرائيل لموسى -عليه السلام - حينما جاوزوا البحر وقد رأوا من آيات الله وعظيم سلطانه ما رأوا {فَأَتَوْاْ} [(١٣٨) سورة الأعراف] أي فمروا {عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ} [(١٣٨) سورة الأعراف] قال بعض المفسرين: كانوا من الكنعانيين، وقيل: كانوا من لخم، قال ابن جرير: وكانوا يعبدون أصناماً على صور البقر، فلهذا أثار ذلك شبهة لهم في عبادتهم العجل بعد ذلك فقالوا: {يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ} [(١٣٨) سورة الأعراف].

هذه الروايات تستند إلى الأخبار الإسرائيلية، ولا يعتمد عليها.

قوله –تبارك وتعالى -: {يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ} [(١٣٨) سورة الأعراف]، العكوف هو المكث الطويل، أي: أنهم قد اشتغلوا بعبادتها وانكبابهم عليها، وهذه الآية كقوله –تبارك وتعالى -: {مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ} [(٥٢) سورة الأنبياء].

{قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ} [(١٣٨) سورة الأعراف] أي: تجهلون عظمة الله وجلاله وما يجب أن ينزه عنه من الشريك والمثيل، {إِنَّ هَـؤُلاء مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ} [(١٣٩) سورة الأعراف] أي: هالك {وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [(١٣٩) سورة الأعراف].

وروى الإمام أبو جعفر بن جرير في تفسير هذه الآية عن أبي واقد الليثي -رضي الله تعالى عنه- أنهم خرجوا من مكة مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى حنين، قال: وكان للكفار سدرة يعكفون عندها ويعلقون بها أسلحتهم يقال لها: ذات أنواط، قال: فمررنا بسدرة خضراء عظيمة، قال: فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال: ((قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى لموسى: {اجْعَل لَّنَا إِلَـهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَـؤُلاء مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}))[(١)] [(١٣٨ -١٣٩) سورة الأعراف].

{قَالَ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَـهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَونَ يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ} [(١٤٠ -١٤١) سورة الأعراف].

يذكرهم موسى -عليه السلام- نعَمَ الله عليهم من إنقاذهم من أسْر فرعون وقهره، وما كانوا فيه من الهوان والذلة، وما صاروا إليه من العزة والاشتفاء من عدوهم، والنظر إليه في حال هوانه وهلاكه وغرقه ودماره، وقد تقدم تفسيرها في البقرة.

قوله -تبارك وتعالى-: **{وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَونَ يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ}** [(١٤١) سورة الأعراف] يحتمل أن يكون هذا الخطاب خوطب به أولئك الذين عبدوا العجل، فقد ذُكِّروا بنعمة الله -عز وجل- عليهم، وأن أقدامهم لم تجف من ماء البحر حتى طلبوا إلهاً غير الله -عز وجل- وهذا في غاية الإساءة، ويحتمل أن يكون ذلك متوجهاً إلى الذين كانوا في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- من اليهود، فهو يخاطبهم ويذكرهم بنعمة الله -عز وجل- عليهم، والقاعدة أن النعمة على الآباء نعمة على الأبناء، كما أن النقم والرزايا التي تحصل على الآباء تلحق الأبناء إذا كانوا على طريقتهم، ولهذا يرد الخطاب كثيراً في القرآن لبني إسرائيل الذين عاصروا النبي -صلى الله عليه وسلم- **{يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ}** [(٤٧) سورة البقرة].

وهذه الآية كقوله -تبارك وتعالى-: **{وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى}** [(٥٥) سورة البقرة] مع أن الذي قال ذلك هو أجدادهم وأسلافهم، لكن لما كانوا على طريقتهم صح أن يخاطبوا بذلك، فهم أمة واحدة، وهذا اختيار ابن جرير رحمه الله.

والإشارة في قوله -تبارك وتعالى-: **{وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ}** [(١٤١) سورة الأعراف] ترجع إلى الإنجاء، أي: الإنجاء **{بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ}**، وقيل: إن الإشارة راجعة إلى العذاب، والآية تحتمل القولين،

---

[1] - رواه الإمام أحمد في مسنده (٥/٢١٨)، برقم (٢١٩٤٧)، والطبراني في المعجم الكبير (٣/٢٤٤)، برقم (٣٢٩١)، والهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٦ / ٣٨٧)، برقم (١١٠١٦)، وقال: فيه كثير بن عبدالله وقد ضعفه الجمهور وحسن الترمذي حديثه.

أي: في إنجائنا لكم، أو في تعذيبنا لكم بهذا العذاب بلاء من ربكم عظيم، وعبارة ابن جرير جمعت بين المعنيين، فقد فسر قوله: {وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ} أي: بلاء من ربكم أي اختبار لكم وإنعام.

{وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ} [(١٤٢) سورة الأعراف].

يقول تعالى ممتناً على بني إسرائيل بما حصل لهم من الهداية، بتكليمه موسى -عليه السلام - وإعطائه التوراة وفيها أحكامهم وتفاصيل شرعهم، فذكر تعالى أنه واعد موسى ثلاثين ليلة، قال المفسرون: فصامها موسى -عليه السلام - وطواها، فلما تم الميقات استاك بلحاء شجرة، فأمره الله تعالى أن يكمل بعشر أربعين، فلما تم الميقات وعزم موسى الذهاب إلى الطور كما قال تعالى: {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ} [(٨٠) سورة طـه] فحينئذ استخلف موسى -عليه السلام - على بني إسرائيل أخاه هارون، ووصاه بالإصلاح وعدم الإفساد، وهذا تنبيه وتذكير وإلا فهارون -عليه السلام - نبي شريف كريم على الله له وجاهة وجلالة -صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء.

من أهل العلم من يقول: إن موسى -عليه الصلاة والسلام - أُعطي التوراة والألواح، وأن الألواح غير التوراة، والعلم عند الله -عز وجل - وورد في هذا آثار لا تخلو من ضعف، وبعض هذه الأحاديث قد تصل إلى درجة الحسن.

{وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ موسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ} [(١٤٣) سورة الأعراف].

يخبر تعالى عن موسى -عليه السلام - أنه لما جاء لميقات الله تعالى، وحصل له التكليم من الله تعالى، سأل الله تعالى أن ينظر إليه فقال: {رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي} [(١٤٣) سورة الأعراف] حرف "لن" هاهنا على نفي الرؤية في الدنيا؛ لأنه قد تواترت الأحاديث عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم - بأن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة، كما سنوردها عند قوله تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} [(٢٢ -٢٣) سورة القيامة].

معنى {لَن تَرَانِي} [(١٤٣) سورة الأعراف] أي: لن تراني في هذا المقام، أو لن تراني في الدنيا، ولا تفيد "لن" النفي المؤبد.

وقد رد أهل العلم على المعتزلة الذين ينفون رؤية الله -تبارك وتعالى - في الآخرة، واستدلوا عليهم بأدلة كثيرة، فمن ذلك قوله -تبارك وتعالى -: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} [(٢٢-٢٣) سورة القيامة]، ومعنى ناضرة: من النضارة والحسن {إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} [(٢٣) سورة القيامة]، أي: تنظر إلى ربها، والنظر إذا عُدي بإلى فهو النظر بالبصر العين، وإذا عدي بفي فهو النظر بالقلب والفكر، تقول: نظرت في أمرك أي: تفكرت فيه، وفي هذه الآية عداه بإلى.

ومما يدل على أن أهل الإيمان يرون ربهم في الآخرة قول الله -تبارك وتعالى -: {كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ} [(٢٣) سورة القيامة]، فلما حجب عنه أهل السخط والغضب، فأهل الرضا يرونه.

وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم -: ((إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤية))[2]، فلا يلحقكم ضيم، ولا تتزاحمون.

ولم ينكر ربنا -تبارك وتعالى - على موسى -عليه الصلاة والسلام - لما قال له: {رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ} [(١٤٣) سورة الأعراف]، كما أنكر على نوح لما قال: {رَبِّ إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي} [(٤٥) سورة هود] فقال الله -عز وجل - له: {يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ} [(٤٦) سورة هود]، فدل على أن موسى -عليه الصلاة والسلام - لم يطلب محالاً، وليست توبة موسى المذكورة في قوله {تُبْتُ إِلَيْكَ} [(١٤٣) سورة الأعراف]، كانت من ذنب وإساءة.

وفي الكتب المتقدمة أن الله تعالى قال لموسى -عليه السلام -: يا موسى إنه لا يراني حي إلا مات، ولا يابس إلا تدهده، ولهذا قال تعالى: {فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ موسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ} [(١٤٣) سورة الأعراف].

روى الإمام أحمد في مسنده عن أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه - عن النبي -صلى الله عليه وسلم - في قوله: {فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ} [(١٤٣) سورة الأعراف] قال:"قال هكذا -يعني أنه أخرج طرف الخنصر"[3]. وهكذا رواه الترمذي في تفسير هذه الآية ثم قال: هذا حديث حسن صحيح غريب[4]. وهكذا رواه الحاكم في مستدركه من طرق عن حماد بن سلمة به، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه[5].

وقال السدي عن عكرمة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما - في قول الله تعالى: {فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ} [(١٤٣) سورة الأعراف] قال: ما تجلى منه إلا قدر الخنصر، {جَعَلَهُ دَكًّا} [(١٤٣) سورة الأعراف] قال: تراباً {وَخَرَّ موسَى صَعِقًا} [(١٤٣) سورة الأعراف].

قوله: {جَعَلَهُ دَكًّا} [(١٤٣) سورة الأعراف] على قراءة أهل المدينة والبصرة، أي: تراباً مدكوكاً متفتتاً تفتت الجبل، وقرئ {دكاء} بالهمزة، تقول: هذه ناقة دكاء، أي: لا سنام لها.

{وَخَرَّ موسَى صَعِقًا} [(١٤٣) سورة الأعراف] قال: مغشياً عليه، رواه ابن جرير؛ لأن هنا قرينة تدل على الغشي وهي قوله: {فَلَمَّا أَفَاقَ} [(١٤٣) سورة الأعراف] والإفاقة لا تكون إلا عن غشي.

{قَالَ سُبْحَانَكَ} [(١٤٣) سورة الأعراف] تنزيهاً وتعظيماً وإجلالاً أن يراه أحد في الدنيا إلا مات، وقوله: {تُبْتُ إِلَيْكَ} [(١٤٣) سورة الأعراف] **قال مجاهد: أن أسألك الرؤية، {وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ}[(١٤٣) سورة الأعراف]، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما - ومجاهد: من بني إسرائيل، واختاره ابن جرير.**

وفي رواية أخرى عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما -: {وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ} [(١٤٣) سورة الأعراف] أنه لا يراك أحد.

---

[2] - رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) (٢٠٣/١)، برقم (٥٢٩)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما (٤٣٩/١)، برقم: (٦٣٣).

[3] - رواه الإمام أحمد في مسنده (١٩ / ٢٨١)، برقم: (١٢٢٦٠)، وقال محقق المسند: إسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير حماد بن سلمة، فمن رجال مسلم.

[4] - الترمذي، كتاب التفسير، باب سورة الأعراف (٥ / ٢٦٥)، برقم (٣٠٧٤).

[5] - المستدرك على الصحيحين، كتاب التفسير، تفسير سورة الأعراف (٣٥١/٢)، برقم (٣٢٤٩).

وقوله: {وَخَرَّ موسَى صَعِقًا} [(١٤٣) سورة الأعراف] فيه أبو سعيد وأبو هريرة -رضي الله تعالى عنهما - عن النبي -صلى الله عليه وسلم - فأما حديث أبي سعيد -رضي الله تعالى عنه - فأسنده البخاري في صحيحه هاهنا عنه قال: جاء رجل من اليهود إلى النبي -صلى الله عليه وسلم - قد لُطم وجهه، وقال: يا محمد إن رجلاً من أصحابك من الأنصار لطم وجهي، قال: ((ادعوه)) فدعوه، قال: ((لم لطمت وجهه؟)) قال: يا رسول الله، إني مررت باليهودي فسمعته يقول: والذي اصطفى موسى على البشر، قال: قلت: وعلى محمد؟ وأخذتني غضبة فلطمته، فقال: ((لا تخيروني من بين الأنبياء، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور))[6]، وقد رواه البخاري في أماكن كثيرة من صحيحه، ومسلم في أحاديث الأنبياء وأبو داود في كتاب السنة من سننه، وأما حديث أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه - فرواه الإمام أحمد والشيخان بنحوه.

معنى قوله -صلى الله عليه وسلم - ((لا تخيروني من بين الأنبياء))، أي: لا تخيروني تخييراً يؤدي إلى تنقيص غيري من الأنبياء، تعصباً وحمية.

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: أن مِن جهلة المسلمين مَن إذا وقف ورأى النصارى يسبون النبي -صلى الله عليه وسلم - في الحرب، قام بسب عيسى -صلى الله عليه وسلم - وكذلك بعض جهلة أهل السنة إذا سمعوا الرافضة يسبون الشيخين، قاموا بسب علي -رضي الله تعالى عنه - لإغاظتهم، كما قال قائلهم:

سُبوا علياً كما سَبوا عتيقكم *** كفر بكفر وإيمان بإيمان[7].

أما إذا ذكرت فضائل النبي -صلى الله عليه وسلم - لبيان فضله ومنزلته فلا شك أنه أفضل الأنبياء، وقد قال -صلى الله عليه وسلم -: ((أنا سيد ولد آدم))[8].

---

[6] - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب {وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا} [(١٤٣) سورة الأعراف] (١٧٠٠/٤)، برقم (٤٣٦٢)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب في فضائل موسى صلى الله عليه وسلم (١٨٤٤/٤)، برقم (٢٣٧٣).

[7] - انظر: مجموع الفتاوى (٦ / ٢٦).

[8] - رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب تفضيل نبينا -صلى الله عليه وسلم - على جميع الخلائق، (١٧٨٢/٤)، برقم (٢٢٧٨).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأعراف (17)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى - في تفسير قوله تعالى: {قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ *وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ} [(144 - 145)سورة الأعراف].

يذكر تعالى أنه خاطب موسى -عليه السلام - بأنه اصطفاه على أهل زمانه برسالاته تعالى وبكلامه، ولا شك أن محمداً -صلى الله عليه وسلم - سيد ولد آدم من الأولين والآخرين، ولهذا اختصه الله تعالى بأن جعله خاتم الأنبياء والمرسلين الذي تستمر شريعته إلى قيام الساعة، وأتباعه أكثر من أتباع سائر الأنبياء والمرسلين كلهم، وبعده في الشرف والفضل إبراهيم الخليل -عليه السلام - ثم موسى بن عمران كليم الرحمن -عليه السلام - ولهذا قال الله تعالى له: {فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ} [(144)سورة الأعراف]، أي: من الكلام والمناجاة، {وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ} [(144)سورة الأعراف] أي: على ذلك ولا تطلب ما لا طاقة لك به، ثم أخبر تعالى أنه كتب له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء، قيل: كانت الألواح من جوهر وأن الله تعالى كتب له فيها مواعظ وأحكاماً مفصلة مبينة للحلال والحرام، وكانت هذه الألواح مشتملة على التوراة التي قال الله تعالى فيها: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ} [(43) سورة القصص]، وقيل: الألواح أعطيها موسى -عليه السلام - قبل التوراة، والله أعلم.

وقوله: {فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ} [(145)سورة الأعراف]، أي: بعزم على الطاعة، {وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا} [(145) سورة الأعراف].

قال سفيان بن عيينة: حدثنا أبو سعد عن عكرمة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما - قال: أمر موسى -عليه السلام - أن يأخذ بأشد ما أمر قومه.

وقوله: {سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ} [(145) سورة الأعراف] أي: سترون عاقبة من خالف أمري وخرج عن طاعتي، كيف يصير إلى الهلاك والدمار والتباب.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقول الله -تبارك وتعالى -: {يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي} [(145)سورة الأعراف]، يعني: اصطفاه -عليه الصلاة والسلام - على أهل زمانه، والأنبياء -عليهم الصلاة والسلام - هم صفوة قومهم وأفضلهم، فيصطفيهم الله -عز وجل - من بين سائر الناس، ولا يقال: إن هذا الاصطفاء كان بسبب الرسالات والكلام، فقد جاء قبل موسى إبراهيم -عليه الصلاة والسلام - وهو أفضل منه، وأتى بعده النبي -صلى الله عليه وسلم - وهو أفضل منه.

فإن قيل: إن "أل" في الناس للجنس.

نقول: النبي -صلى الله عليه وسلم - اصطفاه الله -عز وجل - برسالاته وبكلامه، فقد كلمه الله -عز وجل - وكلم الله آدم -عليه الصلاة والسلام -.

وقوله -تبارك وتعالى -: {فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ} كقوله: {يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ} [(12) سورة مريم]، يعني: بعزم ودون تراخٍ وتكاسل.

قال: {وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا} فسر الأحسن هنا باعتبار أن أفعل التفضيل على بابها، يعني بالعزائم، وبعضهم قال: {بِأَحْسَنِهَا} يعني: بفعل المأمور واجتناب المنهي.

ويحتمل أن يكون أفعل التفضيل لا يراد على بابه، فكل ما في الرسالة حسن، فأمرهم بالأخذ بها، كما قال الله -عز وجل -: {وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ} [(55) سورة الزمر]، يعني: اتبعوا ما أنزل الله إليكم، باعتبار أن أفعل التفضيل ليست على بابها، والله تعالى أعلم.

وقوله: {سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ} [(145)سورة الأعراف]، فسر الحافظ ابن كثير هذه الآية بتفسير قريب وهو المتبادر -والله أعلم - فقال: **"سترون عاقبة من خالف أمري"**، يعني: سأريكم نهاية الفاسقين وسوء المنقلب والمصير الذي يرجعون إليه.

ومن أهل العلم من نظر إلى لفظة الدار، وأراد أن يفسرها وينزل التفسير عليها، فقال: {دَارَ الْفَاسِقِينَ} يعني: مصر، وهي دار الفراعنة، فقد أغرقهم الله -تبارك وتعالى -، وهذا القول فيه بعد.

وبعضهم يقول: الفراعنة أُهلكوا، في الوقت الذي جاء فيه موسى -عليه الصلاة والسلام - للميقات، وكان هذا بعدما تجاوز موسى وقومه البحر ونجاهم الله -عز وجل - ولهذا قال بعض أهل العلم -ممن أراد أن يحذو هذا الحذو في التفسير -: إن دار الفاسقين هي أرض العمالقة في الشام، بمعنى أن الله -عز وجل - سيُديلهم عليهم ويخذل أولئك ويهزمهم، وتتلاشى دولتهم.

وقول من قال بأن دار الفاسقين هي النار، عائد إلى التفسير الأول، ولهذا قال ابن جرير -رحمه الله -: إن دار الفاسقين هي النار، والله تعالى أعلم.

{سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ *وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَلِقَاء الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [(146- 147) سورة الأعراف].

يقول تعالى: {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ} [(146) سورة الأعراف]، أي: سأمنع فهم الحجج والأدلة الدالة على عظمتي وشريعتي وأحكامي قلوب المتكبرين عن طاعتي ويتكبرون على الناس بغير حق، أي: كما استكبروا بغير حق أذلهم الله بالجهل، كما قال تعالى: {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [(110) سورة الأنعام]، وقال تعالى: {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ} [(5) سورة الصف].

هذا التفسير من الحافظ ابن كثير -رحمه الله - تفسير دقيق، وقد ذكرتُ في مناسبات شتى أن الإنسان قد لا يتبيّن له جودة التفسير وحسنه وما ينطوي عليه من المعاني والدقة إلا إذا قارنه بغيره، أو كان له اطلاع في

كتب التفسير، فيعرف قيمة الكتاب الذي يقرأ فيه، فقال ابن كثير في قوله: {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ} [(146) سورة الأعراف]: **"سأمنع فهم الحجج والأدلة الدالة على عظمتي وشريعتي وأحكامي قلوب المتكبرين"**، وهذا الكلام جمع أنواع الآيات الثلاث، فيحتمل أن يكون المراد بالآيات هي الآيات المنزلة، فلا يفهمها أو لا يؤمن بها، ويحتمل أن يكون المراد الآيات الكونية، ويحتمل أن يكون المراد بها المعجزات، وكل هذه براهين وأدلة تدل على وحدانية الله -عز وجل- وعلى عظمته، فالحافظ ابن كثير جاء بهذه العبارة التي تشمل ذلك جميعاً، **"الأدلة الدالة على عظمتي"**، وهذا يوجد في الآيات الكونية وفي غيرها، **"وشريعتي"** وهذا يوجد في الآيات المنزلة، **"وأحكامي"**، والمعجزات تدل على صحة الشريعة، وصدق من جاء بها.

وقوله -تبارك وتعالى-: {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ} يحتمل أن يكون الصرف بمعنى: الصرف عن الإيمان بها، ويحتمل أن يكون الصرف عن فهمها والانتفاع بها، والقولان بينهما ملازمة، ولا نحتاج إلى ترجيح أحدهما؛ لأن الصرف عن فهم الآيات ملازم للصرف عن الإيمان بها كما كان حال المنافقين الذين يحضرون مع النبي -صلى الله عليه وسلم- ويرون القرآن ينزل، فإذا خرجوا من عند النبي -صلى الله عليه وسلم- قالوا: ماذا قال آنفاً؟ فطبع الله -عز وجل- على قلوبهم وأعماهم، فلا ينتفعون بالآيات المنزلة ولا ينتفعون بالمعجزات.

وحمل الآيات على المعاني الثلاثة التي ذكرتها آنفاً وهي الآيات المنزلة والمعجزات والآيات الكونية هو الراجح -والله أعلم- وهذا اختيار ابن جرير -رحمه الله-.

وفي قوله: {الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ} هذه الصفة لا يستفاد منها التقييد فلا يقال: إن الذين يتكبرون بالحق لا يصرفون عن آيات الله، فالقيد غير معتبر، وإنما هو يكشف عن الأمر الواقع الحاصل، وهو أن كل من تكبر عن آيات الله -عز وجل- فهو متكبر بغير الحق، وهذه الآية كقوله -تبارك وتعالى-: {وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ} [(61) سورة البقرة] فليس هناك أحد يقتل نبياً بحق.

وقال سفيان بن عيينة في قوله: {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ} [(146) سورة الأعراف] قال: أنزع عنهم فهم القرآن وأصرفهم عن آياتي.

قال ابن جرير: وهذا يدل على أن هذا الخطاب لهذه الأمة، قلت: ليس هذا بلازم؛ لأن ابن عيينة إنما أراد أن هذا مطردٌ في حق كل أمة ولا فرق بين أحد وأحد في هذا، والله أعلم.

{سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ} كل من كان متصفاً بهذا الوصف فهو مصروف عن آيات الله -عز وجل- وعن فهمها والإيمان بها، سواء كان في زمن موسى -صلى الله عليه وسلم- أو في زماننا هذا، فإذا قيل: يؤخذ من هذه الآية أن الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق يُصرفون عن فهم القرآن والانتفاع به، فهذا المعنى صحيح.

وقوله: {وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا} [(146) سورة الأعراف]، كما قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ *وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ} [(96 - 97) سورة يونس].

من المعلوم عن علماء الأصول أن "كل" هي أقوى صيغ العموم، فتدخل الأنواع الثلاثة من الآيات التي ذكرناها، وهي: المعجزات والآيات الكونية والآيات المنزلة.

وقوله: {وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً} [(146) سورة الأعراف] أي: وإن ظهر لهم سبيل الرشد، أي: طريق النجاة لا يسلكوها، وإن ظهر لهم طريق الهلاك والضلال يتخذوه سبيلاً، ثم علل مصيرهم إلى هذه الحال بقوله: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا} [(146) سورة الأعراف] أي: كذبت بها قلوبهم، {وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ} [(146) سورة الأعراف]: أي لا يعلمون شيئاً مما فيها.

وقوله: {وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَلِقَاء الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ}، [(147) سورة الأعراف] أي: من فعل منهم ذلك واستمر عليه إلى الممات حبط عمله.

وقوله: {هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}، [(147) سورة الأعراف]، أي: إنما نجازيهم بحسب أعمالهم التي أسلفوها إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وكما تدين تدان.

قوله: {حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ} الحبوط هو: البطلان، يقول النبي -صلى الله عليه وسلم -: ((وإن كل ما أنبت الربيع يقتل حبَطاً أو يلم))[1]، والدابة إذا أكلت كثيراً ولم تجتر هذا الطعام فتنتفخ، ثم بعد ذلك تموت.

لذلك بعض الأمهات تدعو على ولدها إذا قضى حاجته على الأرض، أو ضجرت من كثرة ما تذهب به إلى دورة المياه، فتقول له: حبط، وهي لا تعرف معنى هذا الدعاء، فحبطت أعمالهم بمعنى بطلت، وهذا معنى الحبوط، والله أعلم.

{وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَالِمِينَ * وَلَمَّا سُقِطَ فَي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [(148 -149) سورة الأعراف].

يخبر تعالى عن ضلال من ضلَّ من بني إسرائيل في عبادتهم العجل الذي اتخذه لهم السامري، من حلي القبط الذي كانوا استعاروه منهم، فشكل لهم منه عجلاً، ثم ألقى فيه القبضة من التراب التي أخذها من أثر فرس جبريل -عليه السلام - فصار عجلاً جسداً له خوار، والخوار: صوت البقر.

قوله -تبارك وتعالى -: {وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى} [(148) سورة الأعراف]، الاتخاذ يدل على العناية بهذا الشيء المتخذ، وأضافه إليهم جميعاً مع أن الذي فعل هذا هو السامري؛ لأنهم رضوا به وأقروه وعبدوه فنسب ذلك إليهم، كما أضاف الله -عز وجل - قتل الناقة إلى قوم صالح -عليه الصلاة والسلام - مع أن الله قال: {فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ} [(29) سورة القمر]، وقال: {إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا} [(12) سورة الشمس] .

يقول المفسرون بناء على الروايات الإسرائيلية: إن النساء الإسرائيليات، كنّ يستعرن الحلي، من الفرعونيات فخرجوا ومعهم الحلي، الذي استعاروه، وبعضهم يقول: خرجوا في يوم عيد، ولذلك تجد من أعياد اليهود عيداً يوافق اليوم الذي حصل فيه الاجتياز، فأخذ السامري هذا الحلي وجمعه وصور لهم منه عجلاً، وأخذ قبضة من أثر فرس جبريل -عليه الصلاة والسلام - فألقاها عليه فصار له صوت.

---

[1] - رواه البخاري في كتاب الرقائق -باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها (2362/5)، برقم: (6063)، ومسلم في كتاب الزكاة -باب تخوف ما يخرج من زهرة الدينا (728/2)، برقم: (1052).

والعلماء مختلفون في قوله -تبارك وتعالى -: **{عِجْلاً جَسَدًا}** هل العجل بقي من ذهب، أم أنه صار لحماً ودماً؟، لكن قوله -تبارك وتعالى -: **{عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ}** يدل على أنه لا حياة فيه، فهو مجرد صورة وهيئة دون أن يكون له حياة حقيقية.

{لَّهُ خُوَارٌ}، جاء عن ابن عباس أن الخوار هو الهواء الذي يدخل من فمه ويخرج من دبره فيصوت، وهذا ممكن، والله تعالى أعلم.

وهذا الفعل من الحيل التي يحتال بها السحرة للتلبيس على الناس، فقد ذكر العلماء أن رجلاً جاء إلى بعض اليهود ووجدهم يعظمون قبراً، فلاحظ أن أشجار الزيتون عندهم كثيرة، فكان الطائر يصدر صوتاً معيناً، ثم تأتي الكبار من هذا النوع من الطيور، وتأخذ حب الزيتون وتلقيه عليه، فألقى الشيطان في نفس هذا الإنسان أنه يجعل لهذا الميت قبة، ويجعل فيها فتحة في الأعلى، ويجعل فيها شيئاً يصدر هذا الصوت، مثل صوت الطائر إذا جاء الهواء في أوقات معينة، فكانت تأتي الطيور وتلقي الزيتون على هذه الفتحة التي يصدر منها هذا الصوت، فعظم اعتقادهم به وظنوا أن ذلك لكرامته وولايته ومنزلته عند الله -عز وجل - فهذا السامري ممكن أن يكون فعل هذه الطريقة، والله تعالى أعلم.

وفعل "اتخذ" في قوله تعالى: **{وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا}**، يتعدى إلى مفعولين، فالفعل الأول عجلاً، وأما جسداً فهي صفة له، وحذف المفعول الثاني في جميع المواضع التي ذكرت فيها هذه القصة، وتقديره إلهاً، فلا يتصور ولا يعقل ولا يليق أن يُذكر ويقال: إن العجل قد عُبد من دون الله تعالى، ولهذا السبب حذف المفعول الثاني.

وقد أشار الله -عز وجل - إلى عبادتهم للعجل بقوله: **{فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ}** [(88) سورة طـه].

وكان هذا منهم بعد ذهاب موسى لميقات ربه تعالى، فأعلمه الله تعالى بذلك وهو على الطور، حيث يقول تعالى إخباراً عن نفسه الكريمة: {قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ} [(85) سورة طـه].

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأعراف (18)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى - في تفسير قوله تعالى: {عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ} [سورة الأعراف(148)]: وقد اختلف المفسرون في هذا العجل هل صار لحماً ودماً له خوار، أو استمر على كونه من ذهب إلا أنه يدخل فيه الهواء فيصوت كالبقر؟، على قولين والله أعلم، ويقال: إنهم لما صوت العجل رقصوا حوله وافتتنوا به، وقالوا: {هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ} [سورة طـه(88)]، قال الله تعالى: {أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا} [سورة طـه(89)]، وقال في هذه الآية الكريمة: {أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً} [سورة الأعراف(148)]، ينكر تعالى عليهم في ضلالهم في العجل، وذهولهم عن خالق السماوات والأرض، ورب كل شيء ومليكه، أن عبدوا معه عجلاً جسداً له خوار، لا يكلمهم ولا يرشدهم إلى طريق الخير، ولكن غطى على أعين بصائرهم عمى الجهل والضلالة.

وقوله: {وَلَمَّا سُقِطَ فَي أَيْدِيهِمْ} [سورة الأعراف(149)] أي: ندموا على ما فعلوا، {وَلَمَّا سُقِطَ فَي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا} [سورة الأعراف(149)] وقرأ بعضهم: {لَئِن لَّمْ تَرْحَمْنَا} بالتاء المثناة من فوق، {رَبَّنَا} منادى {وَتَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [سورة الأعراف(149)] أي: من الهالكين، وهذا اعتراف منهم بذنبهم والتجاء إلى الله -عز وجل -.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى -: {وَلَمَّا سُقِطَ فَي أَيْدِيهِمْ} يعني -والله تعالى أعلم - أنهم ندموا على فعلهم، كما قاله الحافظ ابن كثير -رحمه الله -، وهو تفسير قريب، والإنسان إذا ندم يعض على أصابعه، قالوا: فكأن فمه سقط في يده، {سُقِطَ فَي أَيْدِيهِمْ}، قالوا: هذا أصله، وقال آخرون: إن ذلك يعبر به عن القلب والنفس.

وقوله: {سُقِطَ فَي أَيْدِيهِمْ} يعبر به عن القلب والنفس، والعرب تضيف ما يقع للإنسان إلى يده؛ لأن غالب الاكتساب بها.

وقوله: {ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ} [سورة الحـج(10)] تقول: يداك أَوْكتا وفوك نفَخ، فتضيفه إلى اليد، وقالوا: إنّ ما يقع في النفس يظهر على يده، كقوله: {فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا} [سورة الكهف(42)]، وقوله: {وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ} [سورة آل عمران(119)]، فما يقع في نفس الإنسان يظهر على جوارحه، هكذا قال جماعة كالأزهري الإمام المعروف في اللغة، وأبي جعفر النحّاس، وغيرهم، وابن جرير -رحمه الله - يرى أن أصل ذلك من الأخذة والأسر بحيث إنه يُلقى على الأرض وتكتف يداه إلى ظهره، فهذا أصل هذه الكلمة، كما يقال في اليمين: أصلها أن الرجل كان إذا حلف يأخذ بيمين صاحبه تأكيداً للحلف بالفعل، يعني: القول والفعل، ثم بعد ذلك صار يطلق على الحلف بإطلاق وإن لم يكن فيه مثل هذا التصرف،

وهكذا في كثير من الاستعمالات يذكر بعض أهل العلم الأصل في هذا الإطلاق، وقد يكون كذلك وقد لا يكون، فالله تعالى أعلم، فالمقصود بقوله: {وَلَمَّا سُقِطَ فَي أَيْدِيهِمْ}: يعني: ندموا، تقول: فلان فعل كذا وكذا ثم أُسقط في يده، بمعنى أنه لم يحصل مطلوبه، بل حصل عكس ذلك مما يستوجب الندم والتحير والتحسر، والله أعلم.

وقوله: {وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا} يقول: قرأ بعضهم {لَئِن لَّمْ تَرْحَمْنَا} وهي قراءة حمزة والكسائي وهي متواترة، قال: {لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ}: أي: من الهالكين.

والسياق في قوله -تبارك وتعالى-: {وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ} [سورة الأعراف(148)] أخبر عن اتخاذهم العجل، وفي الآية الثانية ذكر ندمهم ومقالتهم، وقالوا ما قالوا بعدما رجع موسى -صلى الله عليه وسلم-، ونهاهم عن هذا، ولذلك قال بعدها: {وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِيَ} [سورة الأعراف(150)]، فالأسف والندم وقع لهم حينما قالوا: {لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا} بعد مجيء موسى -صلى الله عليه وسلم- فقدّمه هنا، فهذا من المقدم الذي حقه التأخير، ولكنه قُدم لنكتة، فمن أهل العلم من يقول: إنه قدم من أجل أن يجمع القول والفعل.

قوله: {وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا} هذا فعلهم وصنيعهم السيئ، وما الذي صدر منهم أيضاً؟ صدر منهم قول وهو: {لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا} ندموا على هذا، فجمع ما يتعلق بهم هنا، ثم ذكر مجيء موسى -عليه الصلاة والسلام- كما قال الله -عز وجل- في سورة البقرة في قصة البقرة لما قال: {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً} [سورة البقرة(67)]، ثم ذكر أوصافها، ثم قال: {وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا} [سورة البقرة(72)]، فهذا القتل للنفس والتدارؤ -يعني التدافع، هؤلاء يقولون: هؤلاء قتلوها، وهؤلاء يقولون: هؤلاء قتلوها- حصل قبل مجيء موسى -عليه الصلاة والسلام-، وهو سبب الأمر لهم بذبح البقرة فأُخّر.

{وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِيَ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأعْدَاء وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [سورة الأعراف(150- 151)].

يخبر تعالى أن موسى -عليه السلام- لما رجع إلى قومه من مناجاة ربه تعالى وهو غضبان أسف، قال أبو الدرداء -رضي الله تعالى عنه-: الأسف أشد الغضب.

{قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِيَ} يقول: بئسما صنعتم في عبادة العجل بعد أن ذهبت وتركتكم.

وقوله: {أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ} يقول: استعجلتم مجيئي إليكم، وهو مقدر من الله تعالى.

قوله: {أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ} استعجلتم مجيئي إليكم، وهو مقدر من الله، وقيل: {أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ} يعني: الميعاد الذي وعده الله -عز وجل- موسى -صلى الله عليه وسلم-، {وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ} [سورة الأعراف(142)]، فهو الأربعون، ومن أهل العلم من يقول: {أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ}: أي: سخَط الرب -تبارك وتعالى-، وهذا فيه بعد، والله أعلم.

وقوله: {وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ}، وفي هذا دلالة على ما جاء في الحديث: ((ليس الخبر كالمعاينة))[1].

يعني أن الله أخبر موسى -صلى الله عليه وسلم- بأنه فتن قومه من بعده وأضلهم السامري، وموسى -عليه الصلاة والسلام- على الطور، فما ألقى الألواح، فلما وصل إليهم ورآهم يعبدون العجل ألقى الألواح.

ثم ظاهر السياق أنه إنما ألقى الألواح غضباً على قومه، وهذا قول جمهور العلماء سلفاً وخلفاً.

وقوله: {وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ} خوفاً أن يكون قد قصر في نهيهم، كما قال في الآية الأخرى: {قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي * قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي} [سورة طـه(92-94)]، **وقال هاهنا: {ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأعْدَاء وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}** [سورة الأعراف(150)] **أي: لا تسُقْني مساقهم ولا تخلطني معهم، وإنما قال ابن أم ليكون أرق وأنجع عنده، وإلا فهو شقيقه لأبيه وأمه.**

من أهل العلم من قال: إنه شقيقه، ومنهم من قال: إنه لأمه، لكن المشهور أنه شقيقه، وذكر بعض المؤرخين أن هارون -عليه الصلاة والسلام- كان أكبر سناً من موسى -عليه الصلاة والسلام-، وكان ليناً مع بني إسرائيل، ولذلك كانوا يركنون إليه ويميلون إليه، هكذا قال بعض المؤرخين، وقوله -تبارك وتعالى-: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا}** [سورة الأحزاب(69)]، مما ذكر فيه أن هارون -عليه الصلاة والسلام- حينما مات زعم من زعم من بني إسرائيل أن موسى -صلى الله عليه وسلم- هو الذي قتله، قالوا: لأنك تحسده لميل قومه إليه لطبعه، فموسى -صلى الله عليه وسلم- كان يعاملهم بالحزم؛ ولذلك لما رجع انتهت المشكلة، بينما هارون -عليه الصلاة والسلام- كما قال: **{إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأعْدَاء}**، وهذا فيه عبرة، فهارون نبي من خيار الخلق، وقومه على قول هؤلاء المؤرخين يميلون إليه ومع ذلك يقول: **{فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأعْدَاء}**؛ لأنه ما يسلم أحد، مهما عامل الناس بلطف ومداراة ومراعاة لهم، وقومه هم بنو إسرائيل، وهم الذين خرجوا ونجوا وكانوا في صحبته، منهم مَن يشمتون به ويعادونه ويتهكمون به إذا حصل مثل هذا.

فلما تحقق موسى -عليه السلام- براءة ساحة هارون -عليه السلام-، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي} [سورة طـه(90)]، **فعند ذلك قال موسى -عليه السلام-: {رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}** [سورة الأعراف(151)].

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يرحم الله موسى ليس المعاين كالمخبَر، أخبره ربه -عز وجل- أن قومه فُتنوا بعده فلم يلق الألواح فلما رآهم وعاينهم ألقى الألواح))[2].

---

1 - رواه أحمد في المسند من حديث ابن عباس رضي الله عنهما(341/3)، برقم (1842)، وقال محققوه: حديث صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (5373).

{إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ * وَالَّذِينَ عَمِلُواْ السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِهَا وَآمَنُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} [سورة الأعراف(152 -153)].

أما الغضب الذي نال بني إسرائيل في عبادة العجل فهو أن الله تعالى لم يقبل لهم توبة حتى قتل بعضهم بعضاً، كما تقدم في سورة البقرة: {فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [سورة البقرة(54)]، وأما الذلة فأعقبهم ذلك ذلاً وصغاراً في الحياة الدنيا.

وقوله: {وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ} نائلة لكل من افترى بدعة، فإن ذل البدعة ومخالفة الرسالة متصلة من قلبه على كتفيه، كما قال الحسن البصري: إن ذل البدعة على أكتافهم وإن هملجت بهم البغلات وطقطقت بهم البراذين. وهكذا روى أيوب السختياني عن أبي قلابة الجرمي أنه قرأ هذه الآية: {وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ} فقال: هي والله لكل مفترٍ إلى يوم القيامة. وقال سفيان بن عيينة: كل صاحب بدعة ذليل.

فكل من خالف أمر الله –عز وجل- كأصحاب البدع والمعاصي فإن ذلك يكون نقصاً في عزتهم، فعلى قدر اتباع الإنسان واستقامته يكون له من العزة والهيبة بحسب حاله، فالناس يتفاوتون في هذا تفاوتاً كبيراً.

وقوله: {وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ} الله -عز وجل- يذكر الحكم خاصاً في قضية من القضايا، فإذا كان الجزاء لا يختص بهؤلاء فأراد أن يعممه جاء بالحكم العام بعده؛ لئلا يفهم أن ذلك يختص بهم، فلم يقل: وكذلك نجزيهم، بل قال: {وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ}، أي: لكل من افترى -وليس هؤلاء- الذل والصغار والعذاب، وهكذا في مواضع كثيرة في القرآن يذكر قضية خاصة ثم يعقبها بحكم عام {وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ} [سورة الأعراف(41)] ونحو ذلك، ليشمل هؤلاء الذين فعلوا هذا الفعل، وغيرهم ممن شابههم، كما قال الله -عز وجل-: {وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ} [سورة هود(83)].

ثم نبه تعالى عباده وأرشدهم إلى أنه يقبل توبة عباده من أي ذنب كان، حتى ولو كان من كفر أو شرك أو نفاق أو شقاق، ولهذا عقب هذه القصة بقوله: {وَالَّذِينَ عَمِلُواْ السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِهَا وَآمَنُواْ إِنَّ رَبَّكَ} [سورة الأعراف(153)] أي: يا محمد يا رسول التوبة ونبي الرحمة، {مِن بَعْدِهَا}: أي من بعد تلك الفعلة، {لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ}.

وروى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- أنه سئل عن ذلك، يعني: عن الرجل يزني بالمرأة ثم يتزوجها، فتلا هذه الآية: {وَالَّذِينَ عَمِلُواْ السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِهَا وَآمَنُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} [سورة الأعراف(153)]، فتلاها عبد الله -رضي الله تعالى عنه- عشر مرات، فلم يأمرهم بها ولم ينههم عنها[3].

{وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ} [سورة الأعراف(154)].

---

2 - رواه الحاكم في المستدرك برقم (3435)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه، كتاب التفسير، تفسير سورة طه، وابن حبان في صحيحه برقم(6214) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

3 - رواه البيهقي في السنن الكبرى (13664)، كتاب النكاح، باب ما يستدل به على قصْر الآية على ما نزلت فيه أو نسخها، وابن سعد في الطبقات (200/6)، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح، عمدة التفسير (61/2).

يقول تعالى: {وَلَمَّا سَكَتَ}: أي سكن، {عَن مُّوسَى الْغَضَبُ}: أي غضبه على قومه، {أَخَذَ الأَلْوَاحَ}: أي التي كان ألقاها من شدة الغضب على عبادتهم العجل غيرة لله وغضباً له، {وفي نسختها هدى ورحمة}.

قوله:{وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ} أي: سكن، ويقال: جرى الوادي ثم سكت، أي: سكن، يعني عن جريانه، فكأن الغضب كان يدفعه ويحركه إلى أن يقول لهم ما قال، وأن يفعل ما فعل، ثم بعد ذلك سكت، ومن أهل العلم من يقول: هذا من القلب في اللغة، يقولون: {سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ} يعني: سكت موسى عن الغضب، والله أعلم.

ولا حاجة لهذا، وإن كان يتأتى في بعض الصور وبعض الأمثلة، كأن تقول: أدخلت الخاتم بأصبعي، وأدخلت أصبعي بالخاتم، هذا لا إشكال فيه، يقولون: هذا قلب، لكن {سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ}: أي سكن وهدأ.

{وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ} يقول كثير من المفسرين: إنها لما ألقاها تكسرت، ثم جمعها بعد ذلك.

قوله: {وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ} من أهل العلم من يقول: {وَفِي نُسْخَتِهَا} يعني: فيما نسخ له من اللوح المحفوظ، {فِي نُسْخَتِهَا} لماذا سميت نسخة؟ أصل النسخ يأتي لمعنيين، أحد هذين المعنيين: هو النقل، بنوعيه: النقل مع ذهاب الأصل، كتناسخ الأرواح، وهي عقيدة فاسدة باطلة، يعتقدون أن الروح تنتقل من هذا إلى هذا، والنقل مع بقاء الأصل، تقول: نسخت الكتاب، فهذه نسخة والأصل يبقى، فقوله: {وَفِي نُسْخَتِهَا} يقولون: مما نسخ من اللوح المحفوظ، أي أنها نسخت من اللوح المحفوظ فقيل لها ذلك.

قوله: {وَفِي نُسْخَتِهَا}: أي: وفيما كتب له فيها هدىً ورحمة، والنسخ هو الكتابة، وهذا اختيار ابن جرير، ومن أهل العلم من يقول: {وَفِي نُسْخَتِهَا} ما نسخ من الألواح المتكسرة، وهذا فيه بعد، ليس المقصود {وَفِي نُسْخَتِهَا}: أي ما نسخ من الألواح المتكسرة، والله تعالى أعلم.

يقول كثير من المفسرين: إنها لما ألقاها تكسرت ثم جمعها بعد ذلك.

قوله: {إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ} [سورة البقرة(248)] يعني: مما ترك موسى وهارون، فالآل يطلق أحياناً على ذات الشخص {إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ} [سورة آل عمران(33)] يعني: إبراهيم وعمران على قول بعض المفسرين، فمن أهل العلم من يقول: إن الذي كان في التابوت هو ما ترضض من هذه الألواح، والعلم عند الله -عز وجل-.

وكان بنو إسرائيل ينقلونه معهم في حروبهم ومعاركهم، وكانوا يضعونه ويصلون إليه، ثم صاروا يضعونه على الصخرة إذا كانوا في البلد ثم يصلون إليه، ثم بعد ذلك صاروا يصلون إلى الصخرة، والله أعلم.

يقول كثير من المفسرين: إنها لما ألقاها تكسرت ثم جمعها بعد ذلك، ولهذا قال بعض السلف: فوجد فيها هدى ورحمة وأما التفصيل فذهب، وزعموا أن رضاضها لم يزل موجوداً في خزائن الملوك لبني إسرائيل إلى الدولة الإسلامية، والله أعلم بصحة هذا، وأما الدليل القاطع على أنها تكسرت حين ألقاها وهي من جوهر الجنة، فقد أخبر تعالى أنه لما أخذها بعدما ألقاها وجد فيها {هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ} [سورة الأعراف(154)] ضمن الرهبة معنى الخضوع، ولهذا عداها باللام.

الرهبة تتعدى بنفسها تقول: فلان يرهب فلاناً، لكن حينما تقول: يرهب لفلان، فيقال بتضمين الحرف معنى الحرف، كما عليه كثير من أهل اللغة، ومعلوم أن تضمين الفعل وما في معناه أبلغ؛ لأن ذلك يكون أوسع في المعنى، والقرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة.

وقوله: {لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ} الرهبة: شدة الخوف، الخوف الشديد يقال له: رهبة، فضُمن معنى الخضوع، يرهبون مع خضوع، فالخضوع يعدى باللام، يقال: خضع فلان لفلان، وتقول: هو يرهبه، فعُدى بنفسه، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأعراف (19)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله - تعالى في تفسير قوله تعالى: {وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاء مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاء وَتَهْدِي مَن تَشَاء أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ * وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ} [سورة الأعراف(155 -156)].

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما - في تفسير هذه الآية: كان الله أمره أن يختار من قومه سبعين رجلاً، فاختار سبعين رجلاً فبرز بهم ليدعوا ربهم، وكان فيما دعوا الله أن قالوا: اللهم أعطنا ما لم تعطه أحداً قبلنا ولا تعطه أحداً بعدنا، فكره الله ذلك من دعائهم، فأخذتهم الرجفة، قال موسى: {رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ} الآية.

وقال السدي: إن الله أمر موسى أن يأتيه في ثلاثين من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل، ووعدهم موعدا، {وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً} على عينيه، ثم ذهب بهم ليعتذروا، فلما أتوا ذلك المكان، قالوا: لن نؤمن لك يا موسى حتى نرى الله جهرة، فإنك قد كلمته فأرناه، فأخذتهم الصاعقة، فماتوا، فقام موسى يبكي ويدعو الله ويقول: رب ماذا أقول لبني إسرائيل إذا لقيتهم وقد أهلكت خيارهم، {رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ}.

وقال محمد بن إسحاق: اختار موسى من بني إسرائيل سبعين رجلاً الخيّرَ فالخيّرَ، وقال: انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتم وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم، صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم، فخرج بهم إلى طور سينا؛ لميقات وقّته له ربه، وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم، فقال السبعون -فيما ذكر لي حين صنعوا ما أمرهم به، وخرجوا معه للقاء ربه - لموسى: اطلب لنا نسمع كلام ربنا، فقال: أفعل، فلما دنا موسى من الجبل، وقع عليه عمود الغمام حتى تغشّى الجبل كله، ودنا موسى فدخل فيه، وقال للقوم: ادنوا، وكان موسى إذا كلمه الله وقع على جبهة موسى نور ساطع، لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه، فضرب دونه بالحجاب، ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجوداً، فسمعوه وهو يكلم موسى يأمره وينهاه افعل ولا تفعل، فلما فرغ إليه من أمره انكشف عن موسى الغمام، فأقبل إليهم فقالوا: {يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً} [سورة البقرة(55)]، {فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ} [سورة الأعراف(78)]، وهي الصاعقة، فافتُلتتْ أرواحهم فماتوا جميعاً، فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه ويقول: {رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ} قد سفهوا، أفتهلك مَن ورائي من بني إسرائيل.

وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما - وقتادة ومجاهد وابن جرير: إنهم أخذتهم الرجفة لأنهم لم يزايلوا قومهم في عبادة العجل ولا نهوهم، ويتوجه هذا القول بقول موسى: {أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاء مِنَّا}، وقوله: {إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ}.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى -: **{وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً}** أي: اختار من قومه سبعين رجلاً، **{لِّمِيقَاتِنَا}** أي: للموعد والوقت الذي وقّته الله -عز وجل - له لتكليمه ومناجاته، **{فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ}**، الرجفة هي: الزلزلة الشديدة، وفي سورة البقرة **{فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ}** [سورة البقرة(55)].

وقوله: **{قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاء مِنَّا}** الأقوال التي ذكرها الحافظ ابن كثير عن جماعة من السلف فمن بعدهم ليس فيها شيء تقوم به حجة؛ لأنها من الإسرائيليات، والأمور الغيبية لا تتلقى من مثل هذه الروايات، بل تحتاج إلى خبر عن المعصوم -عليه الصلاة والسلام -، وهذه القضايا لا يدخلها الاجتهاد، فاختيار الموعد والميقات وسبب صعقهم قد يكون بسبب قولهم: اللهم أعطنا ما لم تعطه أحداً قبلنا، ولا تعطه أحداً بعدنا، أو بسبب أنهم طلبوا رؤية الله -عز وجل - لما سمعوه يكلم موسى طمعوا في الرؤية، ويكون هذا المقام هو المذكور في سورة البقرة **{وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ}** [سورة البقرة(55)]، أو أن هؤلاء لما سمعوه يأمر موسى وينهاه قالوا: سمعناه يقول كذا وكذا وكذا ثم قال: إن شئتم فافعلوا، وإن شئتم فلا تفعلوا، فبدلوا وغيروا وهم على الطور، أو أن هؤلاء جاءوا للاعتذار من عبادة العجل، والتوبة إلى الله -تبارك وتعالى - كما قاله بعض السلف وهو اختيار ابن جرير، فهذا كله يحتمل، أو أخذتهم الرجفة؛ لأنهم لم يزايلوا عبادة العجل، لم يفارقوهم ويفاصلوهم، وإنما بقوا معهم ينتظرون حتى رجع موسى -عليه الصلاة والسلام -، فهؤلاء خيارهم، قال: ولم يزايلوهم فعاقبهم الله -عز وجل - بهذا، وهكذا قوله: **{أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاء مِنَّا}**، وهنا قد يكون إشكال وهو أن هؤلاء وهم خيار بني إسرائيل، أمة عظيمة جداً يختار منها في زمن موسى -عليه الصلاة والسلام -، والذي يصطفيهم هو نبي الله صلى الله عليه وسلم - مؤيداً بالوحي، ثم بعد ذلك يكونون سفهاء، **{أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاء مِنَّا}**، هذا باعتبار أن الصاعقة أو الرجفة التي وقعت بسبب سؤال هؤلاء عما لا يليق، إما بسبب سؤال الرؤية، أو بسبب سؤالهم أن يعطيهم ما لم يعطِ أحدا قبلهم أو بعدهم، أو أن قولهم: **{أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاء مِنَّا}** أي: الذين عبدوا العجل، ولعل هذا أقرب -والله أعلم -، وتكون الرجفة بسبب ما وقع من عبادة العجل، يبينه أن موسى -عليه الصلاة والسلام - قال: **{أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاء مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ}**، والله -عز وجل - يقول لموسى -صلى الله عليه وسلم - قبل ذلك: **{فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ}** [سورة طـه(85)]، فهنا يقول: **{إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ}**، فالله يضل من يشاء ويهدي من يشاء، فلو قال قائل: إن هذا القول هو أقرب هذه الأقوال، وإن هذه الرجفة وقعت بسبب هذا، لم يكن ذلك بعيداً، لكنه يحتمل غير هذا أيضاً، والقطع والجزم في مثل هذا يصعب؛ لأنه قد يكون بسبب سؤالهم كما قال الله -عز وجل -: **{وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ}** [سورة البقرة(55)] وكل هذا من تفسير القرآن

بالقرآن، فيحتمل أن يكون المراد بهذا الموطن هو المشار إليه في سورة البقرة، ويحتمل غيره، فمن أهل العلم من يقول: هو نفسه، الرجفة بسبب سؤالهم الرؤية، فالعلم عند الله -عز وجل -، ومثل هذا لا شك أنه وقع بسبب إساءة وذنب، فكان عقوبة لهم، أما تحديد السبب ما هو، فمثل هذا بالنسبة إلينا لا يترتب عليه عمل، وليس من الصواب الدخول في مزيد من التفصيلات، وليس عندنا فيها مستند، -والله أعلم -.

وقوله: {إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ}: أي: ابتلاؤك واختبارك وامتحانك، قاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما -، وسعيد بن جبير وأبو العالية والربيع بن أنس، وغير واحد من علماء السلف والخلف، ولا معنى له غير ذلك، يقول: إن الأمر إلا أمرك، وإن الحكم إلا لك، فما شئت كان، تضل من تشاء وتهدي من تشاء، ولا هادي لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، فالملك كله لك، والحكم كله لك، لك الخلق والأمر.

وقوله: {أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ} الغفر: هو الستر وترك المؤاخذة بالذنب، والرحمة إذا قرنت مع الغفر يراد بها ألا يوقعه في مثله في المستقبل، {وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ}: أي لا يغفر الذنب إلا أنت.

{وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ} الفصل الأول من الدعاء لدفع المحذور، وهذا لتحصيل المقصود، {وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ}: أي: أوجب لنا وأثبت لنا فيهما حسنة، وقد تقدم تفسير الحسنة في سورة البقرة.

{إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ}: أي تبنا ورجعنا وأنبنا إليك، قاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما - وسعيد بن جبير ومجاهد وأبو العالية والضحاك وإبراهيم التيمي والسدي وقتادة وغير واحد، وهو كذلك لغة.

قوله: **{أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا}** [سورة الأعراف (155)]، قال: الغفر هو الستر وترك المؤاخذة، هو كذلك يتضمن أمرين، إذا قلت: رب اغفر لي، يعني أنك تطلب الستر وعدم الفضيحة، والتجاوز عن الذنب، وعدم المؤاخذة، والوقاية من شؤم المعصية، كما يقال: المغفَر للذي يستر الرأس ويقي لابسه من الضرب، قال: **{وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ}**، **{فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا}** يقول: والرحمة إذا قرنت مع الغفر، يراد بها ألا يوقعه في مثله في المستقبل، هذا جزء من الرحمة، من رحمة الله -عز وجل - بالعبد، الغفر: ستر الذنب وعدم المؤاخذة به، والرحمة أعم من هذا، فستره وعدم المؤاخذة به من الرحمة، **{وَارْحَمْنَا}** معناه أن يفيض عليهم ألوان الإفضال في الدنيا والآخرة **{فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا}**، فيهدي قلوبهم، ويصلح أحوالهم، ويدخلهم الجنة ويباعدهم من النار، يرفع لهم الدرجات، كل هذا داخل في الرحمة، فالعبد لا يستغني عن رحمة الله -عز وجل -، فطلبوا السلامة من آفة هذا الذنب وتبعته، وطلبوا أمراً أكبر من هذا وهو الرحمة العامة الشاملة التي تحصل لهم في الدنيا والآخرة، يقول: **{وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً}**، يقول: تقدم تفسير الحسنة في البقرة، الحسنة كل ما يُسرّ به الإنسان في الدنيا والآخرة من إفضال الله وإنعامه من النصر والتمكين، وكل ألوان الفلاح فذلك من الحسنات، **{مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ}** [سورة النساء(79)]، وكذلك في الآخرة دخول الجنة، والسيئة: كل ما يسوء الإنسان في الدنيا والآخرة، **{إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ}** من هاد يهود إذا رجع، يا أيها المذنب هدْ هدْ، يعني: ارجع ارجع، قالوا: **{إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ}**: يعني رجعنا إليك، **{قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا}** [سورة الجمعة(6)] سُموا بذلك

لتوبتهم العظيمة المعروفة في التاريخ التي قصها القرآن -كما قاله بعض العلماء - والله تعالى أعلم -، وذلك حينما عبدوا العجل فكانت توبتهم كما ذكر الله في سورة البقرة {فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ} [سورة البقرة(54)]، فصار يقتل بعضهم بعضاً، اقتلوا أنفسكم، أي: ليقتل بعضكم بعضاً، فقُتل منهم خلق كثير، جاء في بعض المرويات عن بعض السلف -وهي من المأخوذ عن بني إسرائيل - أنه قُتل منهم في يوم واحد سبعون ألفاً، حيث ألقي عليهم الغمام، فكان الرجل يضرب وجه أبيه بالسيف، وأقرب الناس إليه، فحصلت فيهم مقتلة عظيمة، حتى رفع الله ذلك عنهم وتاب عليهم، وقبل توبتهم.

{قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاء وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ} [سورة الأعراف(156)].

يقول تعالى مجيباً لنفسه في قوله: {إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ} الآية، قال: {عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاء وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ}: أي أفعل ما أشاء، وأحكم ما أريد، ولي الحكمة والعدل في كل ذلك، سبحانه لا إله إلا هو.

وقوله تعالى: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ} آية عظيمة الشمول والعموم، كقوله تعالى إخباراً عن حملة العرش ومن حوله أنهم يقولون: {رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا} [سورة غافر(7)]، وروى الإمام أحمد عن جندب وهو ابن عبد الله البجلي -رضي الله تعالى عنه - قال: جاء أعرابي فأناخ راحلته ثم عقلها، ثم صلى خلف رسول الله -صلى الله عليه وسلم - فلما صلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم - أتى راحلته فأطلق عقالها ثم ركبها ثم نادى: اللهم ارحمني ومحمداً ولا تشرك في رحمتنا أحداً، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم -: ((أتقولون هذا أضل أم بعيره؟ ألم تسمعوا ما قال؟)) قالوا: بلى، قال: ((لقد حظرْتَ رحمة الله واسعة، إن الله -عز وجل - خلق مائة رحمة فأنزل رحمة يتعاطف بها الخلق جنها وإنسها، وبهائمها، وعنده تسعٌ وتسعون، أتقولون هو أضل أم بعيره؟))[1]، رواه أحمد وأبو داود.

هذا الحديث في إسناده ضعف، لكن بعض ما ورد فيه يوجد من الصحيح ما يشهد له، مثل، أصل الخبر، خبر الأعرابي الذي بال في المسجد، فزجروه ونهروه، والنبي -صلى الله عليه وسلم - قال: **((لا تُزْرِموه بوله))**[2] ثم علّمه: أن هذه المساجد لا تصلح لشيء من أذى الناس، الشاهد أن الرجل قال: اللهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم أحداً معنا، وقال له النبي -صلى الله عليه وسلم -: **((لقد حجرت واسعاً))**[3] أو كما قال -عليه الصلاة والسلام -، وكذلك في الرحمة خلق مائة رحمة.

---

1 - رواه أحمد في المسند برقم(18322)، واللفظ له، وقال محققوه: إسناده ضعيف لاضطرابه، وأبو داود برقم (4885)، كتاب الأدب، باب من ليست له غيبة، وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود برقم (1041).

2 - رواه البخاري برقم(5679)، كتاب الأدب، باب الرفق في الأمر كله، ومسلم برقم (285)، كتاب الطهارة، باب وجوب غسل البول وغيره من النجاسات إذا حصلت في المسجد وأن الأرض تطهر بالماء من غير حاجة إلى حفرها.

3 - رواه البخاري برقم(5664)، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم.

وروى الإمام أحمد أيضاً عن سلمان -رضي الله تعالى عنه - عن النبي -صلى الله عليه وسلم - قال: ((إن لله -عز وجل - مائة رحمة، فمنها رحمة يتراحم بها الخلق، وبها تعطف الوحوش على أولادها، وأخّر تسعة وتسعين إلى يوم القيامة))[4]. تفرد بإخراجه مسلم.

وقوله: {فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ} الآية، يعني: فسأوجب حصول رحمتي منّة مني وإحساناً إليهم كما قال تعالى: {كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ} [سورة الأنعام(54)]، وقوله: {لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ}: أي سأجعلها للمتصفين بهذه الصفات، وهي أمة محمد -صلى الله عليه وسلم -، {لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ}: أي الشرك والعظائم من الذنوب.

قوله: {وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ} قيل: زكاة النفوس، وقيل الأموال، ويحتمل أن تكون عامة لهما، فإن الآية مكية، {وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ}: أي: يصدقون.

وقوله:{وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ} قال قوم: المقصود زكاة النفوس، فيكون كقوله تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى} [سورة الأعلى(14)]، باعتبار أن الزكاة لم تفرض إلا في المدينة، ولا إشكال أن يفسر ذلك في الزكاة؛ لأن الزكاة فرضت في المدينة هذا على القول بأن الزكاة لم تفرض بمكة، والراجح -والله أعلم - أن أصل الزكاة فرض بمكة، وأن تفاصيل الزكاة كان في المدينة، ففي سورة الأنعام {وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ} [سورة الأنعام(141)]، فالذين قالوا: المقصود زكاة النفوس، قالوا: لأن الزكاة لم تفرض أصلاً بمكة والسورة مكية، ومن أهل العلم من ينحو منحىً آخر في مثل هذا، فيقول: هذه الآية مدنية، ويخرج من هذا الإشكال، وهو ليس بإشكال في الواقع، ويمكن أن يقال: هذا مما نزل قبل فرض الحكم، على فرض أن الزكاة فرضت بالمدينة، والخطاب في قوله: {فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ} لموسى -عليه الصلاة والسلام -، وهو يشمل هؤلاء من بني إسرائيل، ويشمل كل من كان متصفاً بهذه الأوصاف.

---

4 - رواه مسلم برقم (**2752**)، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، وأحمد في المسند برقم(**9607**)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم رجاله ثقات رجال الشيخين غير عبد الملك فمن رجال مسلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأعراف (20)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى - في تفسير قوله تعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [(157) سورة الأعراف].

{الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ}، [(157) سورة الأعراف]، وهذه صفة محمد -صلى الله عليه وسلم - في كتب الأنبياء، بشروا أممهم ببعثه وأمروهم بمتابعته، ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم، يعرفها علماؤهم وأحبارهم، كما روى الإمام أحمد عن أبي صخر العقيلي -رضي الله تعالى عنه - حدثني رجل من الأعراب قال: جلبت حلوبة إلى المدينة في حياة رسول الله -صلى الله عليه وسلم - فلما فرغت من بيعي قلت: لألقين هذا الرجل فلأسمعن منه، قال: فتلقاني بين أبي بكر وعمر يمشون، فتبعتهم حتى أتوا على رجل من اليهود، ناشراً التوراة يقرؤها يعزي بها نفسه عن ابن له في الموت كأجمل الفتيان وأحسنها، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم -: ((أنشدك بالذي أنزل التوراة، هل تجد في كتابك هذا صفتي ومخرجي؟)) فقال برأسه هكذا، أي لا، فقال ابنه: إي، والذي أنزل التوراة إنا لنجد في كتابنا صفتك ومخرجك، وإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله، فقال: ((أقيموا اليهودي عن أخيكم، ثم تولى كفنه والصلاة عليه))[1]. هذا حديث جيد قوي، له شاهد في الصحيح عن أنس -رضي الله تعالى عنه -.

وروى ابن جرير عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو -رضي الله تعالى عنهما - فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله -صلى الله عليه وسلم - في التوراة، قال: "أجل، والله إنه لموصوف في التوراة كصفته في القرآن: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخّاب في الأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله، ويفتح به قلوباً غلفاً وآذاناً صماً وأعيناً عمياً، قال عطاء: ثم لقيت كعباً فسألته عن ذلك، فما اختلف حرفاً إلا أن كعباً قال بلغته قال:

---

[1] - رواه الإمام أحمد برقم : (23539) (411/5)

قلوباً غلوفياً وآذاناً صمومياً وأعيناً عمومياً"[2]. وقد رواه البخاري في صحيحه وزاد بعد قوله: "ليس بفظ ولا غليظ": "ولا سخّاب في الأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح"[3].

وذكر حديث عبد الله بن عمرو -رضي الله تعالى عنهما، ثم قال: ويقع في كلام كثير من السلف إطلاق التوراة على كتب أهل الكتاب، وقد ورد في بعض الأحاديث ما يشبه هذا والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

بعد أن ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- بعض الآثار في التبشير ببعثة النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: **"ثم يقع في كلام كثير من السلف إطلاق التوراة على كتب أهل الكتاب"**، وهذا جواب على إشكال وارد، وهو أن هذه الآثار قد لا توجد في التوراة؛ لأن العلماء يطلقون التوراة على كتب أهل الكتاب كلها، وهذه الكتب قد حرفت وفي نسخها تباين كبير، وقد سبق الكلام على هذه المسألة عند تفسير قول الله تعالى: **{تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا}** [(91) سورة الأنعام]، والراجح في هذه الكتب أنها محرفة، ولا يعني هذا أن ناقل هذه الروايات كذاب، ككعب الأحبار وغيره من الرواة.

وقد اعتنى غير واحد من علماء التفسير بنقل المبشرات ببعثة النبي -صلى الله عليه وسلم- فقد ذكر الرازي عند قول الله -تبارك وتعالى-: **{وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ}** [(6) سورة الصف] بعض هذه المبشرات.

ومن الكُتاب الذين اهتموا بنقل المبشرات صديق حسن خان في فتح البيان، والكرواني الهندي في إظهار الحق، وغيرها من الكتب.

وقوله تعالى: {يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ} [(157) سورة الأعراف] هذه صفة الرسول -صلى الله عليه وسلم- في الكتب المتقدمة، وهكذا كانت حاله -عليه الصلاة والسلام- لا يأمر إلا بخير ولا ينهى إلا عن شر، كما قال عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- ((إذا سمعت الله يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ} فأَرْعِها سمعك، فإنه خير تؤمر به أو شر تنهى عنه))[4]، ومن أهم ذلك وأعظمه ما بعثه الله به من الأمر بعبادته وحده لا شريك له، والنهي عن عبادة من سواه، كما أرسل به جميع الرسل قبله، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ} [(36) سورة النحل]، وقوله: {وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ} [(157) سورة الأعراف]، أي: يحل لهم ما كانوا حرموه على أنفسهم من البحائر والسوائب والوصائل والحام ونحو ذلك مما كانوا ضيقوا به على أنفسهم، {وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ}

---

[2] - رواه البخاري، كتاب البيوع وقول الله عز وجل: {وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا} [(275) سورة البقرة]، وقوله: {إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ} [(282) سورة البقرة]، بَاب كَرَاهِيَةِ السَّخَبِ في السُّوقِ (747/2)، برقم: (2018)، بلفظ: عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن هذه الآية التي في القرآن يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا، قال: في التوراة يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً وحرزاً للأميين أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخاب بالأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله فيفتح بها أعينا عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً)).

[3] - رواه البخاري (1831/4)، برقم: (4558) كتاب المغازي -بَاب إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا.

[4] - حلية الأولياء (1 / 130).

[(157) سورة الأعراف]، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما: كلحم الخنزير والربا وما كانوا يستحلونه من المحرمات من المآكل التي حرمها الله تعالى.

قوله: **{وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ}** لا يلزم أن يكون ذلك بمقابل ما حرموه على أنفسهم، فيدخل فيه ما حرموه على أنفسهم ويدخل فيه كل ما أباحه الشارع للناس من أكل الطيبات، وما كان نفعه غالباً وإن وجد فيه بعض الضرر فهو من جملة الطيبات، فالنبي -صلى الله عليه وسلم - أخبر أن ألبان البقر شفاء لحومها داء، فعن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه - عن النبي -صلى الله عليه وسلم - قال: ((عليكم بألبان البقر وسمنانها، وإياكم ولحومها، فإن ألبانها وسمنانها دواء وشفاء، ولحومها داء))[5]، وليس معناه أن هذا هو الغالب عليها، ومن المعلوم أن المصالح الخالصة هي في الجنة، أما في الدنيا فسائر اللحوم وسائر المطعومات لا بد أن تشتمل على بعض الآثار السلبية.

وقوله: **{يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ}** [(157) سورة الأعراف]، دليل على تحريم الحشرات، وكل ما يستخبث، كالخنافس والوزغ والحيات والعقارب، وعلى جواز أكل اللأمة الكنغر والجربوع؛ لأنها من جملة الطيبات.

وقد قال بعض أهل العلم: ضابط الخبائث ما استخبثته العرب؛ لأنهم أعدل الناس ذوقاً وطبعاً، أما غيرهم فأذواقهم منكوسة معكوسة، فمن الناس في بعض البلدان من يأكل الكلاب، ويفضلونها على سائر الأطعمة، ويأكلون الحيات والضفادع، ويأكلون مخ القرد وهو حي، ويأكلون الحيات وهي حية، ويصل الطبق الواحد من لحم الحية إلى ثلاثين دولاراً، ولهم أسواق واسعة لبيع وشراء هذه المستخبثات.

وقوله: {وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ} [(157) سورة الأعراف]، أي: أنه جاء بالتيسير والسماحة، وقال -صلى الله عليه وسلم - لأميريه معاذ وأبي موسى الأشعري -رضي الله تعالى عنهما - لما بعثهما إلى اليمن: ((بشرا ولا تنفرا، ويسرا ولا تعسرا، وتطاوعا ولا تختلفا))[6].

وقال صاحبه أبو برزة الأسلمي -رضي الله تعالى عنه -: إني صحبت رسول الله -صلى الله عليه وسلم - وشهدت تيسيره، وقد كانت الأمم التي قبلنا في شرائعهم ضُيق عليهم، فوسع الله على هذه الأمة أمورها وسهلها لهم، ولهذا قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم -: ((إن الله تجاوز لأمتي ما حدّثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل))[7]، وقال: ((رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه))[8]، ولهذا قال: أرشد الله هذه الأمة أن يقولوا: {رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ

---

[5] - أخرجه الحاكم في المستدرك، برقم: (8232)، (4 / 448)، وحسنه الألباني في السلسلة (1/ 8).

[6] - رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير - بَاب ما يُكْرَهُ من التَّنَازُعِ وَالِاخْتِلَافِ في الْحَرْبِ وَعُقُوبَةِ من عَصَى إِمَامَهُ وقال الله تَعَالَى: {وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ} (2873) (1104/3)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب تحريم الغدر (1359/3) برقم: (1733)، بلفظ: ((يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا ولا تختلفا)).

[7] - رواه البخاري، كتاب العتق، باب الخطأ والنسيان في العتاقة والطلاق إلا لوجه الله وقال النبي صلى الله عليه وسلم: لكل امرئ ما نوى ولا نية للناسي والمخطئ، (894/2)، برقم: (2391)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب إذا لم تستقر (116/1)، برقم: (127)، بلفظ: ((إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم)).

[8] - رواه ابن ماجه (2045)، (659/1)، بلفظ: ((إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه))، وصححه الألباني في إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل(1 / 123).

من قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وارحمنا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [(286) سورة البقرة]، وثبت في صحيح مسلم أن الله قال بعد كل سؤال من هذا: **((قد فعلت، قد فعلت))**[9].

قوله: **{وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ}** [(157) سورة الأعراف]، الآصار هي التكاليف الشاقية الثقيلة على النفوس، فتوبة بني إسرائيل كانت بقتل أنفسهم، أما في هذه الأمة فالتوبة بالندم والإقلاع عن الذنب والعزم على ألا يعود إلى الذنب، وإن كان الذنب يتعلق بالمخلوقين فيرد المظالم إلى أهلها.

وكان اليهودي يقطع ثوبه الذي أصابته نجاسة، وأما في هذه الأمة فيكفي المسلم أن يغسل ثوبه بالماء، وكانت اليهود لا يجالسون المرأة الحائض ولا يأكلون معها ولا يخالطونها، أما المسلم فيأكل مع المرأة ويجالسها ويباشرها وهذا كله من يسر هذه الشريعة.

وقوله: {فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ} [(157) سورة الأعراف] أي: عظموه ووقروه.

أصل العزر المنع، ومعنى عزروه أي: منعوه من عدوه، والنصر أبلغ من المنع من العدو، ولذلك استشار النبي -صلى الله عليه وسلم- الناس وسألهم عدة مرات لما جاء يوم بدر، وأراد -صلى الله عليه وسلم- أن يعرف ما يقول الأنصار؛ لأن مبايعته لهم كانت للدفاع عنه من عدوه.

وقوله: {وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ} [(157) سورة الأعراف]، أي: القرآن والوحي الذي جاء به مبلغاً إلى الناس، {أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [(157) سورة الأعراف] أي في الدنيا والآخرة.

{قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [(158) سورة الأعراف]، يقول تعالى لنبيه ورسوله محمد -صلى الله عليه وسلم-: قل يا محمد: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ}، وهذا خطاب للأحمر والأسود والعربي والعجمي، {إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا}، أي: جميعكم وهذا من شرفه وعظمته -صلى الله عليه وسلم- أنه خاتم النبيين، وأنه مبعوث إلى الناس كافة، كما قال الله تعالى: {قُلِ اللّهِ شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ} [(19) سورة الأنعام]، وقال تعالى: {وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ} [(17) سورة هود]، وقال تعالى: {وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ} [(20) سورة آل عمران]، والآيات في هذا كثيرة، كما أن الأحاديث في هذا أكثر من أن تحصر، وهو معلوم من دين الإسلام ضرورة أنه -صلوات الله وسلامه عليه- رسول الله إلى الناس كلهم، روى البخاري -رحمه الله- في تفسير هذه الآية عن أبي الدرداء -رضي الله تعالى عنه- قال: ((كانت بين أبي بكر وعمر -رضي الله تعالى عنهما- محاورة، فأغضب أبو بكر عمر فانصرف عنه عمر مغضباً، فأتبعه أبو بكر يسأله أن يستغفر له، فلم يفعل حتى أغلق بابه في وجهه، فأقبل أبو بكر إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال أبو الدرداء: ونحن عنده - فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: أما صاحبكم هذا فقد غامر، أي غاضب وحاقد، قال: وندم عمر على ما كان منه، فأقبل حتى سلم وجلس إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، وقص على رسول الله -صلى الله عليه

---

[9] - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب إذا لم تستقر (116/1)، برقم: (126).

وسلم - الخبر، قال أبو الدرداء: فغضب رسول الله -صلى الله عليه وسلم - وجعل أبو بكر يقول: والله يا رسول الله لأنا كنت أظلم، والله يا رسول الله لأنا كنت أظلم، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم -: هل أنتم تاركو لي صاحبي؟ إني قلت: يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً، فقلتم: كذبت وقال أبو بكر: صدقت))[10]. انفرد به البخاري.

قوله صلى الله عليه وسلم: ((أما صاحبكم هذا فقد غامر)) يعني أبا بكر -رضي الله عنه - لما أقبل ورأى هيئته، وقد عرف ذلك -صلى الله عليه وسلم - بالفراسة، ومعنى قوله: "غامر" أي غاضب، ويحتمل أن يكون المعنى أنه بذل جهده وفعل ما عليه في استدراك التقصير والاعتذار.

ومن محبة أبي بكر -رضي الله عنه - لعمر أنه اعتذر له، وخاف أن يسبق من النبي -صلى الله عليه وسلم - إلى عمر شيء بسببه فأراد أن يهدئ من غضب النبي -صلى الله عليه وسلم - فقال: أنا أظلم، أي: أنا المخطئ.

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما - مرفوعاً: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم - قال: ((أعطيت خمساً لم يعطهن نبي قبلي ولا أقوله فخراً، بعثت إلى الناس كافة الأحمر والأسود، ونصرت بالرعب مسيرة شهر، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأعطيت الشفاعة فأخرتها لأمتي يوم القيامة، فهي لمن لا يشرك بالله شيئاً))[11]، إسناده جيد ولم يخرجوه.

وقوله: {الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ} [(158) سورة الأعراف] صفة الله تعالى في قوله: {رَسُولُ اللّهِ}، أي: الذي أرسلني هو خالق كل شيء وربه ومليكه الذي بيده الملك والإحياء والإماتة وله الحكم.

وقوله: {فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ} [(158) سورة الأعراف] أخبرهم أنه رسول الله إليهم ثم أمرهم باتباعه والإيمان به، {النَّبِيِّ الأُمِّيِّ} أي: الذي وعدتم به وبشرتم به في الكتب المتقدمة، فإنه منعوت بذلك في كتبهم، ولهذا قال: {النَّبِيِّ الأُمِّيِّ}.

{وَاتَّبِعُوهُ}، أي: اسلكوا طريقه واقتفوا أثره، {لعلكم تهتدون}: أي إلى الصراط المستقيم.

قوله -تبارك وتعالى -: {فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ} [(158) سورة الأعراف]، اختلف أهل العلم في معنى الأمي، على أقوال:

الأول: الأمي منسوب إلى هذه الأمة الأمية التي لا تعرف الكتابة.

الثاني: نسبة إلى الأم، أي: أن الله تعالى أخرج الإنسان من بطن أمه وهو لا يعرف شيئاً، قال -عز وجل -: {وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [(78) سورة النحل].

---

[10] - رواه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم ولو كنت متخذا خليلاً (1339/3)، برقم: (3461).

[11] - رواه أحمد في مسنده (301/1)، برقم: (2742)، ورواه البخاري، كتاب الصلاة، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم جعلت لي الأرض مسجداً وطهورا (168/1)، برقم: (427)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة (370/1)، برقم: (521) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً وأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة، وأعطيت الشفاعة)).

الثالث: الأمي نسبة إلى أم القرى، وهذا بعيد.

وقد امتن الله تعالى ببعثة النبي -صلى الله عليه وسلم - بهذه الصفة؛ تحقيقاً للمعجزة، وحتى لا يقال: إنه -صلى الله عليه وسلم - تعلم على يد أحد الناس، وتصديقاً للأخبار التي وردت في الكتب السماوية.

وقوله: {الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَكَلِمَاتِهِ} [(158) سورة الأعراف]، أي: يصدق قوله عمله، وهو يؤمن بما أنزل إليه من ربه.

اختلف أهل العلم في تفسير الكلمات على أقول:

الأول: الكلمات هي الكتب المنزلة.

الثاني: المقصود بالكلمات هو عيسى -عليه الصلاة والسلام - لأنه كان بكلمة "كن" قال -عز وجل -: **{وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ}** [(171) سورة النساء].

الثالث: من أهل العلم من فسر الكلمات بقوله -تبارك وتعالى -: **{قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا}** [(109) سورة الكهف]، وبقوله: **{وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}** [(27) سورة لقمان] فهذا يشمل الكلمات الكونية والكلمات الشرعية.

والكلمات جمع مضاف إلى معرفة، فيفيد العموم، فمن قال: إن الكلمات هي الكلمات الشرعية والكونية لم يكن بعيداً عن الصواب -والله أعلم -.

وقول النبي -صلى الله عليه وسلم -: ((أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق))[12]، هي الكلمات الكونية، ولهذا ورد في بعض الروايات، ((أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر))[13]، فالتي لا يجاوزها بر ولا فاجر هي الكلمات الكونية، وهي المعبَّر عنها في مراتب القدر بالخلق.

قوله: **{وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ} [(159) سورة الأعراف] يقول تعالى مخبراً عن بني إسرائيل أن منهم طائفة يتبعون الحق ويعدلون به، كما قال تعالى: {مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ} [(113) سورة آل عمران]، وقال تعالى: {وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلّهِ لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [(199) سورة آل عمران]، وقال تعالى: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ * أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا} [(54) سورة القصص] الآية، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً *وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا} [(107 - 109) سورة الإسراء].**

---

[12] - رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب في التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره (2080/4)، برقم: (2708).

[13] - رواه أحمد في مسنده (24 / 202)، برقم: (15461).

قوله تعالى: **{يَهْدُونَ بِالْحَقِّ}**، أي يهدون الناس ويدعونهم إلى الحق، وقال ابن جرير: **{يَهْدُونَ بِالْحَقِّ}**، أي تهتدون بالحق، **{وَبِهِ يَعْدِلُونَ}** في تعاملاتهم وأخذهم وعطائهم.

وقد فسر ابن كثير –رحمه الله - قول الله: **{وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ}** [(159) سورة الأعراف]، بآياتٍ ذكرها، وهذا من عناية المصنف –رحمه الله - بتفسير القرآن بالقرآن، ومما تميز به كتاب ابن كثير –رحمه الله -.

قال –عز وجل -: {وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُواْ هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاء بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ} [(160 - 162) سورة الأعراف]

تقدم تفسير هذا كله في سورة البقرة وهي مدنية، وهذا السياق مكي، ونبهنا على الفرق بين هذا السياق وذاك بما أغنى عن إعادته هنا، ولله الحمد والمنة.

سبق الكلام على هذا كله في تفسير سورة البقرة، وهناك كتبٌ اعتنت بالمتشابه اللفظي ككتاب درة التنزيل للإسكافي، والبرهان للكرماني، فيذكرون مثلاً الفرق بين قول الله **{فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا}** [(160)سورة الأعراف]، وبين قوله تعالى: **{فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً}** [(60) سورة البقرة]، والتقديم والتأخير في مثل قوله تعالى: **{وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُواْ هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ}** [(161) سورة الأعراف]، وقول الله **{وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُواْ هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ}** [(58) سورة البقرة]، ففي آية الأعراف قدم القول على الفعل، وفي آية البقرة قدم الفعل على القول، ولا تخلو مثل هذه الكتب من تكلف في بعض التعليلات.

قوله –تبارك وتعالى - **{وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا}**[(160) سورة الأعراف]، أصل السبط هو ولد الولد، والأسباط يتفرعون من أولاد يعقوب –عليه السلام -.

وقوله –تبارك وتعالى - **{وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُواْ هَذِهِ الْقَرْيَةَ}** [(161) سورة الأعراف] اختلف العلماء في مكان القرية، فقال بعض أهل العلم: هي أريحا، وقال آخرون: بل هي بيت المقدس، وهو اختيار ابن جرير الطبري –رحمه الله -.

ومعنى قوله –عز وجل -: **{وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّدًا}** [(161) سورة الأعراف] أي: حطّ عنا ذنوبنا وخطايانا، فمسألتنا حطة، والمقصود بالسجود الركوع، فقد أمروا أن يدخلوا في هيئة السجود، **{فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لهم}** [(162) سورة الأعراف]، فقالوا حنطة، ودخلوا يزحفون على أدبارهم.

قال –عز وجل -: {وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} [(163) سورة الأعراف].

هذا السياق هو بسط لقوله تعالى: {وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَواْ مِنكُمْ فِي السَّبْتِ} [(65) سورة البقرة] الآية، يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه: {وَاسْأَلْهُمْ}، أي: واسأل هؤلاء اليهود الذين بحضرتك عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله ففاجأتهم نقمته على صنيعهم واعتدائهم واحتيالهم في المخالفة، وحذِّر هؤلاء من كتمان صفتك التي يجدونها في كتبهم، لئلا يحلّ بهم ما حل بإخوانهم وسلفهم، وهذا القرية هي أيلة وهي على شاطئ بحر القلزم.

قوله -تبارك وتعالى - {وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ} [(163) سورة الأعراف]، قال بعض أهل العلم: القرية هي طبرية، وقيل: هي مدين، وقيل: هي أيلة، والأهم من هذا هو أخذ العظة والعبرة من هذه القصة، ولا فائدة من البحث عن المبهمات، وقد ألف فيها السهيلي كتاباً، وجاء البلنسي وضمن في كتابه كلام السهيلي وزاد عليه أشياء كثيرة، ولكن الفائدة في مثل هذه الكتب قليلة.

ولا يُحتاج إلى ذكر المبهمات إلا لدفع تهمة مثلاً وهذا نادر، مثال ذلك ما جاء من طريق محمد بن زياد قال: ((لما بايع معاوية لابنه، قال مروان: سنة أبي بكر وعمر، فقال عبد الرحمن بن أبي بكر: سنة هرقل وقيصر، فقال: مروان هذا الذي أنزل الله فيه {وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا} [(17) سورة الأحقاف] ، فبلغ ذلك عائشة، فقالت: كذب والله ما هو به ولو شئت أن أسمي الذي أنزلت فيه لسميته ...))[14].

قال محمد بن إسحاق عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى: {وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ} [(163) سورة الأعراف]، **قال: هي قرية يقال لها: أيلة بين مدين والطور، وكذا قال عكرمة ومجاهد وقتادة والسدي، وقوله: {إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ}، أي: يعتدون فيه ويخالفون أمر الله فيه لهم بالوصاة به إذ ذاك، {إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً}، قال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما -: أي ظاهرة على الماء.**

كانت الحيتان تأتيهم ظاهرة منكشفة بينة، وأما ما ورد من بعض الأخبار الإسرائيلية، أنها كانت تأتي كالخراف، وتصل إلى أبوابهم، فمثل هذا الله أعلم به، ولا حاجة إليه.

قال ابن جرير: وقوله: {وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} [(163) سورة الأعراف]، **أي: نختبرهم بإظهار السمك لهم على ظهر الماء في اليوم المحرم عليهم صيده، وإخفائه عنهم في اليوم الحلال لهم صيده.**

قوله: {وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ} [(163) سورة الأعراف]، أصل معنى السبت القطع، فقد حرم الله -عز وجل - عليهم العمل يوم السبت فصاروا يحتالون، فيضعون الشباك يوم الجمعة ويأخذونها يوم الأحد، وهذا من الحيل، ولهذا مسخهم الله -عز وجل - إلى قردة، وقد ذكر الحافظ ابن القيم -رحمه الله - أن القرد فيه شبه بالإنسان إلا أنه

---

[14] - سنن النسائي الكبرى، كتاب التفسير، باب قوله: {وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا} [(17) سورة الأحقاف] (458/6)، برقم: (11491)، وأصل الحديث في البخاري من حديث يوسف بن ماهك قال: ((كان مروان على الحجاز استعمله معاوية، فخطب فجعل يذكر يزيد بن معاوية لكي يبايع له بعد أبيه، فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر شيئا، فقال: خذوه فدخل بيت عائشة فلم يقدروا، فقال مروان: إن هذا الذي أنزل الله فيه { وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لكما أتعدانني} [(17) سورة الأحقاف] ، فقالت عائشة من وراء الحجاب: ما أنزل الله فينا شيئا من القرآن إلا أن الله أنزل عذري)) رواه البخاري، كتاب التفسير، بَاب {وَالَّذِي قال لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وقد خَلَتْ الْقُرُونُ من قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فيقول ما هذا إلا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} [(17) سورة الأحقاف] (4 / 1827) برقم: (4550).

في هيئة وصورة بشعة وهو يختلف عنه أصلاً ووصفاً، وهؤلاء مسخوا الأحكام الشرعية وجاءوا بالمحرم بصورة فيها شبه من الحكم الشرعي، مع أنه يخالفه في أصله وفي وصفه.

وتحريم العمل يوم السبت مختص باليهود، ولذلك ذكر شيخ الإسلام في الاقتضاء بالكلام على الأعياد والتشبه، بأنه لا يجوز للمسلمين مضاهاة اليهود بترك العمل يوم الجمعة، وليس معنى ذلك ألا يكون يوم الجمعة أجازة رسمية، لكن المحرم ترك العمل فيه بالكلية كما تترك اليهود العمل في يوم السبت بالكلية.

وليس لنا أن نضع الأجازة في يوم السبت؛ لأن هذا الفعل مضاهاة لليهود في تعظيمهم لهذا اليوم، والمصلحة الدينية مقدمة على المصلحة الدنيوية.

{كَذَلِكَ نَبْلُوهُم} نختبرهم {بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} يقول: بفسقهم عن طاعة الله وخروجهم عنها، وهؤلاء قوم احتالوا على انتهاك محارم الله، بما تعاطوا من الأسباب الظاهرة التي معناها في الباطن تعاطي الحرام، وقد روى الفقيه الإمام أبو عبد الله بن بطة -رحمه الله - عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه - أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم - قال: ((لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل))[15]، وهذا إسناد جيد.

---

[15] - أخرجه ابن بطة في إبطال الحيل (1 / 47)، وصححه الألباني في الإرواء (5 / 375).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأعراف (21)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى - عند تفسير قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ} [سورة الأعراف(164 - 166)]**.**

يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق، فرقة ارتكبت المحذور واحتالوا على اصطياد السمك يوم السبت، وفرقة نهت عن ذلك واعتزلتهم، وفرقة سكتت فلم تفعلْ ولم تنهَ ولكنها قالت للمنكِرة: {لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا}، أي: لم تنهون هؤلاء وقد علمتم أنهم قد هلكوا واستحقوا العقوبة من الله؟ فلا فائدة في نهيكم إياهم، قالت لهم المنكِرة: {مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ}، أي: فيما أخذ علينا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، {وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} يقولون: ولعلهم لهذا الإنكار يتقون ما هم فيه ويتركونه، ويرجعون إلى الله تائبين، فإذا تابوا تاب الله عليهم ورحمهم، قال تعالى: {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ}: أي فلما أبى الفاعلون قبول النصيحة، {أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا}: أي ارتكبوا المعصية بعذاب بئيس، فنصّ على نجاة الناهين وهلاك الظالمين وسكت عن الساكتين؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فهم لا يستحقون مدحاً فيمدحوا ولا ارتكبوا عظيماً فيذموا.

وعن عكرمة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما - في الآية، قال: ما أدري أنجا الذين قالوا: {لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ} أم لا؟، قال: فلم أزل به حتى عرّفته أنهم قد نجوا، فكساني حلة.

وقوله تعالى: {وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ}، فيه دلالة بالمفهوم على أن الذين بقوا نجوا، وبئيس معناه في قول مجاهد: الشديد، وفي رواية أليم، وقال قتادة: موجع، والكل متقارب، والله أعلم.

وقوله: {خَاسِئِينَ}: أي ذليلين حقيرين مهانين.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى -: **{وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا}**، المشهور الذي عليه عامة المفسرين هو ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله -: أنهم انقسموا إلى ثلاث طوائف، ومن أهل العلم من يقول بأن هؤلاء هم أهل المنكر، قالوا للذين نصحوهم وأنكروا عليهم: إذا كنتم تقولون: إن الله سيعذبنا فلما تتعبون أنفسكم، **{لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا}**، فأجابوهم: **{مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ}** فهذا القول وإن قال به بعض أهل العلم إلا أنه قول مرجوح، وظاهر القرآن يدل على خلافه؛ لأن الله

-عز وجل - قال: {وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا} فلو كان هذا قول الطائفة الثانية وأنهم انقسموا إلى فرقتين، لكان التعبير بغير هذا، والله تعالى أعلم.

ثم إنه قال: {وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [سورة الأعراف(174)]، فلو كان هؤلاء يتحدثون عن أنفسهم حينما قالوا: {لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ} لقال: ولعلكم ترجعون، وفي {وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}، لقال: ولعلكم تتقون، ولكنه قال: {وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}.

وقوله: {قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ} يقول الحافظ: أي فيما أخذ علينا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، {مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ} هذا القول تضمن فائدة من فوائد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي أن الإنسان حينما يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فإن ذلك لانتفاع الناس الذين يأمرهم وينهاهم، وقد لا ينتفعون، ولكنه يلقي بالتبعة هو أيضاً ويقوم بما أوجب لله عليه، {قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ} فإنها لا تبرأ الذمة ولا يسلم الإنسان من التبعة إذا قصر، وتضمن حكماً وهو: أن الإنسان يأمر وينهى حتى لو كان لا يرجو انتفاع المأمور والمنهي، إعذاراً إلى الله -عز وجل -، وإقامة للحجة على الخلق، وإحياء لهذه الشعيرة، ودفعاً لاندراس العلم، وظهور الجهل، وإلف المنكر، وإبقاء لحيوية القلب تجاه المنكر، والقيام بالعبودية لله -تبارك وتعالى - في هذا المقام، والإنسان سيحاسب على تركه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذ هو مأمور به لقول رسول الله -صلى الله عليه وسلم -: ((من رأى منكم منكراً فليغيره بيده))[1]، وأما قوله -تبارك وتعالى -: {فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى} [سورة الأعلى(9)]، فقد لا يكون حجة للقول بأنه إن لم يرجُ الانتفاع لا يجب عليه التذكير والأمر والنهي {فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى} من أهل العلم من يقول: إنه ذكر أشرف الأمرين؛ ليدل به على الآخر، أي: {فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى} وإن لم تنفع، اكتفى بأحد الأمرين ليدل على ما يقابله، فالراجح أن الإنسان يجب عليه أن يأمر وينهى وإن لم يرجُ انتفاع المأمور والمنهي.

وقوله: {مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ} هذه قراءة حفص عن عاصم بالنصب، وقرأه الباقون بالرفع {مَعْذِرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ}، فعلى قراءة النصب يكون "معذرةً" مصدراً، أي: فعلنا ذلك معذرةً، وعلى القراءة الأخرى قراءة الجمهور يكون على تقدير مبتدأ، يعني: موعظتنا معذرةٌ إلى الله.

{وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} [سورة الأعراف(167)].

تأذن: تفعَّل من الأذان، أي: أعلم، قاله مجاهد وقال غيره: أمر.

{وَإِذْ تَأَذَّنَ} قال: أعلم، يعني آذن {فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ} [سورة الأنبياء(109)]، أي: أعلمتكم، الإيذان هو الإعلام، والأذان هو الإعلام بالصلاة، {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ} [سورة الأعراف(167)] قال: وفي قوة الكلام ما يفيد معنى القسم، {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ}، كما تقول: علم الله، شهد الله، تقول: شهد الله أني ما قلت كذا، علم الله أني ما ذهبت إليه، فهو في قوة القسم، {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ}.

---

[1] - رواه مسلم برقم(49)، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان.

وفي قوة الكلام ما يفيد معنى القسم من هذه اللفظة، ولهذا تُلُقِّيَت باللام في قوله:{لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ}، أي: على اليهود، {إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ} [سورة الأعراف(167)]، **أي: بسبب عصيانهم ومخالفتهم أوامر الله وشرعه، واحتيالهم على المحارم.**

قوله: **{إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ}**: يعني يذيقهم **{سُوءَ الْعَذَابِ}**.

ويقال: إن موسى -عليه السلام - ضرب عليهم الخراج سبع سنين، وقيل: ثلاث عشرة سنة، وكان أول من ضرب الخراج، ثم كانوا في قهر الملوك من اليونانيين والكشدانيين والكلدانيين، ثم صاروا إلى قهر النصارى وإذلالهم إياهم، وأخذهم منهم الجزية والخراج، ثم جاء الإسلام ومحمد -صلى الله عليه وسلم - فكانوا تحت قهره وذمته، يؤدون الخراج والجزية.

تاريخ اليهود مليء بهذا، ولذلكم لا تكاد تجد بقعة في العالم إلا وفيها حفنة من اليهود، قطّعهم في الأرض أمماً كما أخبر، وحصل لهم من العذاب والقتل الشيء الكثير، حتى إنه كان ينادى في ممالك الروم في أوقات مختلفة بقتل اليهود، ولربما قام عليهم بعض الأمراء من الرومان، في بعض النواحي بالشام، ونادوا على كل من في البلد من اليهود لمَا كانوا يلقون منهم من الدسائس والفساد والشر، وكانوا أقذر الناس في ممالكهم وأسوأ الناس طوية وخلقاً، وإفساداً في الأرض، كان أولئك لا يطيقون ما يرونه منهم، فكانوا يأمرون بقتل كل اليهود، والله المستعان.

سبب قِلة اليهود:

السبب في قِلتهم ليس القتل لهم؛ ولكن هم ديانة ليسوا كالنصارى، النصارى ينشرون دينهم، فنشروه في جميع البلدان، وقد روي أن عيسى -عليه الصلاة والسلام - قال: إنما بعثت لهداية خراف بني إسرائيل الضالة، **{وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ}** [سورة آل عمران(49)]، أما اليهود فهم منطوون على أنفسهم، وحتى من يدعي اليهودية منهم، لا يعترفون به، لأنهم يشترطون أن تكون أم هذا الإنسان يهودية؛ ولذلك هم لا يدْعون إلى دينهم، هم يرون أن هذا شرف حُبي به الإسرائيليون، ولذلك لا يخاطبون بدينهم سائر الناس؛ فالذين يأتون إلى فلسطين شُذّاذ الآفاق وعندهم مشكلات، فمنهم من لا يُعترف به بأنه يهودي إلى الآن، لأنه لم يثبت أن أمه يهودية، أبوه يهودي لكن أمه ليست يهودية، جاءوا من بيئات شتى ليكونوا دولة، هذا جاء من أمريكا وهذا جاء من روسيا، وهذا جاء من أثيوبيا وهذا جاء من اليمن، وهذا جاء من الهند، ومن كل مكان، ولذلك تجد يهود العرب يعملون في النظافة، والأعمال المهنية الوضيعة، ويعاملونهم بشيء من الازدراء والاحتقار، والأوروبي تجد أن منزلته والوظائف التي يتقلدها تختلف عن الآخرين، هذا هو المجتمع عندهم هناك، يُرون من بعيد أنهم دولة متقدمة وحضارية، وهم بينهم ما بينهم من الشر وأسباب التفكك والتشرذم، إضافة إلى التشرذم الذي داخل اليهود أصلاً، فالسبب في قلتهم أنهم أصحاب ديانة مغلقة.

قال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما - في تفسير هذه الآية، قال: هي المسكنة وأخذ الجزية منهم.

وروى عبد الرزاق وسعيد بن المسيب قال: يستحب أن يبعث الأنباط في الجزية، قلت: ثم آخر أمرهم أنهم يخرجون أنصاراً للدجال، فيقتلهم المسلمون مع عيسى ابن مريم -عليه السلام -، وذلك آخر الزمان.

وقوله: {إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ} أي: لمن عصاه وخالف شرعه، {وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} أي: لمن تاب إليه وأناب، وهذا من باب قرن الرحمة مع العقوبة، لئلا يحصل اليأس، فيقرن تعالى بين الترغيب والترهيب كثيراً، لتبقى النفوس بين الرجاء والخوف.

{وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ}[سورة الأعراف(168 -170)].

يذكر تعالى أنه فرّقهم في الأرض أمماً، أي: طوائف وفرقا، كما قال: {وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُواْ الأَرْضَ فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً} [سورة الإسراء(104)].

{مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ} أي: فيهم الصالح وغير ذلك، كقول الجن: {وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا} [سورة الجن(11)].

{وَبَلَوْنَاهُمْ}: أي: اختبرناهم، {بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ}: أي: بالرخاء والشدة، والرغبة والرهبة والعافية والبلاء {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}.

ثم قال تعالى: {فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأدْنَى} الآية، يقول تعالى: فخلف من بعد ذلك الجيل الذين فيهم الصالح والطالح خلف آخر لا خير فيهم، وقد ورثوا دراسة الكتاب وهو التوراة، وقال مجاهد في قوله تعالى: {يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدنَى} قال: لا يشرف لهم شيء في الدنيا إلا أخذوه حلالاً كان أو حراماً، ويتمنون المغفرة، ويقولون: سيغفر لنا، وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه.

وقال قتادة في قوله: {يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأدْنَى}: أي والله لخلف سوء، ورثوا الكتاب بعد أنبيائهم ورسلهم، أورثهم الله وعهد إليهم.

قوله: {يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأدْنَى} ما يتاح لهم من الدنيا، ويتيسر ويتحصل لهم فإنهم يأخذونه غير مبالين بحله أو بحرمته، {يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأدْنَى} فالحلال عندهم ما حل باليد، ينظرون إلى المتاع القريب غير عابئين بحساب الله -عز وجل -، ومن أهل العلم من فسر الأدنى هنا بما يدل على معنى الدناءة، أي: يأخذون العرض الدنيء مستعيضين به عما عند الله -عز وجل -، فالذي يلوح لهم من الطمع في هذه الحياة الدنيا العاجلة المتقضية الفانية يأخذوه ويقولون: سيغفر لنا، ولا يكتفون بهذا بل إذا حصل لهم مرة أخرى لا يترددون في أخذه {وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ}، ليست مرة واحدة ثم يتوبون، ومن أهل العلم من يقول: {وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ} أي: أنه إذا جاء بعدهم قوم ورثوهم فيعملون كعملهم، بل هم أنفسهم كلما لاح لهم طمع سارعوا إلى أخذه، وتهافتوا عليه، والخَلْف والخَلَف من أهل العلم من فرق بينهما، فقال: الخَلَف

للوارث الطيب، والخَلْف للوارث السيئ، لحديث النبي -صلى الله عليه وسلم -: **((ثم إنها تَخْلف من بعدهم خُلُوفٌ يقولون مالا يفعلون ويفعلون مالا يؤمرون..))**[2]، ومن أهل العلم من لم يفرق بينهما.

وقال الله تعالى في آية أخرى: {فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ} [سورة مريم(59)] الآية، قال: {يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا}، تمنوا على الله أمانيَ وغرّة يغترون بها، {وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ}، لا يشغلهم شيء ولا ينهاهم شيء عن ذلك، كلما هف لهم شيء من الدنيا أكلوه، لا يبالون حلالاً كان أو حراماً.

كلما هف لهم، يعني: خف لهم وأسرع إليهم، أي: كلما أتيح لهم، هف: خف.

وقال السدي: قوله: {فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ} إلى قوله: {وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ} [سورة الأعراف(169)]، قال: كانت بنو إسرائيل لا يستقضون قاضياً إلا ارتشى في الحكم، وإنّ خيارهم اجتمعوا، فأخذ بعضهم على بعض العهود أن لا يفعلوا ولا يرتشوا فجعل الرجل منهم إذا استقضى ارتشى، فيقال له: ما شأنك ترتشي في الحكم؟ فيقول: سيغفر لي، فتطعن عليه البقية الآخرون من بني إسرائيل فيما صنع، فإذا مات أو نُزِع، وجُعل مكانه رجل ممن كان يطعن عليه فيرتشي، يقول: وإن يأتِ الآخرين عرضُ الدنيا يأخذوه.

قوله: **{وَإِنْ يَأْتِهِمْ}** يعني: الذي يأتي بعده يرتشي، ثم الذي يأتي بعدهم يفعل كفعلهم؛ لترحل التقوى من قلوبهم.

قال الله تعالى: {أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يِقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ} [سورة الأعراف(169)] الآية، يقول تعالى منكراً عليهم في صنيعهم هذا مع ما أخذ عليهم من الميثاق، ليبيننّ الحق للناس ولا يكتمونه، كقوله: {وَإِذَ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاء ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْاْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ} [سورة آل عمران(187)]، وقال ابن جريج: قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما -: {أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يِقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ} قال: فيما يتمنون على الله في غفران ذنوبهم التي لا يزالون يعودون فيها ولا يتوبون منها.

قوله: **{وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ}** يعني: والحال أنهم قد درسوا ما في الكتاب وعلموه، فهم حينما يفعلون ذلك ويقدمون عليه فإنهم لا يفعلونه جهلاً، وإنما عن علم وفهم ومعرفة بأحكام الله -عز وجل -، وهذا هو المتبادر من معناها، ودرسوا ما فيه: أي لم يكن ذلك عن جهل وغفلة، ومن أهل العلم من قال: **{وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ}**، من الاندراس يعني: أن ما في الكتاب قد ذهب وانمحى لترك العمل به، والقول الأول أرجح وهو المتبادر، والله أعلم.

وقوله تعالى: {وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} [سورة الأعراف(169)]، يرغبهم في جزيل ثوابه، ويحذرهم من وبيل عقابه، أي: وثوابي وما عندي خير لمن اتقى المحارم وترك هوى نفسه، وأقبل على طاعة ربه، {أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} يقول: أفليس لهؤلاء الذين اعتاضوا بعرض الدنيا عما عندي عقل يردعهم عما هم فيه من السفه والتبذير؟، ثم أثنى تعالى على من تمسك بكتابه الذي يقوده إلى اتباع رسوله محمد -

---

2 - رواه مسلم برقم (50)، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، وأن الإيمان يزيد وينقص وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان.

صلى الله عليه وسلم - كما هو مكتوب فيه، فقال تعالى: {وَالَّذِينَ يُمَسَّكُونَ بِالْكِتَابِ} [سورة الأعراف(170)] أي: اعتصموا به واقتدوا بأوامره وتركوا زواجره، {وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ}.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأعراف (٢٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَإِذ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّواْ أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ} [سورة الأعراف(١٧١-١٧٢)].

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: قوله: {وَإِذ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ} يقول: رفعناه، وهو قوله: {وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ}[سورة النساء(١٥٤)].

وقال سفيان الثوري عن الأعمش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: رفعته الملائكة فوق رءوسهم وهو قوله: { وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ}.

وقال القاسم بن أبي أيوب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: ثم سار بهم موسى -عليه السلام- إلى الأرض المقدسة، وأخذ الألواح بعدما سكت عنه الغضب وأمرهم بالذي أمر الله أن يبلغهم من الوظائف، فثقلت عليهم وأبوا أن يقروا بها حتى نتق الله الجبل فوقهم كأنه ظلة، قال: رفعته الملائكة فوق رءوسهم، رواه النسائي بطوله.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذ نَتَقْنَا الْجَبَلَ} من أهل العلم من قال: إن النتق أصله أن ترفع الشيء، أو أن تستخرج الشيء من مكانه بقوة ثم ترمي به، فيكون المعنى: قلعه من مكانه، والظلة: كل شيء أظلك من سحاب ونحوه، {كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ} صار كأنه سحاب فوق رءوسهم، {خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ} أي: بجد وعزيمة، {وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} أي: من العهود والمواثيق التي أخذنا عليكم العمل بها، اذكروا ما فيه من الأحكام.

{وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ} [سورة الأعراف(١٧٢-١٧٣)].

يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم، وأنه لا إله إلا هو، كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه، قال تعالى: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ} [سورة الروم(٣٠)]، وفي الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه

وينصرانه ويمجسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء))[1]، وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار -رضي الله تعالى عنه - قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم -: ((يقول الله: إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم))[2]. وقد وردت أحاديث في أخذ الذرية من صلب آدم -عليه السلام -، وتمييزهم إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال.

روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه - عن النبي -صلى الله عليه وسلم - قال: ((يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتدياً به؟ قال: فيقول: نعم، فيقول: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر آدم ألا تشرك بي شيئاً، فأبيت إلا أن تشرك بي))[3]، أخرجاه في الصحيحين.

وروى الترمذي عند تفسيره هذه الآية عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه - قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم -: ((لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصاً من نور، ثم عرضهم على آدم فقال: أي رب من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك، فرأى رجلاً منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه قال: أي رب من هذا؟، قال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود، قال: رب وكم جعلت عمره؟، قال: ستين سنة، قال: أي رب وقد وهبتُ له من عمري أربعين سنة، فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت، قال: أولم يبقَ من عمري أربعون سنة؟ قال: أولم تعطها ابنك داود؟، قال: فجحد آدم فجحدت ذريته، ونسي آدم فنسيت ذريته، وخطئ آدم فخطئت ذريته))[4]، ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه - عن النبي -صلى الله عليه وسلم -، ورواه الحاكم في مستدركه وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه[5].

فهذه الأحاديث وأمثالها دالة على أن الله -عز وجل - استخرج ذرية آدم من صلبه وميز بين أهل الجنة وأهل النار، ثم قال: {وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى}: أي أوجدهم شاهدين بذلك قائلين له حالاً وقالاً، والشهادة تارة تكون بالقول كقوله: {قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا} [سورة الأنعام(١٣٠)] الآية، وتارة تكون حالاً كقوله تعالى: {مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَاجِدَ الله شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ} [سورة

1 - رواه البخاري برقم(١٣١٩)، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، ومسلم برقم (٢٦٥٨)، كتاب القدر، باب ما قيل في أولاد المشركين.

2 - رواه مسلم برقم(٢٨٦٥)، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار.

3 - رواه البخاري برقم(٦١٨٩)، كتاب الرقائق، باب صفة الجنة والنار، ومسلم برقم(٢٨٠٥)، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب طلب الكافر الفداء بملء الأرض ذهبا، وأحمد في المسند (٣٠٢/١٩)، برقم (١٢٢٨٩)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، واللفظ له.

4 - رواه الترمذي برقم (٣٠٧٦)، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم -، باب ومن تفسير سورة الأعراف، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم(٥٢٠٨).

5 - رواه الحاكم في المستدرك (٣٥٤/٢) برقم(٣٢٥٧)، كتاب التفسير، في تفسير سورة الأعراف، وهو صحيح كما تقدم.

التوبة(١٧)] أي: **حالهم شاهد عليهم بذلك، لا أنهم قائلون ذلك، وكذا قوله تعالى: {وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ}** [سورة العاديات(٧)]، **كما أن السؤال تارة يكون بالقال، وتارة يكون بالحال، كقوله: {وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ}** [سورة إبراهيم(٣٤)] **قالوا: ومما يدل على أن المراد بهذا هذا، أن جعل هذا الإشهاد حجة عليهم في الإشراك، فلو كان قد وقع هذا كما قال من قاله، لكان كل أحد يذكره ليكون حجة عليه، فإن قيل: إخبار الرسول -صلى الله عليه وسلم - كافٍ في وجوده، فالجواب: أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره، وهذا جُعل حجة مستقلة عليهم، فدل على أنه الفطرة التي فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد، ولهذا قال: {أَن تَقُولُواْ} أي: لئلا تقولوا يوم القيامة: {إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا}: أي التوحيد {غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا} الآية.**

يرى الحافظ ابن كثير رحمه الله - أن الميثاق والعهد في قوله تعالى: **{وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ}**: هو ميثاق الفطرة، ويرى أن الإشهاد ليس بلسان المقال، وإنما بلسان الحال، فحالهم شاهدة بهذا، كما قال -رحمه الله -: كما أنه تعالى فطرهم على ذلك، ويقول: يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم، ولم يقل: استخرج ذرية آدم، فهو يرى أن استخراج الذرية من الأصلاب، يتناسلون فيخرجون على الفطرة، هذا معنى الإشهاد عنده، فهو يقول: إنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم، فهذه العبارة دقيقة، شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم، شاهدين بلسان الحال، فالله -تعالى - فطرهم على ذلك وجبلهم عليه، فهم يخرجون شاهدين على أنفسهم بلسان الحال، وأن الله أودع في فطرهم ما يقتضي ذلك، فُطروا على الدين، وعلى التوحيد، وذكَرَ أحاديث الفطرة، وأحاديث استخراج الذرية من صلب آدم، ثم صرح بعد ذلك بأن المراد بذلك: أنهم خرجوا إلى الدنيا شاهدين بلسان الحال، وهذا الكلام مطابق لما ذكره الحافظ ابن القيم -رحمه الله في كتاب الروح وقد أطال الكلام في ذلك، وفي كتاب أحكام أهل الذمة، ومن أهل العلم مثل ابن قتيبة -رحمه الله - من فسر ذلك بالمعرفة: أن الله -عز وجل - أخرجهم من بطون أمهاتهم عارفين بتوحيده، ورد عليه الإمام محمد بن نصر المروزي -رحمه الله - في كتاب خاص، وساق الأدلة الكثيرة على استخراج الذرية من صلب آدم، مثل هذا الحديث وغيره، فحاول ابن القيم -رحمه الله - أن يوجه كلام ابن قتيبة؛ لأن الرد كان قاسياً من الإمام محمد بن نصر المروزي -رحم الله الجميع -، فتلطف وحاول أن يحمل كلام ابن قتيبة على معنى غير الذي فهمه الإمام المروزي، وقرر ابن القيم -رحمه الله - أن الإشهاد بلسان الحال، وأن المقصود بذلك الفطرة، وهذا مخالف لهذه الأحاديث الصريحة التي تدل على استخراج الذرية من صلب آدم من ظهر آدم، وأن الله أشهدهم على أنفسهم، ومثل هؤلاء العلماء كابن كثير وابن القيم -رحمهم الله - ومن وافقهم على هذا يحتجون بما أشار إليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله - بأن هذا جعله الله حجة عليهم وهم لا يذكرونه، فكيف يحتج عليهم بشيء لا يذكرونه؟، ويقول -تبارك وتعالى -: **{وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ}** ولم يقل: من آدم، **{مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ}** وفي قراءة ابن كثير: {من ظهورهم ذرياتهم}، فالشاهد أن هذا أكثر ما احتج به هؤلاء واحتجوا بأشياء أخرى، ومن أهل العلم من يقول غير هذا فقالوا: المأخوذ هم الذرية جيلاً بعد جيل ونسلاً بعد نسل، ودلهم بخلقه عليهم، فقامت عليهم هذه الدلالة مقام الإشهاد، والذين فسروه بالأحاديث التي تدل على استخراج الذرية من صلب آدم قالوا: إن قوله: **{وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ}**

من بني آدم أي: من آدم، فاستخرج منه الذرية، كما تدل عليه الأحاديث، وقالوا: هذا معروف واقع في كلام العرب، أنْ يعبر بمثل هذا التعبير، وابن جرير -رحمه الله- يقول: استخرج ولد آدم من أصلاب آبائهم، والراجح في تفسيرالآية -والله تعالى أعلم-: أن تحمل على هذه الأحاديث الصريحة الواضحة في أن الله استخرج الذرية من صلب آدم وأشهدهم على أنفسهم، وإذا ورد نهر الله بطل نهر معقل، لا كلام مع حديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ولا يقال: إن الناس لا يذكرون هذا العهد والميثاق، فلا يُعارَض ما ثبت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- بمثل هذا، فالله -عز وجل- أخذ الذرية من صلب آدم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم، أخرجهم كهيئة الذر، كما تدل عليه هذه الأحاديث، ولكن ذلك لا يتوقف عليه الجزاء والحساب، ودخول الجنة أو النار، ثم أودع في فطرهم مقتضى التوحيد ((كل مولود يولد على الفطرة))، فهو يفطر على توحيد الله -عز وجل-، لا يفطر على الشرك، ومع ذلك الله -عز وجل- لا يحاسبهم بمقتضى هذه الفطرة، ثم أقام الله لهم الدلائل، والبراهين مما يشاهدونه من الآيات في الآفاق وفي الأنفس الدالة على الوحدانية، ومع ذلك الله -عز وجل- لا يحاسبهم بمقتضى هذا، فأعطاهم عقولاً تدرك وتعرف أن الله -عز وجل- واحد لا شريك له، وأدرك جملاً من هذه المعاني، وتفاصيل ذلك يؤخذ من الوحي كأسماء الله -عز وجل- وصفاته، كما أن العقل قد يدرك بعض هذه الأمور، مثل أن الله حي، عليم، قدير، وما أشبه هذا، وتفاصيل هذه الأمور توقيفية، وهذه الفطرة لا تكون بمجردها سبباً لدخول الجنة أو النار، بل أرسل إليهم الرسل، **{وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً}** [سورة الإسراء(١٥)]، فهذا العهد أخذه عليهم وهم في ظهر آدم، لكن لا يتوقف عليه المحاسبة ودخول الجنة أو النار، فكونهم لا يذكرونه لا يغير من الحكم، والله تعالى أعلم.

قوله: **{قَالُواْ شَهِدْنَا}** هذا من كلامهم، ومن أهل العلم من يقول: **{قَالُواْ شَهِدْنَا}** إن هذا من كلام الملائكة، والأرجح والأصل أن الكلام للذرية، وهذا اختيار ابن جرير وعامة أهل العلم.

وقوله: **{أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ}** [سورة الأعراف(١٧٢)]، في قراءة أبي عمرو في الموضعين بالياء، **{أن يقولوا}**، **{إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا}** يعني: كراهة أن يقولوا، وبالتاء: كراهة أن تقولوا.

{وأتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين}.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأعراف (23)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى - في تفسير قوله تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * سَاء مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ} [سورة الأعراف(175 -177)].

روى عبد الرزاق عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه - في قوله تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا} الآية، قال: هو رجل من بني إسرائيل يقال له: بلعم بن باعوراء، وكذا رواه شعبة وغير واحد عن منصور به.

وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما -: هو صيفي بن الراهب، وقال قتادة: وقال كعب: كان رجلاً من أهل البلقاء، وكان يعلم الاسم الأكبر، وكان مقيماً ببيت المقدس مع الجبارين.

وقال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما -: هو رجل من أهل اليمن يقال له: بلعم، آتاه الله آياته فتركها.

وقال مالك بن دينار: كان من علماء بني إسرائيل، وكان مجاب الدعوة، يقدمونه في الشدائد، بعثه نبي الله موسى -عليه السلام - إلى ملك مدين، يدعوه إلى الله فأقطعه وأعطاه، فتبع دينه وترك دين موسى -عليه السلام -.

وقال سفيان بن عيينة عن حصين عن عمران بن الحارث عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما -: هو بلعم بن باعر، وكذا قال مجاهد وعكرمة، وقالت ثقيف: هو أمية بن أبي الصلت، وأما المشهور في سبب نزول هذه الآية الكريمة، فإنما هو رجل من المتقدمين في زمن بني إسرائيل كما قال ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه - وغيره من السلف.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما -: هو رجل من مدينة الجبارين يقال له: بلعام، وكان يعلم اسم الله الأكبر.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما -: لما نزل موسى -عليه السلام - بهم -يعني بالجبارين ومن معه - أتاه -يعني بلعم - أتاه بنو عمه وقومه فقالوا: إن موسى رجل حديد، ومعه جنود كثيرة، وإنه إن يظهر علينا يهلكنا، فادع الله أن يرد عنا موسى ومن معه، قال: إني إن دعوت الله أن يرد موسى ومن معه، ذهبت دنياي وآخرتي، فلم يزالوا به حتى دعا عليهم فسلخه الله ما كان عليه، فذلك قوله تعالى: {فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ} الآية.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فضرب الله تبارك وتعالى - في هذه الآية مثلاً لصاحب العلم الذي لم ينتفع بعلمه، ولم يرتفع به، وهو أسوأ مثلٍ في القرآن **{فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث...}** [سورة الأعراف(176)]، وهذا مثل قيل: إنه مضروب لأمة من قريش حيث أنزل الله عليهم القرآن وبعث منهم محمداً -صلى الله عليه وسلم - فكذبوه، وهذا خلاف المشهور، وقيل: إنها في أهل الكتاب، والمشهور: أنها في رجل من بني إسرائيل آتاه الله العلم، وليس في ذلك شيء مرفوع إلى النبي -صلى الله عليه وسلم -، وإنما هي من الإسرائيليات التي لا تصدق ولا تكذب، فمن قائل: إنه من علمائهم، وقيل: إنه كان يعلم الاسم الأعظم وكان مجاب الدعوة، وقيل: إنه من علمائهم ويعلم الاسم الأعظم، وقيل: كانت له ثلاث دعوات مستجابة، وكانت له امرأة فطلبت وألحت عليه أن يدعو ربه أن تكون أجمل بني إسرائيل، فلما صارت كذلك ترفعت عليه، فدعا عليها، يقولون: فمسخت كلبة، فجاءه أولادها وجعلوا يتضرعون أنهم قد افتضحوا أمام الناس وأنه نزل بهم ما لا طاقة لهم به، أن أمهم صارت كلبة، فدعا لها الدعوة الثالثة، فرجعت إلى حالها، فضيع هذه الدعوات الثلاث في امرأة، قيل: إنه دعا على موسى، وقيل غير ذلك، فهذا رجل آتاه الله العلم ولكنه لم ينتفع بهذا العلم، فانسلخ منها، وللحافظ ابن القيم -رحمه الله -، كلام جيد في المجلد الثاني من بدائع التفسير، وهناك مثل آخر في القرآن لا يقل سوءًا عنه، وهو أن أمة أوتيت العلم وحملت التوراة ثم أنها لم تعمل بها ولم تهتدِ بما فيها من المواعظ والعبر، فكان مثلهم كمثل الحمار يحمل أسفاراً، والحمار من أبلد الحيوانات، ومن أقواها على الحمل وهو من أقلها زينة كما ذكر الله -عزوجل -: **{وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}** [سورة النحل(8)]، وهو من أصبرها على التحمل مع غاية الذل، قال الله: **{مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}** [سورة الجمعة(5)]، وتكلم الحافظ ابن القيم –رحمه الله - على هذا المثل بكلام مفيد جيد، وهذه الأمثال في القرآن للاعتبار والاتعاظ، قال الله -عز وجل - عنها: **{وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ}** [سورة العنكبوت(43)]، والعلم يراد به العمل والاعتبار والاتعاظ، وأما أن يتعلم الإنسان ولا يظهر ذلك في سمته وهديه، بحيث لا يزيد في عمله، فإن هذا يكون نقصاً في حقه، وأسوأ من ذلك إذا تحول العالم، لا سيما في أوقات الفتن وغيّر وانسلخ، وصار يضلل الناس، ويلبس عليهم ويستغل ما عرفه من العلم في التلبيس على الناس وإضلالهم، فهذا أشد ما يكون.

قال ابن القيم -رحمه الله - تعالى:"فشبه سبحانه من آتاه كتابه وعلمه العلم الذي منعه غيره فترك العمل به واتبع هواه، وآثر سخط الله على رضاه ودنياه على آخرته، والمخلوق على الخالق بالكلب الذي هو من أخس الحيوانات، وأوضعها قدراً وأخسها نفساً، وهمته لا تتعدى بطنه، وأشدها شرهاً وحرصاً، ومن حرصه أنه لا يمشي إلا وخطمه في الأرض يتشمم، ويستروح حرصاً وشرهاً، لا يزال يشم دبره دون سائر أجزاء جسمه، وإذا رميت إليه بحجر رجع إليه ليعظه من فرط نهمته، وهو من أمهن الحيوانات وأحملها للهوان وأرضاها بالدنايا، والجيف القذرة المروحة أحب إليه من اللحم، العذرة أحب إليه من الحلوى، وإذا ظفر بميتة تكفي مائة كلب لم يدع كلباً يتناول معه منها شيئاً إلا هر عليه وقهره لحرصه وبخله وشرهه،

ومن عجيب أمره وحرصه أنه إذا رأى ذا هيئة رثة وثياب دنية وحال رزية نبحه وحمل عليه، كأنه يتصور مشاركته له، ومنازعته في قوته، وإذا رأى ذا هيئة حسنة وثياب جميلة ورياسة وضع له خطمه بالأرض، وخضع له ولم يرفع إليه رأسه.

وفي تشبيه من آثر الدنيا وعاجلها على الله والدار الآخرة مع وفور علمه بالكلب في حال لهثه سر بديع، وهو أن هذا الذي حاله ما ذكره الله من انسلاخه من آياته واتباعه هواه، إنما كان لشدة لهثه على الدنيا لانقطاع قلبه عن الله والدار الآخرة، فهو شديد اللهث عليها، ولهفه نظير لهث الكلب الدائم في حال إزعاجه وتركه، واللهف واللهث شقيقان وأخوان في اللفظ والمعنى.

قال ابن جريج: الكلب منقطع الفؤاد، لا فؤاد له، إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث، فهو مثل الذي يترك الهدى لا فؤاد له إنما فؤاده منقطع، قلت: مراده بانقطاع فؤاده أنه ليس له فؤاد يحمله على الصبر وترك اللهث، وهكذا هذا الذي انسلخ من آيات الله، لم يبق معه فؤاد يحمله على الصبر عن الدنيا، وترك اللهث عليها، فهذا يلهث على الدنيا من قلة صبره عنها، وهذا يلهث من قلة صبره عن الماء، فالكلب من أقل الحيوانات صبراً عن الماء، وإذا عطش أكل الثرى من العطش، وإن كان فيه صبر على الجوع، وعلى كل حال فهو أشد الحيوانات لهثاً، يهلث قائماً وقاعداً وماشياً وواقفاً، وذلك لشدة حرصه، فحرارة الحرص في كبده توجب له دوام اللهث، فهذا مشبهه شدة الحرص، وحرارة الشهوة في قلبه توجب له دوام اللهث، فإن حملت عليه بالموعظة والنصيحة فهو يلهث، وإن تركته ولم تعظه فهو يلهث.

قال مجاهد: ذلك مثل الذي أوتي الكتاب ولم يعمل به، وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما -: إن تحمل عليه الحكمة لم يحملها، وإن تتركه لم يهتدِ إلى خير، كالكلب إن كان رابضاً لهث وإن طرد لهث.

وقال الحسن: هو المنافق لا يثبت على الحق دُعي أو لم يدعَ، وُعظ أو لم يوعظ كالكلب يلهث طرداً وتركاً"[1].

قول الحافظ ابن كثير -رحمه الله -، قول من قال بأنه أمية بن أبي الصلت، وأمية بن أبي الصلت كان من الشعراء الذين كثر في شعرهم ذكر الآخرة، وفي شعره من العظات والأمور التي لا شك قد تعلّمها من أهل الكتاب، ويذكر أموراً كثيرة من حقائق الآخرة في شعره، ويعظ في هذا الشعر، ويذكر أشياء من عظمة الله -عز وجل -، والدعاء إلى عبادته، فشعره من أعجب الشعر، والعجيب أنه لم يسلم، كما قيل: أسلم شعره ولم يسلم قلبه، فلما بلغته دعوة النبي -صلى الله عليه وسلم - وظهر رسول الله -صلى الله عليه وسلم - أعرض وكابر ونأى بجانبه، لكن المشهور أنها في رجل من بني إسرائيل، وقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله -: "وأما المشهور في سبب نزول هذه الآية الكريمة فإنما هو رجل متقدم"، فهذا على سبيل التوسع في العبارة، وإلا فسبب النزول هو ما نزلت الآية أو الآيات تتحدث عنه أيام وقوعه، أما أخبار الماضين فإن ذلك ليس من أسباب النزول، لكن قد يتوسع بعض العلماء في التعبير فيعبرون بمثل هذا، فليس هذا هو سبب النزول، وإنما هذا من قصص بني إسرائيل.

---

1 - إعلام الموقعين عن رب العالمين (194/1- 196)، للإمام ابن القيم.

ووجه الشبه في قوله -عزوجل -: {فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ} [سورة الأعراف(176)]، من أهل العلم من يقول: إنه على ظاهره أن الرجل يلهث حقيقة، أو اندلع لسانه لما دعا على موسى -عليه الصلاة والسلام -، فخرج لسانه كالكلب، فيكون وجه الشبه ظاهراً أنه صار بهيئة الكلب، مسخه الله -عزوجل -، لكن ليس معنى ذلك أن صارت هيئته هيئة الكلب بكل شيء وإنما شابهه بخروج لسانه، وما ذكره الحافظ ابن القيم -رحمه الله - فيما نقله عن بعض السلف في قلة صبره عن الشرب، وبالنسبة لهذا الإنسان في قلة صبره عن شهواته، فهذا الجامع المشترك، هذا لا يصبر عن العطش، وذاك لا يصبر عن شهواته، وهذا كقول من قال: إن كبد الكلب حراء، وفؤاده منقطع، أي: لقلة صبره، وهذا الإنسان أيضاً كبده حراء وفؤاده منقطع لا صبر له عن الشهوات، فكلما لاحت له شهوة سارع إليها، وهذا ما يمكن أن يفسر به -والله تعالى أعلم -؛ لأنه لا يثبت مثل تلك الأخبار فيبنى عليها حكم، ويفسر بها القرآن فيقال: إن لسانه خرج حقيقة، لأنها من الأخبار الإسرائيلية، والكلب إن حملت عليه وطردته فإنه يلهث، وإن تركته في حاله فهو يلهث وهو رابض على جنبه، ويلهث وهو يمشي، ويلهث وهو واقف، فالكلب يلهث في جميع حالاته، وهذا من أسوأ صور الكلب، ولا يعرف هذا عند أي حيوان بصورة مستمرة كالكلب، فمن أهل العلم من قال: إن تحمل عليه أي: إن تطارده فهو يجري ويلهث، وإذا تركته فإنه يطاردك، هكذا قال بعضهم: والأول أحسن من هذا، -والله أعلم -.

وقوله تعالى: {وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ} [سورة الأعراف(176)].

وقوله تعالى: {فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ} [سورة الأعراف(175)] أتبعه الشيطان، يقول ابن جرير -رحمه الله -: "أي: صيره تابعاً له"، صار من أتباع الشيطان، والمشهور: {فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ} أي: تبعه الشيطان، كما يقول ابن القيم: هذه اللفظة {فَأَتْبَعَهُ} تدل على أنه لحقه وأدركه الشيطان، {فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ}، أي: أن الشيطان يتبع الإنسان لكنه قد يدركه ويتمكن منه، وقد لا يتمكن منه فيشغله بالوساوس والخواطر والأحلام والرؤى المزعجة؛ لأن هذا غاية ما استطاعه، ولهذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم -: ((الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة))[2]، فإذا يئس من ابن آدم أن يضله أشغله بالخواطر والأفكار، فيقول له: من خلق كذا، من خلق كذا، ويقلقه في طهارته، فيجعله يعيد الوضوء عدة مرات، لأنه لا يريده أن يصلي أصلاً، فعلى هذا يكون الأقرب -والله تعالى أعلم - في {فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ} [سورة الأعراف(175)] أي: تبعه، كما قال الله: {فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ}، والشيطان كما قال الحافظ ابن القيم -في بعض كتبه -: مع الإنسان مثل الكلب مع الغزال، الغزال سريع جداً، لا يقارن بسرعة الكلب، قفزة واحدة وإذا الكلب في ناحية والغزال في ناحية أخرى، لكن ما الذي يحصل؟ يطارده الكلب بلا توقف، يقول ابن القيم: فالذي يحصل كيف يصطاد الكلب الغزال والغزال أسرع؟، يطارده ثم بعد ذلك يلتفت الغزال، فإذا التفت ضعف وخارت قواه، فيظفر به الكلب، بهذه الطريقة، وإلا فهو أسرع منه، وهذا حاصل للإنسان، هو يقول: الإنسان إذا التفت للشيطان وطاوعه في خطواته وتزيينه وكذا، أدركه الشيطان، وإذا انطلق ولم يلتفت لا للوساوس ولا للخواطر ولا

---

2 - رواه أبو داود برقم (5112)، كتاب الأدب، باب في رد الوسوسة، وأحمد في المسند (10/4)، برقم(2097)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وصححه الألباني في ظلال الجنة (658)، وفي تحقيق كتاب الإيمان لشيخ الإسلام ابن تيمية (102).

لخطوات الشيطان صار يسير سيراً صحيحاً مستقيماً، وإذا التفت إليه فإنه يزين له خطواته فيوقعه فيها، فيقع في المنكرات والفواحش، وغير ذلك من النظر في كُتب الشبه، وكذلك ما يقع فيه بعض الناس من الوسوسة في الوضوء مما يجعله يتوضأ عدة مرات حتى يخرج وقت الصلاة، فإذا لم يلتفت له فإنه سينجو من الوسوسة بإذن الله تبارك وتعالى.

يقول تعالى: {وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا}: أي: لرفعناه من التدنس عن قاذورات الدنيا بالآيات التي آتيناه إياها، {وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ}: أي مال إلى زينة الحياة الدنيا وزهرتها.

قوله: {لَرَفَعْنَاهُ} قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله -: "رفعناه من التدنس عن قاذورات الدنيا بالآيات"، وقيل أي: شرفناه، وهذا يرجع إلى هذا المعنى، وقيل: رفعناه في الآخرة، وقيل: رفعناه فلم يقع في الكفر والمعصية، وغير ذلك، وكل ذلك داخل فيه -والله تعالى أعلم - كما قال كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله - {لَرَفَعْنَاهُ بِهَا}: "رفعناه: شرفناه بالعلم"، رفعه عن الدنايا والمدنسات، رفعه عن الذنوب، رفعه عن الكفر، رفع مرتبته في الدنيا والآخرة، فبدلاً من أن يكون إماماً في الحق، صار مثله مثل الكلب، أخس الأمثلة، {وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا} فصار إماماً يقتدى به، مترفعاً عن كل دنس ورزية وخلق مشين، لكنه أبى: ((كل أمتي يدخل الجنة إلا من أبى)) قيل: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: ((من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى))[3].

{وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ} أي: مال إلى زينة الحياة الدنيا وزهرتها، وأقبل على لذاتها ونعيمها، وغرته كما غرت غيره من غير أولي البصائر والنهى.

أصل الإخلاد اللزوم، ومنه الخلود {خَالِدِينَ فِيهَا} [سورة المائدة(85)]، أي: يمكثون أبداً بلا انقطاع، {أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ} أي: ركن إليها، ومن لزم الدنيا شُغل بها، وصارت هي غايته ومطلوبه الأكبر، وصار تشاغُلُه بها على حساب الآخرة.

وقال محمد بن إسحاق بن يسار عن سالم أبي النضر أنه حدث: أن موسى -عليه السلام - لما نزل في أرض بني كنعان من أرض الشام أتى قوم بلعام فقالوا له: هذا موسى بن عمران في بني إسرائيل، قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلها بني إسرائيل، وإنا قومك وليس لنا منزل وأنت رجل مجاب الدعوة فاخرج فادع الله عليهم، قال: ويلكم! نبي الله معه الملائكة والمؤمنون، كيف أذهب أدعو عليهم وأنا أعلم من الله ما أعلم؟!، قالوا له: ما لنا من منزل، فلم يزالوا به يرققونه ويتضرعون إليه حتى فتنوه فافتتن، فركب حمارة له متوجهاً إلى الجبل الذي يطلعه على عسكر بني إسرائيل وهو جبل حسبان، فلما سار عليها غير كثير ربضت به، فنزل عنها فضربها حتى إذا أزلقها قامت فركبها، فلم تسر به كثيراً حتى ربضت به فضربها حتى إذا أزلقها أذن لها فكلمته حجة عليه، فقالت: ويحك يا بلعم أين تذهب؟، أما ترى الملائكة أمامي تردني عن وجهي هذا؟، تذهب إلى نبي الله والمؤمنين لتدعو عليهم؟ فلم ينزع عنها فضربها فخل الله سبيلها حين فعل بها ذلك فانطلقت به حتى إذا أشرفت به على رأس حسبان، على عسكر موسى وبني إسرائيل جعل يدعو عليهم ولا يدعو عليهم بشر إلا صرف الله لسانه إلى قومه، ولا يدعو لقومه بخير إلا

---

3 - رواه البخاري برقم (6851)، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه و سلم.

صرف الله لسانه إلى بني إسرائيل، فقال له قومه: أتدري يا بلعم ما تصنع؟، إنما تدعو لهم وتدعو علينا، قال: فهذا ما لا أملك، هذا شيء قد غلب الله عليه، قال واندلع لسانه فوقع على صدره فقال لهم: قد ذهبت مني الآن الدنيا والآخرة، ولم يبق إلا المكر والحيلة، فسأمكر لكم وأحتال، جمّلوا النساء وأعطوهن من السلع ثم أرسلوهن إلى العسكر يبعنها فيه، ومروهن فلا تمنع امرأة نفسها من رجل أرادها، فإنهم إن زنى رجل منهم واحد كُفِيتموهم، ففعلوا، فلما دخل النساء العسكر مرت امرأة من الكنعانيين -اسمها كسبى ابنة صور رأس أمته - برجل من عظماء بني إسرائيل، وهو زمري بن شلوم رأس سبط شمعون بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم -عليهم السلام -، فلما رآها أعجبته، فقام فأخذ بيدها وأتى بها موسى وقال: إني أظنك ستقول: هذا حرام عليك لا تقربها؟، قال: أجل، هي حرام عليك، قال: فوالله لا أطيعك في هذا، فدخل بها قبته فوقع عليها، وأرسل الله -عز وجل - الطاعون في بني إسرائيل، وكان فنحاص بن العيزار بن هارون صاحب أمر موسى وكان غائباً حين صنع زمري بن شلوم ما صنع، فجاء والطاعون يجوس فيهم فأخبر الخبر فأخذ حربته وكانت من حديدة كلها ثم دخل القبة وهما متضاجعان فانتظمهما بحربته، ثم خرج بهما رافعهما إلى السماء، والحربة قد أخذها بذراعه واعتمد بمرفقه على خاصرته، وأسند الحربة إلى لحييه -وكان بكر العيزار - وجعل يقول: اللهم هكذا نفعل بمن يعصيك، ورُفِع الطاعون، فحُسب مَن هلك من بني إسرائيل في الطاعون فيما بين أن أصاب زمري المرأة إلى أن قتله فنحاص فوجدوه قد هلك منهم سبعون ألفاً، والمقلل لهم يقول: عشرون ألفاً في ساعة من النهار، فمن هنالك تعطي بنو إسرائيل ولد فنحاص من كل ذبيحة ذبحوها الرقبة والذراع واللحى، والبكر من كل أموالهم وأنفسهم؛ لأنه كان بكر أبيه العيزار، ففي بلعام بن باعوراء أنزل الله: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا} [سورة الأعراف(175)]**، إلى قوله {لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}** [سورة الأعراف(176)]**.**

هذا من أخبار بني إسرائيل، وأخبار بني إسرائيل لا تصدق ولا تكذب، يقولون: إنه رفع الرجل والمرأة بالرمح وهما متعلقان بالرمح ما ينزلان معه، مع ثقل الإنسان والرمح، كأنه رافع حمامتين، فالله أعلم بهذا.

وقوله تعالى: {فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث} [سورة الأعراف(176)]**، اختلف المفسرون في معناه، فعلى سياق ابن إسحاق عن سالم عن أبي النضر أن بلعاماً اندلع لسانه على صدره، فتشبيهه بالكلب في لهثه في كلتا حالتيه إن زُجر وإن ترك ظاهرٌ، وقيل معناه: فصار مثله في ضلاله واستمراره فيه، وعدم انتفاعه بالدعاء إلى الإيمان، وعدم الدعاء كالكلب في لهثه في حالتين إن حملتَ عليه وإن تركته هو يلهث في الحالين.**

هذا هو الأقرب، وهو المشهور الذي عليه عامة أهل العلم، وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله -: أن التشبيه ليس أن هذا أخرج لسانه، وإنما في الوعظ، سواء وعظته أو لم تعظه، فهو على حاله.

فكذلك هذا لا ينتفع بالموعظة والدعوة إلى الإيمان ولا عدمه كما قال تعالى: {وَسَوَاء عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} [سورة يـــس(10)]**، {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ}** [سورة التوبة(80)]** ونحو ذلك، وقيل معناه: أن قلب الكافر والمنافق والضال ضعيف فارغ من الهدى فهو كثير الوجيب، فعبر عن هذا بهذا، نقل نحوه عن الحسن البصري وغيره، وقوله تعالى:**

{فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [سورة الأعراف(176)]، **يقول تعالى لنبيه محمد -صلى الله عليه وسلم -: {فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ} أي: لعل بني إسرائيل العالمين بحال بلعام وما جرى له في إضلال الله إياه وإبعاده من رحمته بسبب أنه استعمل نعمة الله عليه -في تعليمه الاسم الأعظم الذي إذا سئل به أعطى وإذا دعي به أجاب - في غير طاعة ربه، بل دعا به على حزب الرحمن وشعب الإيمان أتباع عبده ورسوله في ذلك الزمان، كليم الله موسى بن عمران -عليه السلام -، ولهذا قال: لعلهم يتفكرون، أي: فيحذروا أن يكونوا مثله، فإن الله قد أعطاهم علماً وميزهم على من عداهم من الأعراب وجعل بأيديهم صفة محمد -صلى الله عليه وسلم - يعرفونها كما يعرفون أبناءهم، فهم أحق الناس وأولاهم باتباعه ومناصرته ومؤازرته، كما أخبرتهم أنبياؤهم بذلك وأمرتهم به، ولهذا من خالف منهم ما في كتابه وكتمه فلم يُعلم به العباد، أحل الله به ذلاً في الدنيا موصولاً بذل الآخرة.**

وقوله: {سَاء مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا} [سورة الأعراف(177)]، **يقول تعالى: ساء مثلاً مثلُ {الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا} أي: ساء مثلهم أن شبهوا بالكلاب التي لا همّة لها إلا في تحصيل أكلة وشهوة، فمن خرج عن حيز العلم والهدى وأقبل على شهوة نفسه واتبع هواه صار شبيهاً بالكلب، وبئس المثلُ مثلَه، ولهذا ثبت في الصحيح أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم - قال: ((ليس لنا مثل السوء، العائد في هبته كالكلب يعود في قيئه))[4].**

وقوله: {وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ} [سورة الأعراف(177)] **أي: ما ظلمهم الله، ولكن هم ظلموا أنفسهم بإعراضهم عن اتباع الهدى وطاعة المولى إلى الركون إلى دار البلاء، والإقبال على تحصيل اللذات وموافقة الهوى.**

{مَن يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [سورة الأعراف(178)] **يقول تعالى: من هداه الله فإنه لا مضل له، ومن أضله فقد خاب وخسر، وضل لا محالة، فإنه تعالى ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ولهذا جاء في حديث ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه -: ((إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستهديه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله))[5] الحديث بتمامه رواه الإمام أحمد وأهل السنن وغيرهم.**

وزيادة "نستهديه" هذه لا تصح[6].

---

4 - رواه النسائي برقم (3698)، كتاب الهبة، باب ذكر الاختلاف لخبر عبد الله بن عباس فيه، والترمذي برقم (1298)، كتاب البيوع، باب ما جاء في الرجوع في الهبة، صححه الألباني في صحيح الجامع (5426).

5 - رواه مسلم برقم (868)، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، دون لفظة "ونستهديه ونستغفره"، والنسائي برقم (3278)، كتاب النكاح، باب ما يستحب من الكلام عند النكاح.

6 - هذه اللفظة وردت في مسند الإمام الشافعي (67)، برقم (287)، وأخرجها في كتاب الأم (179/1)، وقال الشيخ الألباني: منكر جداً بزيادة "الاستهداء والاستنصار"، والسبب في نكارتها هو تفرد إبراهيم بن محمد بن أبي يحيى الأسلمي قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: هو أبو إسحاق المدني متروك من السابعة، انظر: تقريب التهذيب(93/1) وهاك كلام العلماء على الرجل، قال



يحيى بن سعيد القطان: سألت مالكا عنه أكان ثقة؟ قال: لا ولا ثقة في دينه، وقال عبد الله بن أحمد عن أبيه: كان قدريا معتزلياً جهمياً كل بلاء فيه، وقال أبو طالب عن أحمد: لا يكتب حديثه، ترك الناس حديثه كان يروي أحاديث منكرة لا أصل لها، وكان يأخذ أحاديث الناس يضعها في كتبه، وقال بشر بن المفضل سألت فقهاء أهل المدينة عنه فكلهم يقولون كذاب، وقال علي بن المديني عن يحيى بن سعيد: كذاب، وقال المعطي عن يحيى بن سعيد: كنا نتهمه بالكذب" انظر: تهذيب التهذيب(137/1)، فهي زيادة تفرد بها، وهذا حال الرجل، فيكون تفرده من قبيل المنكر، فهي منكرة جداً.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأعراف (24)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى - في تفسير قوله تعالى: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} [سورة الأعراف(179)].

يقول تعالى: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ}: أي: خلقنا وجعلنا لجهنم {كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ} أي: هيأناهم لها وبعمل أهلها يعملون، فإنه تعالى لما أراد أن يخلق الخلق علم ما هم عاملون قبل كونهم، فكتب ذلك عنده في كتاب قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، كما ورد في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو -رضي الله تعالى عنهما - أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم - قال: ((إن الله قدر مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء))[1] والأحاديث في هذا كثيرة ومسألة القدر كبيرة ليس هذا موضع بسطها.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه الآية استدل بها أهل السنة والجماعة على مسألة القدر وأن الله -تبارك وتعالى - قدر مقادير الخلائق منذ الأزل، وهي كقوله -تبارك وتعالى -: **{هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ}** [سورة التغابن(2)]، على أحد المعنيين للآية، وذلك أن الله -عز وجل - منذ خلقهم، خلق قوماً للجنة، قبض قبضة فقال: هذه للجنة ولا أبالي، وقبض قبضة فقال: هذه للنار ولا أبالي، فمن كتب الله -عز وجل - أنه من أهل النار فإنه يعمل بعمل أهل النار أو يختم له بعمل أهل النار، كما في الحديث: ((إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة))[2] إلى آخره، بخلاف قول المعتزلة الذي يقولون: **{وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ}** [سورة الأعراف(179)] أي: ألقينا، من تذروه الرياح، أي: تلقيه، وهذا باطل، والأدلة الكثيرة من الكتاب والسنة تدل على خلاف هذا، والله -عز وجل - خلق الخلق وهو أعلم بهم.

وقوله تعالى: {لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا} يعني: ليس ينتفعون بشيء من هذه الجوارح التي جعلها الله سبباً للهداية، كما قال تعالى: {وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا

---

1 - رواه مسلم برقم (2653)، بلفظ: ((كتب الله مقادير الخلائق قبل ...))، كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام.

2 - جزء من حديث رواه البخاري برقم (3154)، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً}، ومسلم برقم (2643)، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

{وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ} [سورة الأحقاف(26)]الآية، وقال تعالى: **{صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ}** [سورة البقرة(18)]، هذا في حق المنافقين، وقال في حق الكافرين: **{صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ}** [سورة البقرة(171)]، ولم يكونوا صماً ولا بكماً ولا عمياً إلا عن الهدى، كما قال تعالى: **{وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ}** [سورة الأنفال(23)]، وقال: **{فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}** [سورة الحـــج(46)]، وقال: **{وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ}** [سورة الزخرف(36 -37)]، وقوله تعالى: **{أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ}**[سورة الأعراف(179)] أي: هؤلاء الذين لا يسمعون الحق ولا يعونه ولا يبصرون الهدى، كالأنعام السارحة التي لا تنتفع بهذه الحواس منها إلا في الذي يقيتها في ظاهر الحياة الدنيا، كقوله تعالى: **{وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء}** [سورة البقرة(171)]، أي: ومثلهم -في حال دعائهم إلى الإيمان - كمثل الأنعام إذا دعاها راعيها لا تسمع إلا صوته ولا تفقه ما يقول، ولهذا قال في هؤلاء: **{بَلْ هُمْ أَضَلُّ}** أي: من الدواب؛ لأنها قد تستجيب مع ذلك لراعيها إذا أبس بها وإن لم تفقه كلامه بخلاف هؤلاء، ولأنها تفعل ما خلقت له إما بطبعها وإما بتسخيرها، بخلاف الكافر.

الله -عزوجل - خلق الأنعام ولم يجعل لها عقولاً، فهي بهذه المنزلة، وأما الكافر فقد أعطاه الله -عز وجل - عقلاً ومع ذلك لم ينتفع به فصار أحط من البهيمة، مع أن البهيمة قد تعي بعض ما يتصل بمصلحتها وشأنها كما إذا أبس بها، إذا قال لها: بِس، بِس، يدعوها إلى العلف أو نحو هذا، أو يزجرها عن شيء، أي: ساقها وزجرها يقول لها: بِس بِس، بكسر الباء وبضمها أيضاً، نعم ليزجرها أو يدعوها لشيء.

ولأنها تفعل ما خلقت له إما بطبعها وإما بتسخيرها بخلاف الكافر، فإنه إنما خُلق ليعبد الله وليوحده فكفر بالله وأشرك به، ولهذا من أطاع الله من البشر كان أشرف من مثله من الملائكة في معاده، ومن كفر به من البشر كانت الدواب أتم منه، ولهذا قال تعالى: {أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ}.

هذه الآية هي وصف لأهل النار في الحياة الدنيا **{لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا}**، فهم لا يفقهون حقائق ما جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم -، لا فقه عندهم، أفهامهم معكوسة وقلوبهم متعلقة بهذه الحياة الدنيا، ليس لهم نظر وراءها، فمهما رأوا وشاهدوا دلائل الحق وبراهينه، فإنهم لا ينتفعون بها **{لَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا}** مهما سمع من الآيات والمواعظ والعبر والعظات فكأنه لم يسمع، والإنسان إذا عرف أن هذه الصفة من صفات أهل النار فإنه يرجع إلى نفسه وينظر هل هو متصف بشيء منها؟؛ لئلا يكون مشابهاً لهؤلاء، وهذه الحواس السمع والبصر والفؤاد يدور عليها العلم والمعرفة والفهم، فالسمع والبصر آلتان وميزابان يصبان في القلب، والوعي للقلب، وذلك إنما يكون بهذه الوسائط، فبها يقتبس الأمور التي يعيها، كما قال الله -عز وجل -: **{وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً}** [سورة الإسراء(36)]، والناس يتفاوتون تفاوتاً كبيراً في الانتفاع بما يشاهدون وما يسمعون، فمن الناس من ينتفع بكل ما يراه ويعتبر به، فمن السلف مَن كان إذا جاء في وليمة فجاء من يدور عليهم بالطعام أو بالشراب بكى، فإذا سئل عن بكائه قال: تذكرت قول الله -عز وجل -: **{وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ}**

[سورة الإنسان(19)] تذكّرَ نعيم أهل الجنة، وإذا انطفأ السراج بكى، فإذا أوقد السراج شوهدت دموعه على لحيته، وكان سبب بكائه أنه تذكر القبر وظلمته، وقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "ولهذا من أطاع الله من البشر كان أشرف من مثله من الملائكة في معاده، ومن كفر به من البشر كانت الدواب أتم منه"، هذه المسألة أي كون الإنسان المطيع أشرف من الملائكة، بدليل أن الله أسجد الملائكة لآدم -عليه الصلاة والسلام-، وما شابه ذلك مما يستدل به القائلون بمثل هذا، هي مسألة لا طائل تحتها، ولا ينبغي الاشتغال بها.

{وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [سورة الأعراف(180)].

عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر))[3]. أخرجاه في الصحيحين، وأخرجه الترمذي في جامعه مثله.

قوله: **{وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى}** الحسنى أي: البالغة في الحسن غايته، فهي حسنى من حيث الألفاظ، ليس فيها اسم يستقبح عند سماعه وإن كان معناه حسناً، وهي أيضاً في غاية الحسن من ناحية المعاني؛ لأن كل أسماء الله -عز وجل- مشتقة، فهي تتضمن أوصافاً من أوصاف الكمال، منها ما يتضمن صفة ومنها ما يجمع جميع صفات الكمال، فهي حسنى من هذه الحيثية، وهي كثيرة جداً، وقد ذكر بعض أهل العلم كابن العربي أن من العلماء من جمع من الكتاب والسنة ألف اسم، وهي ربما لا تبلغ هذا؛ لأن من العلماء من يجمع طائفة كثيرة من الأوصاف ويجعلها من جملة الأسماء، ومسألة الأسماء وتحديد الضابط الذي يضبطها بحيث يميزها عما هو صفة أو فعل لله -عز وجل-، أو نحو ذلك، قد يصعب أن يؤتى بضابط دقيق يميزها؛ ولذلك العلماء -رحمهم الله- يختلفون في بعض الأسماء إذا حاولوا جمع الأسماء الواردة مثلاً في القرآن والسنة، فتجدهم يتفاوتون، منهم من يذكر بعض الأسماء، ومنهم من لا يذكرها، والله تعالى أعلم.

وقد جمع الحافظ ابن حجر -رحمه الله- من القرآن تسعة وتسعين اسماً، من أجل أن يوافق قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة))، وأما الحديث الوارد في هذا عند الترمذي والحاكم وغيرهما، فإن سرد الأسماء لا يصح؛ ولهذا قال ابن حزم بأنها مضطربة، وضعفها المحققون كالحافظ ابن كثير -رحمه الله- والحافظ ابن حجر -أي أحاديث سرد الأسماء-، فهي روايات مدرجة، أما حديث ((إن لله تسعة وتسعين اسماً)) فإنه حديث ثابت في الصحيحين وغيرهما، ومعنى ((من أحصاها دخل الجنة)) أي: أن أسماء الله كثيرة جداً، من هذه الأسماء هذا القدر الذي هو تسعة وتسعون له مزية، وإلا فأسماء الله لا تحصى؛ لأنه ورد في الحديث: ((أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو علمته

---

3 - رواه البخاري برقم (2585)، كتاب الشروط، باب ما يجوز من الاشتراط والثّنيا في الإقرار والشروط التي يتعارفها الناس بينهم وإذا قال مائة إلا واحدة أو ثنتين، بدون زيادة: ((وهو وتر يحب الوتر))، فهي من زيادة همام عن أبي هريرة كما عند مسلم برقم (2677)، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها.

أحدا من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك))[4]، فأخبرنا الله -عز وجل - عن جملة كثيرة من أسمائه في الكتاب، وكذلك أخبرنا النبي -صلى الله عليه وسلم -، لكن هذا الحديث ليس فيه الحصر، ليس فيه ما يدل على أن أسماء الله -عز وجل - هي هذا العدد فقط إطلاقاً، ومعنى أحصاها يعني: بالعد عرفها وفهم معانيها، وما دلت عليه من أوصاف الكمال، وتعبد الله -عز وجل - بمقتضاها، فهذا كله داخل في الإحصاء.

وقوله: {فَادْعُوهُ بِهَا} يدخل فيه دعاء العبادة ودعاء المسألة، دعاء المسألة أن تدعو بكل اسم بما يناسب الحال، فتقول: يا رحمن ارحمني، يا غفور اغفر لي، يا تواب تب عليّ، تب علي يا رب إنك أنت التواب الرحيم، هذا هو المناسب، وأكثر دعاء الأنبياء في القرآن {رَبَّنَا} بذكر الرب -تبارك وتعالى -، وقد ذكر الشاطبي في الموافقات أن ذلك يرجع إلى أن إجابة دعاء الداعين وإعطاء السائلين، كل هذا من معاني الربوبية، فيقال: يا رب يا رب، فالرب هو المتصرف المدبر الرازق المعطي، ولا يقال: يا منتقم اغفر لي؛ لأنه غير مناسب، وكذلك دعاء العبادة، أن يتعبد الإنسان لله -عز وجل - بمقتضاها، فإذا عرف أن الله -تبارك وتعالى - هو القوي المتين فإنه سيتوكل عليه، إذا عرف أن الله -تبارك وتعالى - هو الغفور الرحيم فإنه لا يقنط ولا ييأس من رحمته، وإنما يلجأ إليه ويتوب إليه وهكذا، فيعبد ربه بمقتضى هذه الأسماء، فيدخل فيه دعاء العبادة ودعاء المسألة.

ثم ليعلم أن الأسماء الحسنى غير منحصرة في تسعة وتسعين، بدليل ما رواه الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه - عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم - أنه قال: ((ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك ماض فيّ حكمك، عدلٌ فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله حزنه وهمه وأبدل مكانه فرحاً)) فقيل: يا رسول الله أفلا نتعلمها؟ فقال: ((بلى، ينبغي لكل من سمعها أن يتعلمها))[5].

على كل حال الحديث بهذا السياق لا يخلو من ضعف فيه؛ لجهالة أحد رواته.

وقال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما - في قوله تعالى: {وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ}، قال: إلحاد الملحدين أن دعوا اللات في أسماء الله.

---

4 - رواه أحمد في المسند (247/6)، برقم (3712) بإسناد ضعيف كما قال ذلك الإمام الدارقطني في العلل (201/5)، والحاكم في المستدرك (690/1)، برقم (1877)، كتاب الدعاء و التكبير و التهليل و التسبيح و الذكر، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم إنْ سلم من إرسال عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه فإنه مختلف في سماعه عن أبيه، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (198/1)، برقم (199).

5 - رواه أحمد في المسند (246/6)، برقم (3712)، وقال محققوه: إسناده مسلسل بالضعفاء، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (171/2)، برقم (1822).

وقال ابن جريج عن مجاهد: {وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ} قال: اشتقوا اللات من الله، والعزى من العزيز.

وقال قتادة: {يُلْحِدُونَ}: يشركون في أسمائه، وأصل الإلحاد في كلام العرب: العدول عن القصد، والميل والجور والانحراف، ومنه اللحد في القبر لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمت الحفر.

الإلحاد في اللغة هو: الميل، كما ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، والمقصود بالإلحاد في أسمائه: العدول بها عن حقائقها ومعانيها وما دلت عليه من الحق الثابت لها، ويكون بالزيادة، كمن يسمي الله -عزوجل- بغير ما سمى به نفسه، وهذا فيه إساءة للأدب مع الله -عزوجل-، فبعض طوائف أهل البدع يقولون: إن من أسمائه واجب الوجود، أو العقل الفعال وغيرها من الأسماء التي اخترعوها، ويكون الإلحاد بالنقص كجحود بعض أسماء الله -عز وجل-، أو ما دلت عليه من الأوصاف كالذي يثبت الأسماء ويقول: إنما هي أعلام محضة، كما يقوله طوائف من أهل البدع، وبه قال ابن حزم، فتجهموا، ويكون أيضاً بالتحريف لمعانيها، فيصرفها عن دلالاتها التي دلت عليها وتضمنتها من الأوصاف الكاملة إلى معانٍ أخر، وهذا من أفعال أهل البدع، فعطلوا الله -عز وجل- من صفات الكمال التي دلت عليها هذه الأسماء، فأهل التعطيل أهل التحريف، كل هؤلاء داخلون في هذا الإلحاد، وما ذكره طوائف من السلف من تسمية المعبودات الباطلة بها، كالعزى من العزيز إذا كان مشتقاً منه، واللات من الله، ومناة من المنّان، إن كان مشتقاً منه، فمنهم من يقول: هذه اشتقت من أسماء الله، وقيل: إنها لا تعلق لها بأسماء الله -عز وجل-، وهكذا تسميته بما لا يليق، فالنصارى يسمون الله أباً، وكذلك أيضاً تشبيه صفات الله -عز وجل- بصفات المخلوقين، كل هذه المعاني داخلة في هذا الإلحاد.

{وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ}[سورة الأعراف(181)]**، يقول تعالى: {وَمِمَّنْ خَلَقْنَا} أي: بعض الأمم، {أُمَّةٌ} قائمة بالحق قولاً وعملاً، {يَهْدُونَ بِالْحَقِّ} يقولون: هو يدعونا إليه، {وَبِهِ يَعْدِلُونَ}: يعملون ويقضون، وقد جاء في الآثار أن المراد بهذه الأمة المذكورة في هذه الآية هي هذه الأمة المحمدية، وفي الصحيحين عن معاوية بن أبي سفيان -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة))[6]، وفي رواية: ((حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك))[7]، وفي رواية: ((وهم بالشام))[8].**

---

6 - لم يأت بهذا اللفظ في الصحيحين، وإنما رواه البخاري عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون)) برقم (6881)، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق)) وهم أهل العلم، ومسلم عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك)) برقم (1920)، كتاب الإمارة، باب قوله صلى الله عليه و سلم: ((لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم))، ووردت لفظة: ((حتى تقوم الساعة)) عند الحاكم في المستدرك من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه (496/4)، برقم(8389)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وصححها الألباني في السلسلة الصحيحة (455/4)، برقم (1956)، وفي صحيح الجامع برقم (7287).

7 - رواه البخاري برقم (7022)، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ} [سورة النحل(40)].

ثم بعد أن ذكر الله -عزوجل- صفة أهل النار في الدنيا قال: {وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ}، فالناس منهم من كان بتلك الصفة التي ذكر الله -عز وجل- لأهل النار، ومنهم من يكون على حال صحيحة مستقيمة على مراد الله -تبارك وتعالى- على الصراط المستقيم، وهذا موجود في الأمم قبلنا من أتباع الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، وهو موجود في هذه الأمة، والذي يظهر أن هذا لا يختص بهذه الأمة، وإن كان تحققه في هذه الأمة أكمل، لأن سياق الآيات في ذكر صفة أهل النار، ثم بعد ذلك ذكر أن من الناس من يكون على الحق والصراط المستقيم، وهذا موجود في أتباع الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، -والله تعالى أعلم-.

8 - رواه البخاري بالرقم السابق.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأعراف (25)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى - عند تفسير قوله تعالى: {وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ} [(182 -183) سورة الأعراف]

يقول تعالى: {وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ}، ومعناه: أنه يفتح لهم أبواب الرزق ووجوه المعاش في الدنيا حتى يغتروا بما هم فيه ويعتقدوا أنهم على شيء، كما قال تعالى: {فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [(44 -45) سورة الأنعام]، ولهذا قال تعالى: {وَأُمْلِي لَهُمْ} أي: وسأملي لهم، أي أطوّل لهم ما هم فيه، {إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ} أي: قوي شديد.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة السلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى -: {وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ} [(182) سورة الأعراف] الاستدراج هو الأخذ بالتدريج منزلة بعد منزلة، حتى يوقعه في مغبّة فعله، فالله -تبارك وتعالى - يملي للكافرين، قال –عز وجل -: {وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمًا وَلَهْمُ عَذَابٌ مُّهِينٌ} [(178) سورة آل عمران] فيعطيهم ويغدق عليهم من الأموال والأرزاق والخيرات في الدنيا حتى تستحكم الغفلة على قلوبهم، ثم يأخذهم فيهلكهم.

قوله: {إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ} [(183) سورة الأعراف]، تعليل لما سبق، فمن الكيد أن يملي الله –عز وجل - لهؤلاء الكفار ويستدرجهم، وهذا الموضع في القرآن من المواضع التي ذكر فيها الكيد في غير مقابلة، مما يدل على أن هذه الصفة لا يشترط فيها أن تكون من قبيل المقابلة، أو من قبيل المشاكلة، وهو نوع من المجاز، لكن هذه الصفة لا تطلق على الله -عز وجل - ولا تقال لله -عز وجل - بإطلاق وإنما بقيد، فيقال: الله -عز وجل - يكيد للكافرين وللمجرمين وللظالمين، فهي صفة كمال بهذا الاعتبار.

{أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ} [(184) سورة الأعراف] يقول تعالى: {أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ} هؤلاء المكذبون بآياتنا {مَا بِصَاحِبِهِم}: يعني محمداً -صلى الله عليه وسلم -، {مِّن جِنَّةٍ} أي: ليس به جنون بل هو رسول الله حقاً دعا إلى حق، {إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ}: أي: ظاهر لمن كان له لب وقلب يعقل به ويعي به، كما قال تعالى: {وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ} [(22) سورة التكوير]، وقال تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ} [(46) سورة سبأ]، يقول: إنما أطلب منكم أن تقوموا قياماً خالصاً لله ليس فيه تعصب ولا عناد،

{مَثْنَى وَفُرَادَى} أي: مجتمعين ومتفرقين، **{ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا}** في هذا الذي جاءكم بالرسالة من الله أبه جنون أم لا؟، فإنكم إذا فعلتم ذلك بان لكم وظهر أنه رسول الله -صلى الله عليه وسلم - حقاً وصدقاً.

وقال قتادة بن دعامة: ذكر لنا أن نبي الله -صلى الله عليه وسلم - كان على الصفا فدعا قريشاً فجعل يفخذهم فخذاً فخذاً، يا بني فلان يا بني فلان، فحذرهم بأس الله ووقائع الله، فقال قائلهم: إن صاحبكم هذا لمجنون بات يصوت إلى الصباح أو حتى أصبح، فأنزل الله تعالى: {أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ} [(184) سورة الأعراف]**.**

وهذا مرسل عن قتادة، وإن كان وقوف النبي على الصفا ثابتاً بأحاديث مسندة.

{أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ} [(185) سورة الأعراف] يقول تعالى: أولم ينظر هؤلاء المكذبون بآياتنا في ملك الله وسلطانه في السماوات والأرض وفيما خلق من شيء فيهما، فيتدبروا ذلك ويعتبروا به، ويعلموا أن ذلك لمن لا نظير له ولا شبيه، ومِن فعْل من لا ينبغي أن تكون العبادة والدين الخالص إلا له، فيؤمنوا به ويصدقوا رسوله، وينيبوا إلى طاعته ويخلعوا الأنداد والأوثان، ويحذروا أن تكون آجالهم قد اقتربت فيهلكوا على كفرهم ويصيروا إلى عذاب الله وأليم عقابه.

قوله -تبارك وتعالى -: **{أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ}** [(185) سورة الأعراف]، الواو هذه عاطفة تعطف قوله -عز وجل -: **{وَمَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ}**، على ما قبلها وهو قوله: **{مَلَكُوتِ}**، ويكون المعنى: أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض، وينظروا في ما خلق الله -عز وجل - فيتفكروا ويعتبروا.

قوله: **{وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ}** [(185) سورة الأعراف] هذه الجملة أيضاً معطوفة على ملكوت، يعني يتفكروا في قرب آجالهم، أن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم، يتفكروا في هذا، وينزجروا عما هم فيه.

وقوله: {فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ} [(185) سورة الأعراف] يقول: فبأي تخويف وتحذير وترهيب -بعد تحذير محمد -صلى الله عليه وسلم - وترهيبه الذي أتاهم به من عند الله في آي كتابه - يصدقون، إن لم يصدقوا بهذا الحديث الذي جاءهم به محمد من عند الله -عز وجل -؟!.

قوله -تبارك وتعالى -: **{فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ}** [(185) سورة الأعراف]، يحتمل أن يكون الضمير راجعاً إلى ما تقدم من التفكر والنظر في الأمور المذكورة، ويحتمل أن يكون عائداً إلى القرآن، أي فبأي حديث بعد القرآن يؤمنون؟، ولعل هذا هو المتبادر، ويحتمل أن يكون عائداً إلى النبي -صلى الله عليه وسلم -، ويحتمل أن يكون عائداً إلى الأجل المذكور في قوله: **{وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ}** [(185) سورة الأعراف] باعتبار أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور، ولكن هذا فيه بعد -والله تعالى أعلم - والأقرب أن ذلك يرجع إلى القرآن، ولهذا قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله -: "**فبأي تخويف وتحذير وترهيب بعد تحذير محمد -صلى الله عليه وسلم - وترهيبه الذي أتاهم به من عند الله في آي كتابه**" فعبر ابن كثير بهذه العبارة التي تشتمل على أنه محمد -صلى الله عليه وسلم - والقرآن.

ثم قال تعالى: {مَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [(186) سورة الأعراف] يقول تعالى: من كتب عليه الضلالة فإنه لا يهديه أحد، ولو نظر لنفسه فيما نظر، فإنه لا يجزي عنه شيئاً، ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً.

ولو نظر لنفسه فيما نظر، فإنه لا يجزي عنه شيئاً، وكما قال تعالى: {قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ} [(101) سورة يونس].

{يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ} [(187) سورة الأعراف]

يقول تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ} كما قال تعالى: {يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ} [(63) سورة الأحزاب] قيل: نزلت في قريش، وقيل: في نفر من اليهود، والأول أشبه؛ لأن الآية مكية، وكانوا يسألون عن وقت الساعة استبعاداً لوقوعها وتكذيباً بوجودها، كما قال تعالى: {وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [(25) سورة الملك]، وقال تعالى: {يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ} [(18) سورة الشورى].

الذين كانوا يسألون النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الساعة منهم من سأله سؤال تكذيب واستبعاد، ومنهم من سأل سؤال مستخبر ومستعلم، فقد جاء أعرابي يسأل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الساعة، وجاء جبريل -عليه الصلاة والسلام- وسأل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الساعة؛ لتعليم الناس أن هذا الأمر مما اختص الله -عز وجل- به.

والساعة اسم من أسماء القيامة كما هو معلوم، وسميت بهذا الاسم لسرعة وقوعها، كما دلت الأحاديث على هذا المعنى، فربما ينشر الرجلان الثوب يتبايعانه فلا يتم البيع، وربما يصلح الرجل حوضه فلا يسقي منه، وربما أخذ الرجل بلبن لقحته ولا يشربه.

وقيل: سميت الساعة بهذا الاسم؛ لسرعة وقوع الحساب فيها، فحساب جميع النفوس عند الله -عز وجل- كحساب نفس واحدة، وقيل: لأنها مؤقتة بوقت، وما كان كذلك فإنه يقال له: الساعة.

وقوله: {أَيَّانَ مُرْسَاهَا} [(187) سورة الأعراف]، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- "منتهاها"، أي: متى محطها؟، وأيان: آخر مدة الدنيا الذي هو أول وقت الساعة.

الأقوال التي قالها السلف في معنى مرساها متقاربة، تقول: رست السفينة، أي: انتهت إلى المكان الذي تقف فيه، ووقفت عندها، فمعنى **{أَيَّانَ مُرْسَاهَا}**، أي: متى وقتها الذي تجيء به، ومتى تحل بالخلق؟.

{قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ} [(187) سورة الأعراف] أمر تعالى رسوله -صلى الله عليه وسلم- إذا سئل عن وقت الساعة أن يرد علمها إلى الله تعالى، فإنه هو الذي يجليها لوقتها، أي يعلم جلية أمرها، ومتى يكون على التحديد، لا يعلم ذلك إلا هو تعالى.

قوله: **{لاَ يُجَلِّيهَا}** التجلية: أصلها بمعنى الإظهار، أي: لا يكشف عنها ولا يظهرها ولا يبديها عن وقتها إلا هو.

ولهذا قال: {ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}[(187) سورة الأعراف] **قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة في قوله: {ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}، قال: ثقل علمها على أهل السماوات والأرض أنهم لا يعلمون.**

قوله: {ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}، أي: ثقل علمها، وهذا هو اختيار ابن جرير -رحمه الله- وذلك باعتبار أن ما لا يعلمه الإنسان فإنه يثقل عليه، فإذا علمه وانكشف له حقيقته وعرفه، فإنه يخف عليه ويسهل، ومثال ذلك قول الخضر لموسى -صلى الله عليه وسلم-: {سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا} [(78) سورة الكهف]، ثم لما أعلمه قال: {ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا} [(82) سورة الكهف] فلمّا كان علْم ذلك مستثقلاً عند موسى -صلى الله عليه وسلم- قال له في الأولى {لَمْ تَسْتَطِع}، وموسى -عليه الصلاة والسلام- منشغل بهذه الأشياء التي شاهدها، فلما أخبره عن حقائق هذه الأشياء وما وراء هذه التصرفات، سرّي عنه وخف عنه.

قال معمر: قال الحسن: إذا جاءت ثقلت على أهل السماوات والأرض، يقول كبُرت عليهم.

هذا قول آخر في معنى قوله -تبارك وتعالى-: {ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}، فإذا وقعت الساعة فإنها تكون ثقيلة شديدة تحصل فيها من الأهوال والأوجال ما لا طاقة للبشر به، يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، وتنفطر السماوات، وتنكدر النجوم، وتتغير هذه الأفلاك، وتزلزل هذه الأرض، وتسجر البحار وتزال الجبال عن أماكنها، إلى غير هذا من الأمور التي أخبر الله -عز وجل- عنها.

وقال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله تعالى: {ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} قال: ليس شيء من الخلق إلا يصيبه من ضرر يوم القيامة.

وقال ابن جريج: {ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} قال: إذا جاءت انشقت السماء وانتثرت النجوم، وكورت الشمس وسيرت الجبال، وكان ما قال الله -عز وجل- فذلك ثقلها.

هذه الروايات الثلاث ترجع إلى المعنى الأول، أي: ثقل علمها.

وقال بعض أهل العلم في معنى قوله -تبارك وتعالى-: {ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} أي: عظُم وصفها، وقيل: أي: ثقلت المسألة عنها، والراجح -والله أعلم- في معنى هذه الآية أنه ثقل علمها، وإذا وقعت فإنها تكون شديدة على الخلق، وهذا هو القول الأول والثاني.

وقال السدي: {ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}، يقول: خفيت في السماوات والأرض، فلا يعلم قيامَها حين تقوم ملكٌ مقرب ولا نبي مرسل.

هذا يرجع إلى القول الأول، أي خفي علمها، وما خفي علمه ثقل على النفوس حتى ينكشف.

{لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً}، يبغتهم قيامها، تأتيهم على غفلة، وقال قتادة في قوله تعالى: {لا تأتيكم إلا بغتة} قضى الله أنها لا تأتيكم إلا بغتة، قال: وذكر لنا أن نبي الله -صلى الله عليه وسلم- كان يقول: ((إن الساعة تهيج بالناس والرجل يصلح حوضه والرجل يسقي ماشيته، والرجل يقيم سلعته في السوق ويخفض ميزانه ويرفعه)).

وروى البخاري عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، فذلك حين لا ينفع

نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً، ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما، فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقْحَته فلا يطعمه، ولتقومن الساعة وهو يَلِيط حوضه فلا يسقي فيه، ولتقومن الساعة والرجل قد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها))[1].

[1] - رواه البخاري كتاب الرقائق، باب طلوع الشمس من مغربها، (2386/5)، برقم: (6141).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأعراف (26)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ} [(187) سورة الأعراف] الآية.

وقال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا} [(187) سورة الأعراف] يقول: كأن بينك وبينهم مودة، كأنك صديق لهم.

قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: لما سأل الناس النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الساعة سألوه سؤال قوم كأنهم يرون أن محمداً -صلى الله عليه وسلم- حفي بهم، فأوحى الله إليه إنما علمها عنده، استأثر به فلم يطلع الله عليها ملكاً مقرباً ولا رسولاً. والصحيح عن مجاهد من رواية ابن أبي نجيح وغيره {يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا} [(187) سورة الأعراف]، قال: استحْفيتَ عنها السؤال حتى علمتَ وقتها.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا}** [(187) سورة الأعراف] الحفي بالشيء هو العالم به، كما قال ابن فارس -رحمه الله- وذكر له معنى آخر وهو: كثرة السؤال عن الشيء.

وقد ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- لمعنى قوله: **{حَفِيٌّ عَنْهَا}** معنيين:

المعنى الأول: **{كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا}** جملة معترضة، ويكون المعنى يسألونك عنها أي عن الساعة كأنك حفي بهم، للقرابة التي بينك وبينهم، لتطلعهم على أمر لم يطلع عليه أحد من الخلائق، وورد هذا في بعض القراءات الشواذ.

المعنى الثاني: **{كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا}**، أي: استحفيتَ عنها بالسؤال واستقصيت أمرها حتى علمت وقتها، وهذا القول هو الأقرب، والله تعالى أعلم .

ولهذا قال: {قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ} [(187) سورة الأعراف] ولهذا لما جاء جبريل -عليه السلام- في صورة أعرابي ليعلم الناس أمر دينهم، فجلس من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مجلس السائل المسترشد، وسأله -عليه السلام- عن الإسلام ثم عن الإيمان ثم عن الإحسان، ثم قال: فمتى الساعة؟ قال له رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما المسئول عنها بأعلم من السائل))[1]، أي: لست أعلم بها منك، ولا أحد أعلم بها من أحد، ثم قرأ النبي -صلى الله عليه وسلم-: {إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ} [(34) سورة لقمان] الآية، وفي رواية فسأله عن أشراط الساعة، فبيّن له أشراط الساعة، ثم

---

[1] - رواه البخاري (1793/4)، برقم: (4499)، كتاب الإيمان، باب {إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ} [(34) سورة لقمان] ، ومسلم كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى وبيان التبري ممن لا يؤمن بالقدر وإغلاظ القول في حقه، (39/1)، برقم: (9).

قال: ((في خمس لا يعلمهن إلا الله))[2] وقرأ هذه الآية، وفي هذا كله يقول له بعد جواب: صدقت، ولهذا عجب الصحابة من هذا السائل، يسأله ويصدقه، ثم لما انصرف قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم - : ((هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم))[3]، وفي رواية قال: ((وما أتاني في صورة إلا عرفته فيها، إلا صورته هذه))[4].

وروى مسلم في صحيحه عن عائشة -رضي الله تعالى عنها - قالت: كانت الأعراب إذا قدموا على رسول الله -صلى الله عليه وسلم - سألوه عن الساعة، متى الساعة؟ فينظر إلى أحدث إنسان منهم فيقول: ((إن يعش هذا لم يدركه الهرم حتى قامت عليكم ساعتكم))[5]، يعني بذلك موتهم الذي يفضي بهم إلى الحصول في برزخ الدار الآخرة، ثم روى مسلم عن أنس -رضي الله تعالى عنه - أن رجلاً سأل رسول الله -صلى الله عليه وسلم - عن الساعة، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم -: ((إن يعش هذا الغلام فعسى أن لا يدركه الهرم حتى تقوم الساعة))[6] انفرد به مسلم.

وعن جابر بن عبد الله -رضي الله تعالى عنهما - قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم - يقول قبل أن يموت بشهر: ((تسألوني عن الساعة وإنما علمها عند الله، وأقسم بالله ما على ظهر الأرض اليوم من نفس منفوسة تأتي عليها مائة سنة))[7]. رواه مسلم.

بعض الذين كانوا يسألون النبي –صلى الله عليه وسلم - عن الساعة لم يكن سؤالُهم سؤالَ تعجيز أو استهزاء أو اختبار، وإنما كان سؤال استعلام.

وفي قول النبي – صلى الله عليه وسلم - ((وأقسم بالله ما على الأرض...)) دليل على أن الخضر قد مات، وفيه رد على الصوفية الذين يقولون بحياة الخضر إلى الآن.

ولا يدخل الدجال في عموم هذا الحديث؛ لأنه يعيش في جزيرة من جزر البحر ولا يراه الناس وهو من أمر الغيب.

وفي الصحيحين عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما - مثله[8].

قال ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما -: وإنما أراد رسول الله -صلى الله عليه وسلم - انخرام ذلك القرن.

---

[2] - رواه البخاري (1793/4)، برقم: (4499)، كتاب الإيمان، باب {إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ} [(34) سورة لقمان] ، ومسلم كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى وبيان التبري ممن لا يؤمن بالقدر وإغلاظ القول في حقه، (39/1)، برقم: (9).

[3] - رواه البخاري (1793/4)، برقم: (4499)، كتاب الإيمان، باب {إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ} [(34) سورة لقمان] ، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى وبيان التبري ممن لا يؤمن بالقدر وإغلاظ القول في حقه، (39/1)، برقم: (9).

[4] - سنن النسائي الكبرى (446/3)، برقم: (5883).

[5] - رواه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب قرب الساعة، (2269/4)، برقم: (2952).

[6] - رواه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب قرب الساعة (2269/4)، برقم: (2953).

[7] - رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: لا تأتي مائة سنة وعلى الأرض نفس منفوسة اليوم (1966/4)، برقم: (2538).

[8] - عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: صلى بنا النبي -صلى الله عليه وسلم - العشاء في آخر حياته فلما سلم قام، فقال: ((أرأيتكم ليلتكم هذه، فإن رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد)) رواه البخاري، كتاب العلم، باب السمر في العلم، (55/1)، برقم: (116)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب قوله صلى الله عليه وسلم لا تأتي مائة سنة وعلى الأرض نفس منفوسة اليوم، (1965/4)، برقم: (53).

أي أنه -صلى الله عليه وسلم - لم يقصد أن البشرية تهلك وتموت على رأس المائة سنة، وإنما المقصود: أولئك الذين كانوا أحياء.

وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه - عن النبي -صلى الله عليه وسلم - قال: ((لقيت ليلة أسري بي إبراهيم وموسى وعيسى فتذاكروا أمر الساعة، قال: فردوا أمرهم إلى إبراهيم -عليه السلام - فقال: لا علم لي بها، فردوا أمرهم إلى موسى فقال: لا علم لي بها، فردوا أمرهم إلى عيسى، فقال عيسى: أما وجبتها فلا يعلم بها أحد إلا الله -عز وجل - وفيما عهد إليّ ربي -عز وجل - أن الدجال خارج، قال: ومعي قضيبان، فإذا رآني ذاب كما يذوب الرصاص، قال: فيهلكه الله -عز وجل - إذا رآني، حتى إن الشجر والحجر يقول: يا مسلم إن تحتي كافراً فتعال فاقتله، قال: فيهلكهم الله -عز وجل - ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم، قال: فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون، فيطئون بلادهم لا يأتون على شيء إلا أهلكوه، ولا يمرون على ماء إلا شربوه، قال: ثم يرجع الناس إليّ فيشكونهم، فأدعو الله -عز وجل - عليهم فيهلكهم ويميتهم حتى تجْوى الأرض من نتن ريحهم، أي تنتن، قال: فينزل الله -عز وجل - المطر، فيجترف أجسادهم حتى يقذفهم في البحر)). قال الإمام أحمد: قال يزيد بن هارون: ثم تُنسف الجبال وتمد الأرض مد الأديم، ثم رجع إلى حديث هشيم قال: ففيما عهد إلي ربي -عز وجل -: أن ذلك إذا كان كذلك فإن الساعة كالحامل المتم لا يدري أهلها متى تفاجئهم بولادتها، ليلاً أو نهاراً))[9]، ورواه ابن ماجه نحوه[10].

الحديث بهذا السياق فيه ضعف، لكن بعض الجمل الواردة في هذا الحديث -كما هو معلوم - ثابتة في أحاديث أخرى.

وقد مضت أكثر العلامات الصغرى، وهي مؤذنة بقرب وقوع الساعة، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم - : ((بعثت أنا والساعة كهاتين))[11].

والعلامات الكبرى مؤذنة بأن الساعة على وشك الوقوع، وقد ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم - أن هذه العلامات الكبرى تتابع تتابعاً سريعاً كالعقد إذا انفرط[12]، وكل هذا يشعر بقرب قيام الساعة، واللحظة التي تقع فيها القيامة هي لحظة سريعة كما قال الله -عز وجل -: **{وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ}** [(77) سورة النحل]، وهذه اللحظة لا يعلمها إلا الله -عز وجل -.

وفي بدايات العلامات الكبرى، يكون أهل الإيمان مع عيسى -عليه الصلاة والسلام - حتى تأتي الريح الطيبة وتأخذ أرواحهم فيموتون من تحت آباطهم، ولهذا يقول النبي -صلى الله عليه وسلم -: ((لا تقوم الساعة إلا

---

9 - رواه الإمام أحمد (375/1)، برقم: (3556)، وقال محققو المسند إسناده ضعيف.

10 - رواه ابن ماجه (1365/2)، برقم: (4081)، وضعفه الألباني في ضعيف ابن ماجه (9 / 81)

11 - رواه البخاري، كتاب الرقائق، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم بعثت أنا والساعة كهاتين (2385/5)، برقم: (6140)، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب قرب الساعة، (2268/4)، برقم: (2950).

12 - عن أبي هريرة، عن النبي -صلى الله عليه وسلم - , قال: ((خروج الآيات , بعضها على إثر بعض، يتتابعن كما تتابع الخرز في النظام)) المعجم الكبير للطبراني (19 / 334)، برقم: (814)، قال الألباني صحيح بشواهده. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة، برقم (3210).

وعن عبد الله بن عمرو -رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((الآيات خرزات منظومات في سلك، فإن يقطع السلك ...)) رواه أحمد (11 / 617)، برقم (7040)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (4 / 261)، برقم (1762).

على شرار الناس))[13] فهم يتسافدون في الطرقات تسافد الحمر، ولا تقوم الساعة ويقال في الأرض: الله الله، يعني لا يُعرف الله -عز وجل- فعندئذ تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت من مغربها، آمن الناس أجمعون، فذلك حين{لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا} [(158) سورة الأنعام].

وقد قال بعض أهل العلم: إذا طلعت الشمس من مغربها آمن الناس أجمعون، ثم ترجع إلى طبيعتها، فينسى الناس هذه الآية ويرجعون إلى حالهم التي كانوا عليها فعندئذ تنفع التوبة، ولكن هذا قول ضعيف، والأقرب أن باب التوبة يغلق إذا طلعت الشمس من مغربها إلى أن تقوم الساعة، وتقوم على شرار الناس.

فهؤلاء أكابر أولي العزم من المرسلين ليس عندهم علم بوقت الساعة على التعيين، وإنما ردوا الأمر إلى عيسى -عليه السلام- فتكلم على أشراطها، بأنه ينزل في آخر هذه الأمة، منفذاً لأحكام رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ويقتل المسيح الدجال، ويجعل الله هلاك يأجوج ومأجوج ببركة دعائه، فأخبر بما أعلمه الله تعالى به.

وروى الإمام أحمد عن حذيفة -رضي الله تعالى عنه- قال: سئل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن الساعة، فقال: ((علمها عند ربي -عز وجل- لا يجليها لوقتها إلا هو، ولكن سأخبركم بمشاريطها وما يكون بين يديها، إن بين يديها فتنة وهرجاً)) قالوا: يا رسول الله الفتنة قد عرفناها، فما الهرج؟، قال بلسان الحبشة: ((القتل، قال: ويُلقَى بين الناس التناكر فلا يكاد أحد يعرف أحداً))[14]. لم يروه أحد من أصحاب الكتب الستة من هذا الوجه.

عن طارق بن شهاب قال: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لا يزال يذكر من شأن الساعة حتى نزلت: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا} [(187) سورة الأعراف]، ورواه النسائي وهذا إسناد جيد قوي.

فهذا النبي الأمي سيد الرسل وخاتمهم محمد -صلوات الله عليه وسلامه-، نبي الرحمة ونبي التوبة ونبي الملحمة والعاقب والمقفّي والحاشر الذي تحشر الناس على قدميه، مع قوله فيما ثبت عنه في الصحيح من حديث أنس وسهل بن سعد -رضي الله تعالى عنهما-: ((بعثت أنا والساعة كهاتين، وقرن بين أصبعين السبابة والتي تليها))[15]، ومع هذا كله قد أمره الله أن يرد علم وقت الساعة إليه إذا سئل عنها، فقال: {قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ} [(187) سورة الأعراف].

الحاشر الذي يحشر الناس على قدمه فكأنه بعث ليحشر الناس، والعاقب الذي جاء عقب الأنبياء وليس بعده نبي، والمقفّي هو الذي قفى على آثار من تقدمه، فقفى الله به على آثار من سبقه من الرسل، وهذه اللفظة مشتقة من القفو، يقال: قفاه يقفوه إذا تأخر عنه، ومنه قافية الرأس وقافية البيت.

---

[13] - رواه مسلم، باب قرب الساعة، كتاب الفتن وأشراط الساعة (2268/4)، برقم: (2949).

[14] - رواه أحمد (389/5)، برقم: (23354)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة(6 / 274).

[15] - رواه البخاري، كتاب الرقائق، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم بعثت أنا والساعة كهاتين (2385/5)، برقم: (6140)، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب قرب الساعة، (2268/4)، برقم: (2950).

{قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [(188) سورة الأعراف].

أمره الله تعالى أن يفوض الأمور إليه، وأن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب المستقبل، ولا اطلاع له على شيء من ذلك إلا بما أطلعه الله عليه، كما قال تعالى: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا} [(26) سورة الجن].

قال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما -: {وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ}[(188) سورة الأعراف] أي: من المال، وفي رواية: لعلمت إذا اشتريت شيئاً ما أربح فيه، فلا أبيع شيئاً إلا ربحت فيه.

في معنى الخير المذكور في قوله -تبارك وتعالى - {وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ}[(188) سورة الأعراف]، قولان:

الأول: الخير هو المال وهذه الآية كقوله -تبارك وتعالى -: {وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ} [(8) سورة العاديات] أي لحب المال، وكقوله: {إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ}[(180) سورة البقرة] يعني: إن ترك مالاً، وكقوله: {قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ} [(215) سورة البقرة]، أي: من مال.

الثاني: {لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ} أي: من العمل الصالح الذي يقربني إلى الله -تبارك وتعالى - والأقرب -والله تعالى أعلم - هو القول الأول، لأنه الأكثر وروداً في القرآن، والنبي -صلى الله عليه وسلم - كان مجتهداً في طاعة الله -عز وجل - وهذا لا يحتاج أن يعلم الغيب.

{وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ}[(188) سورة الأعراف] ولا يصيبني الفقر، وقال ابن جرير وقال آخرون: معنى ذلك لو كنت أعلم الغيب لأعددت للسنة المجدبة من المخصبة، ولوقت الغلاء من الرخص، فاستعددت له من الرخص.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم {وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ}[(188) سورة الأعراف] قال: لاجتنبت ما يكون من الشر واتقيته، ثم أخبر أنه إنما هو نذير وبشير، أي: نذير من العذاب، وبشير للمؤمنين بالجنات كما قال تعالى: {فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا} [(97) سورة مريم].

وردت آيات تدل على أن الرسل -عليهم الصلاة والسلام - لا يعلمون الغيب، فهذا نوح -عليه السلام - يقول: {إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي} [(45) سورة هود]، فقال الله -عز وجل - له: { فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ} [(46) سورة هود]، وكذلك إبراهيم -صلى الله عليه وسلم - ذبح عجله وأنضجه، وأتعب أهله في صنع الطعام، ثم بعد ذلك لم يعلم أن هؤلاء من الملائكة وأنهم لا يأكلون، ولوط -عليه الصلاة والسلام - قال لقومه: {لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ * قَالُواْ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُواْ} [(80 -81) سورة هود]، فلم يكن يعرف أن الضيوف الذين أتوه ملائكة، إلى غير هذا من الأمثلة الكثيرة التي تدل على أن الرسل -عليهم الصلاة السلام - وهم أشرف الخلق لا يعلمون الغيب، فالذين يضللون الناس ويقولون: إن النبي -صلى الله عليه وسلم - يعلم الغيب، أو أن الأولياء يعلمون الغيب، ماذا سيقولون في مثل هذه الآيات؟ الله المستعان.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأعراف (27)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى - في تفسير قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [سورة الأعراف(189 -190)].

ينبه تعالى على أنه خلق جميع الناس من آدم -عليه السلام -، وأنه خلق منه زوجته حواء، ثم انتشر الناس منهما كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} [سورة الحجرات(13)]، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا} [سورة النساء(1)] الآية.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

الإشراك في قول الله -عزوجل -: {فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}، لأهل العلم من الصحابة ومن بعدهم كلام، هل وقع من آدم -صلى الله عليه وسلم -، أو أن المقصود غيره؟، والمشهور الذي عليه عامة أهل العلم ولا ينبغي العدول عنه، أن المراد به آدم -صلى الله عليه وسلم - وحواء، وإن قال من قال بأن المراد بالنفس الواحدة، أي: أن الله -عزوجل - خلق الناس من نفس واحدة، أي: من هيئة وشكل واحد، وهو هيئة الإنسان وحقيقتها، وإن اختلفوا في بعض الفوارق غير المؤثرة في هذه الحقيقة، فقوله: {مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ} أي: من هيئة واحدة، وهذا تأويل بعيد، والذي دعاهم إلى هذا القول هو أنهم يريدون أن يقولوا: إن آدم صلى الله عليه وسلم - وحواء لم يقع منهما هذا الإشراك وليس هو المراد، وكان بإمكانهم أن يقولوا غير هذا الكلام الذي فيه ما فيه من التعسف في حمل النفس على الهيئة الواحدة، وليس في فصل أول الكلام عن آخره أي إشكال، فيقولوا: إن أول الكلام في آدم صلى الله عليه وسلم -، وإن آخره {جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا} ليس في آدم، فالآية لا تتحدث عن آدم -صلى الله عليه وسلم -، والمشهور كما سبق أن الله خلق آدم -صلى الله عليه وسلم -، وخلق منه زوجه حواء كما قال الله -تبارك وتعالى -: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا} [سورة النساء(1)]، ومن أهل العلم من يقول بأن قوله: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا} أي: جعله من جنسها، فهو كقوله -تبارك وتعالى -: {وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا} [سورة النحل(72)]، وظاهر الآيات تدل على خلاف هذا المعنى بالنسبة لآية الأعراف، وإن كان ذلك ملزوماً للمعنى المشهور وهو أن الله -عز وجل - خلق آدم وخلق منه حواء، فهي من جنسه، -والله أعلم -.

وقال في هذه الآية الكريمة: {وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا} أي: ليألفها ويسكن بها، كقوله تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً} [سورة الروم(21)]، فلا ألفة بين روحين أعظم مما بين الزوجين، ولهذا ذكر تعالى أن الساحر ربما توصل بكيده إلى التفرقة بين المرء وزوجه.

{فَلَمَّا تَغَشَّاهَا} أي: وطئها، {حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً} وذلك أول الحمل لا تجد المرأة له ألماً، إنما هي النطفة ثم العلقة ثم المضغة.

وقوله: {فَمَرَّتْ بِهِ} قال مجاهد: استمرت بحمله.

وروي عن الحسن وإبراهيم النخعي والسدي نحوه، وقال ميمون بن مهران عن أبيه: استخفته، وقال أيوب: سألت الحسن عن قوله: {فَمَرَّتْ بِهِ} قال: لو كنت رجلاً عربياً لعرفت ما هي، إنما هي فاستمرت به.

وقال قتادة: {فَمَرَّتْ بِهِ} استبان حملها.

وقال ابن جرير: معناه استمرت بالماء قامت به وقعدت.

وقال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما -: استمرت به فشكّت أحملت أم لا.

قوله: **{فَمَرَّتْ بِهِ}** أي: استمرت، هو المشهور والأقرب -والله تعالى أعلم -، ويدل عليه قراءة ابن عباس -رضي الله عنه -، وهي في الشواذ {فاستمرت به}، والقراءة الشاذة تفسر القراءة المتواترة، هذا الذي عليه أكثر السلف، وقال ابن جرير: معناه استمرت بالماء قامت به وقعدت، فاستمرت فسره بمعنيين، الأول: مرت أي: استمرت، فقال: قامت به وقعدت؛ لأنه جاء في قراءة أخرى شاذة {فمارت به}، المور هو الحركة، **{يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاء مَوْرًا}** [سورة الطور(9)]، ولعله راعى هذه القراءة وهي قراءة أيضاً منسوبة لابن عمر - رضي الله تعالى عنهما -، وفي قراءة أخرى أيضاً مروية عن ابن عباس ويحيى بن يعمر {فَمَرَتْ بِهِ} أي: جزعت بهذا الحمل، والأول أشهر -والله أعلم -.

{فَلَمَّا أَثْقَلَت} أي: صارت ذات ثقل بحملها، وقال السدي: كبر الولد في بطنها.

قوله: **{فَلَمَّا أَثْقَلَت}** أي: صارت ذات ثقل إذا كبر الولد.

{دَّعَوَا اللّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً} أي: بشراً سوياً، كما قال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما -: أشفقا أن يكون بهيمة، وكذلك قال أبو البختري وأبو مالك: أشفقا ألا يكون إنساناً.

قوله: **{لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً}**، هذا الدعاء يمكن أن يحمل على أعم معانيه، وهذا الذي اختاره أبو جعفر بن جرير الطبري -رحمه الله -، فيدخل فيه صلاح الدين، وصلاح العقل، وكمال الخلقة وصلاحها، بحيث لا يكون مشوهاً.

وقال الحسن البصري: لئن آتيتنا غلاماً {لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}.

روى ابن جرير عن الحسن -رضي الله تعالىعنه -: {جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا} قال: كان هذا في بعض أهل الملل ولم يكن في آدم.

فالكلام موصول لفظاً مقطوع معنى، فكأنه يتحدث عن قضية واحدة، لكنه في المعنى مفصول، فالكلام الأول -وعليه عامة أهل العلم- في آدم وحواء، وضمير التثنية يدل عليه في قوله: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ}، {فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} كل هذا في آدم وحواء {فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا}، ذهب كثير من السلف إلى أن المراد به آدم وحواء في قوله: {فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً}، ويذكرون روايات إسرائيلية أنه جاءهما إبليس وطاف بهما، وقال: إنه يكون له قرن أيل ويشق بطنك، فخافت من هذا فأرشدها إلى المخرج من هذا كله، وهو أن تسميه بعبد الحارث، وأن الحارث هو الشيطان، فسموه بعبد الحارث -يعني آدم -صلى الله عليه وسلم- وحواء- والشيطان قد أغواهما من قبل بالأكل من الشجرة، فأُخرجا من الجنة، فنزلا إلى دار الشقاء، وآدم نبي، يوحى إليه، ثم بعد ذلك يقع مرة ثانية في الشرك، هذا شيء لا يمكن أن يعقل ولا يقبل، نبي ويقع في الشرك، ويخدعه الشيطان مرتين، والثانية أشد من الأولى، قالوا: هذا شرك تسمية، وشرك التسمية ما هو بشرك، فسموه بهذا الاسم خوفاً من حصول مشكلة، وهذا الكلام غير صحيح، ولا مقبول ولا يصح إطلاقاً عن النبي -صلى الله عليه وسلم- شيء في هذا، ومثل هذه الروايات لا يعوّل عليها، مع كثرة القائلين بها، لذلك قال الحسن وطائفة: إن هذا الكلام من قبيل الموصول لفظاً المفصول معنى، فيكون أول الآية في آدم وحواء، وهذا الجزء الأخير {فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء} في بعض أهل الملل، يعني في غير آدم وحواء، هذا فيمن وقع من ذريته من الإشراك، ومن أهل العلم كابن جرير -رحمه الله- من قال: {فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء} أي: آدم وحواء، لكن المفصول عنده في الذرية؛ لأنها جاءت بصيغة الجمع {فَتَعَالَى اللّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} عما وقع من إشراك من أشرك بالله -عز وجل- من ذرية آدم -صلى الله عليه وسلم-، فابن جرير -رحمه الله- نظر إلى التثنية في الضمير وأنه متسق مع كل ما قبله ثم جاء بصيغة الجمع، والذين قالوا: هذا كله في آدم وحواء، قالوا: إن هذا من الالتفات، التفت من التثنية إلى الجمع، وقد يعبر عن الاثنين بصيغة الجمع، كما قال الله -عز وجل-: {فإن كان له أخوة}، ومعلوم أن هذا الحجب -حجب النقصان- يحصل بأخوين، تحجب الأم من الثلث إلى السدس، فالذي يظهر -والله أعلم- أن أول الآية في آدم وحواء، وأن قوله: {جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء} ليس في آدم وحواء، وقول الحسن هو الأقرب والأحسن -والله أعلم-.

وعنه قال: عنَى بها ذرية آدم ومن أشرك منهم بعده، يعني {جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا}.

وعن قتادة قال: كان الحسن -رضي الله تعالى عنه- يقول: هم اليهود والنصارى رزقهم الله أولاداً فهوّدوا ونصرّوا، وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن -رضي الله تعالى عنه-، أنه فسر الآية بذلك، وهو من أحسن التفاسير وأولى ما حملت عليه الآية، وأنه ليس المراد بهذا السياق آدم وحواء، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته، وهو كالاستطراد من ذكر الشخص إلى الجنس، كقوله: {وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ} [سورة الملك(5)] **الآية، ومعلوم أن المصابيح وهي النجوم التي زينت بها السماء ليست هي التي يرمى بها، وإنما هذا استطراد من شخص المصابيح إلى جنسها، ولهذا نظائر في القرآن، والله أعلم.**

قوله: {وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ} لا يرجم بالمصباح، ولكن يرجم بالشهب.

{أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ * وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ * إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ * إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ * وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ * وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ}[سورة الأعراف(191 - 199)].

هذا إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأنداد والأصنام والأوثان، وهي مخلوقة لله مربوبة مصنوعة، لا تملك شيئاً من الأمر ولا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تنتصر لعابديها، بل هي جماد لا تتحرك ولا تسمع ولا تبصر، وعابدوها أكمل منها بسمعهم وبصرهم وبطشهم، ولهذا قال: {أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ} أي: أتشركون به من المعبودات ما لا يخلق شيئاً ولا يستطيع ذلك؟، كقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}[سورة الحج(73 - 74)]، أخبر تعالى أن آلهتهم لو اجتمعوا كلهم ما استطاعوا خلق ذبابة، بل لو سلبتهم الذبابة شيئاً من حقير المطاعم وطارت لما استطاعوا إنقاذه منها، فمَن هذه صفته وحاله كيف يُعبَد ليرزق ويُستنصر؟!، ولهذا قال تعالى: {لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ} أي: بل هم مخلوقون مصنوعون، كما قال الخليل -عليه السلام -: {أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ} [سورة الصافات(95)] الآية.

قوله: {أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ} إلى آخره، سياق الآية يدل على أن المراد بها المشركون، وهي قرينة تدل على أن المراد بأول الآيات آدم وحواء وآخرها في الذرية وما وقع منهم من الإشراك، -والله أعلم -.

ثم قال تعالى: {وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا} أي: لعابديهم، {وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ} يعني: ولا لأنفسهم ينصرون ممن أرادهم بسوء كما كان الخليل -عليه الصلاة والسلام - يكسر أصنام قومه ويهينها غاية الإهانة، كما أخبر تعالى عنه في قوله: {فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ} [سورة الصافات(93)]، وقال تعالى: {فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ} [سورة الأنبياء(58)]، وكما كان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن جبل -رضي الله تعالى عنهما - وكانا شابين قد أسلما لما قدم رسول الله -صلى الله عليه وسلم - المدينة، فكانا يعدوان في الليل على أصنام المشركين يكسرانها ويتلفانها ويتخذانها حطباً للأرامل، ليعتبر قومهما بذلك ويرتئوا لأنفسهم، فكان لعمرو بن الجموح -وكان سيداً في قومه - صنم يعبده ويطيبه، فكانا يجيئان في الليل فينكسانه على رأسه ويلطخانه بالعذرة، فيجيء عمرو بن الجموح فيرى ما صنع به، فيغسله ويطيبه ويضع عنده سيفاً ويقول له: انتصر، ثم يعودان لمثل ذلك، ويعود إلى صنيعه أيضاً، حتى أخذاه مرة فقرناه مع كلب ميت ودلَّياه في حبل في بئر هناك فلما جاء عمرو بن الجموح ورأى ذلك نظر فعلم أن ما كان عليه من الدين باطل وقال:

تالله لو كنتَ إلهاً مُستَدن * * * لم تك والكلب جميعاً في قرن

ثم أسلم فحسن إسلامه، وقتل يوم أحد شهيداً -رضي الله تعالى عنه وأرضاه - وجعل جنة الفردوس مثواه.

وقوله: {وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم} الآية، يعني: أن هذه الأصنام لا تسمع دعاء من دعاها، وسواء لديها من دعاها ومن دحاها، كما قال إبراهيم -عليه السلام -: {يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا} [سورة مريم(42)]، ثم ذكر تعالى أنها عبيد مثل عابديها، أي: مخلوقات مثلهم، بل الأناسي أكمل منها؛ لأنها تسمع وتبصر وتبطش، وتلك لا تفعل شيئاً من ذلك.

وقوله: {قُلِ ادْعُواْ شُرَكَاءكُمْ} الآية، أي: استنصروا بها عليّ، فلا تؤخروني طرفة عين، واجهدوا جهدكم، {إِنَّ وَلِيِّيَ اللّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ} أي: الله كافيِّ وحسبي، وهو نصيري وعليه متكلي وإليه ألجأ، وهو وليي في الدنيا والآخرة، وهو ولي كل صالح بعدي، وهذا كما قال هود -عليه السلام - لما قال له قومه: {إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [سورة هود(54 – 56)]، وكقول الخليل -عليه السلام -: {أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ}[سورة الشعراء(76 - 78)] الآيات، وكقوله لأبيه وقومه: {إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [سورة الزخرف(27 - 28)].

وقوله: {إن الذين تدعون من دون الله} إلى آخر الآية مؤكد لما تقدم، إلا أنه بصيغة الخطاب، وذلك بصيغة الغيبة، ولهذا قال: {لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلآ أَنفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ} [سورة الأعراف(197)].

وقوله: {وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَسْمَعُواْ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ}، كقوله تعالى: {إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءكُمْ} [سورة فاطر(14)] الآية.

وقوله: {وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ} إنما قال: ينظرون إليك أي يقابلونك بعيون مصورة، كأنها ناظرة وهي جماد، ولهذا عاملهم معاملة من يعقل؛ لأنها على صورة مصورة كالإنسان، {وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ} فعبر عنها بضمير من يعقل.

هذه الآيات تتحدث عن آلهة المشركين {وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ} فإنك إذا نظرت إلى التمثال المصور الذي له أعين، تراه كأنه ينظر إليك، ينظر إلى من ينظر إليه، أو يقابله، لكنه لا يبصر، وهذا ظاهر السياق، ومن أهل العلم من قال: {وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ} أي: المشركين، {وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ} أي: لا يبصرون الحق، لكن هذا القول بعيد، والذي ألجأ القائل إلى هذا القول التعبير بصيغة العقلاء في قوله: {وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ}، ولم يقل تنظر إليك هذا أمر، والأمر الآخر هو: أن الأصنام لا تنظر، فقالوا: المراد العُبَّاد لهذه الأصنام، وهذا لا داعي له؛ لأن هذه التماثيل على هيئة من ينظر، وإن كانت لا تبصر، والسياق كله في هذا، وإرجاع الضمائر إلى مرجع واحد أولى من التفريق بها بلا شك، وقال في هذه الآيات: {وَإِن تَدْعُوهُمْ} ولم يقل: وإن تدعها إلى الهدى {لاَ يَتَّبِعُوكُمْ}، ولم يقل: لا تتبعكم، وقال: {وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ} ولم يقل: تنظر إليك.

وقوله: {وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ} أي: لا تبصر، ثم قال: {لاَ يَسْتَطِيعُونَ} ولم يقل: لا تستطيع، فالتعبير عن غير العقلاء بهذه الطريقة: لا تستطيع، تنظر، وعن العقلاء: ينظرون، يستطيعون، وما أشبه ذلك، فعبر عنها بهذه الصيغة التي تكون للعقلاء؛ لأن هؤلاء ما جعلوها مجرد عقلاء، بل جعلوها آلهة، فجاراهم في ذلك، والخطاب في القرآن قد يأتي بحسب نظر المخاطب، وإن كان المخاطب لا يعتقده، وهو نوعان: قد يكون لاعتقاد المخاطب باطلاً، وقد يكون صحيحاً، فقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ}[سورة الحجر(6)] خاطبوه بناء على قوله واعتقاده، والمخاطِب لا يعتقد هذا، لا يعتقد أنه نزل إليه الذكر، وهو حق كونه أنزل إليه الذكر، وأحياناً لا يكون صحيحاً، والمخاطب لا يعتقده مثل هذا، فهؤلاء ليسوا بآلهة، كما يُسمي أحياناً شبهات الكفار حجة، {حُجَّتُهُمْ}، مع أنها شبهة، ولكن قال هذا بناء على اعتقادهم أنها حجج، ويسمي هذه المعبودات الباطلة أحياناً آلهة بناء على اعتقادهم، جعلوها آلهة، وهكذا التعبير عنها بهذه الصيغ، فإذا نُزِّل غير العاقل منزلة العاقل عومل معاملته، كما قال يوسف -صلى الله عليه وسلم -: {وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ} [سورة يوسف(4)]، ولم يقل: رأيتها لي ساجدة؛ لأن الشمس والقمر أضيف إليها فعل من أفعال العقلاء وهو السجود، فعوملت معاملة العقلاء، -والله تعالى أعلم -.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأعراف (٢٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى - في تفسير قوله تعالى: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ * وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [سورة الأعراف(١٩٩ -٢٠٠)].

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: {خُذِ الْعَفْوَ} أمره الله بالعفو والصفح عن المشركين عشر سنين، ثم أمره بالغلظة عليهم.

وقال غير واحد عن مجاهد في قوله: {خُذِ الْعَفْوَ} قال: من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تجسس.

وقال هشام بن عروة عن أبيه: أمر الله رسول الله -صلى الله عليه وسلم - أن يأخذ العفو من أخلاق الناس، وفي رواية قال: خذ ما عُفي لك من أخلاقهم.

وفي صحيح البخاري عن هشام عن أبيه عروة عن أخيه عبد الله بن الزبير -رضي الله تعالى عنهما - قال: "إنما أنزل {خُذِ الْعَفْوَ} من أخلاق الناس"[١].

وفي رواية لغيره عن هشام عن أبيه عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما -، وفي رواية عن هشام عن أبيه عن عائشة -رضي الله تعالى عنها - أنهما قالا مثل ذلك والله أعلم.

وروى ابن جرير وابن أبي حاتم جميعاً حدثنا يونس قال: حدثنا سفيان هو ابن عيينة عن أميٍّ قال: لما أنزل الله -عز وجل - على نبيه -صلى الله عليه وسلم -: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ}، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم -: ((ما هذا يا جبريل؟ قال: إن الله أمرك أن تعفو عمن ظلمك وتعطي من حرمك وتصل من قطعك))[٢].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى -: {خُذِ الْعَفْوَ} فيها ثلاثة معانٍ، المعنى الأول: الصفح عن إساءة المسيء، والإعراض والتجاوز عن ذلك بحيث لا يقف عند الإساءة، والمعنى الثاني: وهو ما عفا أي: زاد فيما يتصل بأموال الناس، بحيث يتصدق بما زاد عن حاجته وحاجة أهله، وهذا كان في أول الإسلام، حينما كان الناس في شدة وضيق، فقد قال بعض أهل العلم: لا يجوز للإنسان أن يدخر شيئاً، وهذا الذي فارق عليه أبو ذر -رضي الله تعالى عنه - النبي -صلى الله عليه وسلم -، وذهب إلى قومه وبقي فيهم سنين متطاولة، ثم جاء إلى النبي

---

1 - رواه البخاري برقم (٤٣٦٧)، كتاب التفسير، باب {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [سورة الأعراف(١٩٩)].

2 - رواه ابن جرير الطبري في جامع البيان في تأويل القرآن (١٣/٣٣٠)، برقم (١٥٥٤٨)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٦/٣٢٠)، برقم (٩٤٤٩).

-صلى الله عليه وسلم- في المدينة بعد ذلك بزمن طويل وكان الله -عز وجل- قد وسع على المسلمين، وصار يجوز للإنسان أن يدخر، وأن ذلك لا يكون كنزاً وأنه إذا أخرج الزكاة برئت ذمته، وأما أبو ذر -رضي الله تعالى عنه- فكان يرى أن كل ما يُدخر فهو كنز يكوى به جبينه وجنبه وظهره، وخالفه على هذا الصحابة -رضي الله عنهم-، والمعنى الثالث -وهو المعنى المشهور الذي عليه عامة السلف وهو الأقرب في تفسيرها والله تعالى أعلم-: أن المراد {خُذِ الْعَفْوَ} أي: من أخلاق الناس، فيكون المعنى لا تستقصِ الناس في معاشرتهم ومخالطتهم، وتطلب حقك منهم، فلا تطالبهم بكل حقوقك وتدقق معهم في هذا، وتستقصِ كل حق، فلا تفوت شيئاً لا دقيقاً ولا جليلاً، فإن من فعل ذلك فإنه سيتعب ويُتعب الناس، فالنفس من شأنها أن تضعف، ويكون لها حالات من الإقبال والإدبار، وقد تسوء النفس وتسوء الطباع والأخلاق بسبب ظاهر، أو بغير سبب أحياناً، فالنفس تمر في حالات من الارتفاع والهبوط، فالبشر من طبيعتهم الضعف والتقصير والعجز، فخذ العفو: يعني ما جاء منهم سهلاً بإقبال نفس فاقبل به، ولا تطالبهم بأكثر من هذا، وهذا أصل كبير في التعامل مع الناس، وراحة لقلبك ولهؤلاء الناس أيضاً، أما الذي يريد أن يحاسب الناس على كل صغيرة وكبيرة، ماذا قالوا وماذا فعلوا؟ وكيف تصرفوا وكيف استقبلوه، وطريقتهم في الاستقبال؟، أو أنهم ما اكترثوا به أو ما أعاروه اهتماماً، وكأنهم لا يعرفونه حينما سلموا عليه، ثم يغضب، فمثل هذا سيتعب، وسيُتعب الآخرين معه، وإذا عرفوا منه ذلك، فإنهم سيتكلفون ويتصنعون له، فيكون مستثقلاً، فهذا أحسن ما فسرت به -والله تعالى أعلم-، وهو اختيار ابن جرير وابن القيم، -رحمهم الله-.

وقال البخاري: قوله: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} العرف: المعروف، ثم روى عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أنه قال...

قوله: {وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ} قال: العرف هو المعروف، والمعروف هو: كل خصلة جميلة يحبها الله ورسوله -صلى الله عليه وسلم-، كل ما تطمئن إليه النفوس، وتستحسنه العقول السوية من الأقوال والأعمال، وكل ما جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم- فهو من المعروف، فالمعروف أقرتْ بحسنه الشريعة، وما يدرك منه بالعقل؛ فإن العقول تستحسنه، ولا يمكن للعقول السوية أن تستقبح المعروف، لكنها قد تتوقف في البعض بحيث لا تدرك ما فيه من الحسن، وإنما يُعرف ذلك من جهة الشرع فيما لا مجال للعقول في إدراكه، فمن الأفعال ما فيه حسن ذاتي، يُدرك بالعقل وإن لم يأت النقل بتقريره، وهناك أشياء لها قبح ذاتي، ولو لم يأت النقل بذمها، فالكذب والزنى والفواحش والظلم كلها قبائح، تدرك ذلك العقول السوية، وجاءت الشرائع بتقرير هذا، فمثل هذه الأمور قررها العقل والنقل، ولا يقال الشرع والعقل؛ لأن العقل الصحيح هو من جملة أدلة الشرع، فلا يقابل بالشرع، وإنما يقال: العقل والنقل، وأدلة الشرع: العقل والنقل والفطرة، وقوله: {خُذِ الْعَفْوَ} جمعت أصولاً عظيمة، ومعناها أي: لا تستقصِ في التعامل مع الناس، وتستأصل حقك منهم، {وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ} أي: اؤمرهم بما يعمر القلوب، ويهذب الأخلاق، ويرفعهم، ويقبل ذلك من يقبله، وينتفع به من ينتفع، ويستجيب من يستجيب، وستجد سفهاء لا يتعاملون بطريقة صحيحة، يصدر منهم ما يؤذيك، فهؤلاء لا تقفْ معهم على الإساءة ولا تُجارِهم بهذا، فتكون منحدراً منسفلاً، تستوِ معهم في أخلاقهم، وعدوانهم على الناس،

وجهالاتهم، وحماقاتهم، فإن الإنسان إذا نزل مع هؤلاء وأراد أن يجاريهم فإنه يكون قرناً لهم ونظيراً لهم، فتكون مرتبته بذلك منحطة، فالواجب على الإنسان أن يُعرض عن الجاهلين لقول الله: **{وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا}** [سورة الفرقان(٦٣)]، وقوله: **{سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ}** [سورة القصص(٥٥)]، فإذا مروا باللغو أعرضوا عنه، واللغو يشمل جهالات الجاهلين، فالله -تبارك وتعالى- أمر بالصفح والعفو والإعراض في القرآن، إزاء جهالات الجاهلين وحماقاتهم، إلا في موضع واحد قال الله -عز وجل-: **{وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ}**[سورة الشورى(٣٩)] - في مقام المدح للمؤمنين، وهذا لا يعارض الآيات الأخرى **{ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}** [سورة المؤمنون(٩٦)، وسورة فصلت(٣٤)]، وإنما يُحمل ذلك -والله تعالى أعلم- على معنى وهو أن الإنسان إذا كان في مقام يورثه المذلة، ففي هذا الموطن يتعين الانتصار، فالمؤمن لا يكون ذليلاً، فالعفو الذي يورده موارد الذل لا يقبل به، لا يُستذل، يُستذل ثم يُستذل ثم يُستذل ويقول: أعفو وأصفح، وإنما العفو الممدوح هو الذي يزيد الإنسان عزةً ورفعةً، والعفو الذي يزيد المؤمن ذلة وضعة وهواناً هذا لا ينبغي أن يكون للمؤمن؛ لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: **((لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه))**[3]، فجاء في هذا الموضع الواحد **{وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ}**.

وفي هذه السورة يقول: **{خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ}** وستجد من مخالطة الناس التقصير في حقك فخذ العفو ولا تعنتهم، وأمُر بطاعة الله وطاعة رسوله -صلى الله عليه وسلم-، وبكل قول وفعل جميل، ومع هذا فستجد منهم ما تتأذى به من الأقوال والأفعال ممن لا يحسبون للكلمة حساباً، ولا ينضبطون بضوابط الشرع، فمثل هؤلاء لا تهبط معهم ولا تُجارِهم في هذه الجهالات والحماقات، فتكون بمنزلتهم -والله أعلم.

ثم روى عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أنه قال: قدم عيينة بن حصن بن حذيفة فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس -وكان من النفر الذين يدنيهم عمر- وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته -كهولاً كانوا أو شباناً-، فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لي عليه، قال: سأستأذن لك عليه، قال ابن عباس: فاستأذن الحر لعيينة فأذن له عمر، فلما دخل عليه قال: هي يا ابن الخطاب، فو الله ما تعطينا الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر حتى همّ أن يوقع به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه -صلى الله عليه وسلم-: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} وإن هذا من الجاهلين، والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقّافاً عند كتاب الله -عز وجل-، انفرد بإخراجه البخاري[4].

---

3 - رواه الترمذي برقم (٢٢٥٤)، كتاب الفتن عن رسول الله صلى الله عليه و سلم، باب ما جاء في النهي عن سب الرياح، وابن ماجه برقم (٤٠١٦)، كتاب الفتن، باب قوله تعالى: "يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم"، وأحمد في المسند (٣٨/٤٣٥)، برقم(٢٣٤٤٤)، وقال محققوه: إسناده ضعيف من أجل علي بن زيد بن جدعان، من حديث حذيفة رضي الله عنه، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢/١١٢)، برقم (٤١٣).

4 - رواه البخاري برقم(٤٣٦٦)، كتاب التفسير، باب {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [سورة الأعراف(١٩٩)].

هذا يوضح عدل عمر رضي الله عنه الذي يضرب به المثل والذي هو في قمة النزاهة، والزهد، والخوف من الله -عز وجل -، يقول: لو عثرت بغلة في العراق لكنت مسئولاً عنها، ويقول: لئن بقيت ليصلنّ هذا المال إلى راعي الغنم في غنمه على جبل في صنعاء دون أن يأتي إليه، ويخرج يطارد بعيراً من إبل الصدقة خارج المدينة، ويمشي وهو يستقبل في الفتح، فتح الشام، بلاد إمبراطورية وفيها ناس ووجهاء وناس يستقبلونه، يأتي يخوض الماء رافعاً ثيابه، ويتعاقب عليه هو والخادم وفترة يجعلونه يرتاح، ليس لديه موكب ولا حرس ولا غير ذلك.

وقد أخذ بعض الحكماء معنى الآية فسبكه في بيتين فيهما جناس فقال:

خذ العفو وأمر بعرف كما * أُمرتَ وأعرض عن الجاهلين**

ولِن في الكلام لكل الأنام * فمُستحسَن من ذوي الجاهلين**

وقال بعض العلماء: الناس رجلان، فرجل محسن فخذ ما عفا لك من إحسانه، ولا تكلفه فوق طاقته، ولا ما يحرجه، وإما مسيء فمُره بالمعروف، فإن تمادى على ضلاله واستعصى عليك واستمر في جهله فأعرض عنه فلعل ذلك أن يرد كيده، كما قال تعالى: {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ * وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ} [سورة المؤمنون(٩٦ -٩٨)]، **وقال تعالى: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ}**[سورة فصلت(٣٤ -٣٥)]، **أي: هذه الوصية.**

{وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}[سورة فصلت(٣٦)]، **وقال في هذه السورة الكريمة أيضاً: {وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}** [سورة الأعراف(٢٠٠)]**.**

عدو الإنسان قد يكون من الإنس، وقد يكون من الشياطين، فالأول قد تنفع فيه المصانعة؛ لطيب أصله، فإذا أحسن إليه تحول وكف إساءته، وربما تحول إلى ولي حميم، أما الآخر فهذا لا تنفع معه المصانعة ولا الإحسان، لكن الله -تبارك وتعالى - أخبرنا بشيء نتخلص به منه هو الاستعاذة **{فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ}**، والنزغ: هو النخس، والمقصود به: ما يلقيه الشيطان، فيحرك الإنسان ويوسوس له، ويزين له الباطل والمنكر والإساءة والظلم والعدوان على الناس -والله تعالى أعلم -، **{وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ}** فيحرك النفس المُغضبَة، ويأمره بالانتقام أو العدوان والظلم، ويلقي في نفسه الخواطر والوساوس السيئة، يقول له: إن عفوت فإن هذا يحمل على غير وجه، ويظن أنك تضعف عن الانتقام، فانتقم، وهكذا، فيحمله على رد الإساءة بإساءة مثلها أو أكثر منها، فكل هذه المعاني يفسر بها النزغ.

فهذا الآيات الثلاث في الأعراف والمؤمنون وحم السجدة لا رابع لهن، فإنه تعالى يرشد فيهن إلى معاملة العاصي من الإنس بالمعروف وبالتي هي أحسن فإن ذلك يكفه عما هو فيه من التمرد بإذنه تعالى، ولهذا قال: {فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ}، ثم يرشد تعالى إلى الاستعاذة به من شيطان الجان، فإنه لا يكفه عنك الإحسان، وإنما يريد هلاكك ودمارك بالكلية، فإنه عدو مبين لك ولأبيك من قبلك.

وقال ابن جرير في تفسير قوله: {وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ}: وإما يغضبك من الشيطان غضب يصدك عن الإعراض عن الجاهل ويحملك على مجازاته {فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ} يقول: فاستجر بالله من نزغه {إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}: سميع لجهل الجاهل عليك، والاستعاذة به من نزغه، ولغير ذلك من كلام خلقه، لا يخفى عليه منه شيء، عليم بما يُذهب عنك نزغ الشيطان وغير ذلك من أمور خلقه، وقد قدمنا أحاديث الاستعاذة في أول التفسير بما أغنى عن إعادته هاهنا.

{إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ * وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ} [سورة الأعراف(٢٠١ -٢٠٢)].

يخبر تعالى عن المتقين من عباده الذين أطاعوه فيما أمر وتركوا ما عنه زجر، أنهم إذا مسهم أي: أصابهم طيف، وقرأ الآخرون {طَائِفٌ}، وهما قراءتان مشهورتان فقيل بمعنى واحد، وقيل بينهما فرق، ومنهم من فسر ذلك بالغضب ومنهم من فسره بمس الشيطان بالصرع ونحوه، ومنهم من فسره بالهم بالذنب، ومنهم من فسره بإصابة الذنب، وقوله: {تَذَكَّرُواْ}...

قوله: **{إِذَا مَسَّهُمْ}** أي: أصابهم طيف، هذه قراءة متواترة، وهي قراءة أهل البصرة وابن كثير، **{إذا أصابهم طيف}**، وقرأ الآخرون **{طَائِفٌ}** وهما قراءتان مشهورتان، هما بمعنى واحد، وهذا هو المشهور، وذكر بعضهم فرقاً بينهما، فبعضهم قال: الطيف هو التخيل، والطائف: هو الشيطان، وهذا فيه بعد -والله تعالى أعلم -.

ثم اختلف العلماء في المراد بالطائف في قوله: **{إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ}**، فقيل: هو الشيطان، وقيل: هو الغضب، ويكون الطائف والطيف بمعنى الغضب، ومنهم من فسره بمس الشيطان بالصرع ونحوه، وقيل: الذنب، وقيل: نفس إصابة الذنب، وقيل: هو الوسوسة؛ لأنها من إلمام الشيطان بقلب ابن آدم، وتشبه ما ألم به من الخيال في قلب الإنسان، وقيل: ما يتخيله قلب الإنسان أو ما يراه في المنام، والأقرب حمل الآية على هذه المعاني جميعاً -والله تعالى أعلم -.

قوله: **{إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ}** أي: إذا ألم بهم لمم من الشيطان من غضب يحركهم إلى الانتقام، أو ألقى في قلبهم الوساوس والخواطر الرديئة، والأفكار المضلة، أو الإغراء بالشهوات، أو زين لهم المنكر، أو غير ذلك من المعاني التي ذكرها السلف، فإن الذين اتقوا إذا أصابهم هذا يتذكرون وعد الله ووعيده وثوابه وعقابه، فيورثهم هذا التذكر والتبصر عند حدود الله جل جلاله، فإذا كان هذا الذي ألقاه في قلبه هو الغضب وتحريكه إلى الانتقام تذكر ما عند الله -عز وجل -، **{تَذَكَّرُواْ}**، لما قال معاوية -رضي الله عنه - حين جاء إلى المدينة وكان يريد أن يأخذ البيعة لولده يزيد فتكلم بحضرة من حضر من الصحابة ومنهم ابن عمر وقال: من يرى أنه أحق منا بهذا الأمر، فليخرج قرنه فنحن أحق به منه ومن أبيه، يقول ابن عمر: فحللت حبوتي وهممت أن أتكلم، أراد أن يقول: أحق به منك، مَن قاتلك وأباك على الإسلام؟، لكنه تذكر ما عند الله، غضب وأراد أن يرد عليه، لكنه قال: تذكرت ما عند الله، إذا أصابهم طائف من الشيطان تذكروا، فعلى الإنسان أن يكون منضبطا بضوابط الشرع، فلا يصدر منه إلا ما يليق، لا يتحول إلى سفيه، فمن الناس من يقول: والله ما كنت أدري عن شيء، وربما قد حصل منه الطلاق أو الضرب العنيف،

فيفتخر أنه إذا غضب ما يدري ما يقول، وما يعمل، أي أنه يتصرف كالمجنون في حال الغضب، {إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ} وفي حال الوساوس يأتي الشيطان فيشككه ويلبّس عليه فيتذكر، ويتبصر ويعرض عن هذا كله، ويكف عن الاسترسال مع هذه الوسوسة، وإذا ألم بذنب أو حصل له تزيين المنكر، فإنه يتذكر وعد الله ووعيده وثوابه وعقابه ويكف، فيوسف -صلى الله عليه وسلم - دعته امرأة العزيز وغلقت الأبواب وقالت: هيت لك، {قَالَ مَعَاذَ اللّهِ}[سورة يوسف(٢٣)]، مع أن الله -عز وجل - قال: {وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء} [سورة يوسف(٢٤)]، فهم يوسف -صلى الله عليه وسلم - من قبيل الخواطر التي لا يؤاخذ عليها الإنسان، وكان هم امرأة العزيز من قبيل العزم فقد غلقت الأبواب، ثم دعته إلى الفاحشة، والعزم هو التصميم على الأمر، فهذا ينزل منزلة الفعل ويحاسب الإنسان عليه، كقول النبي -صلى الله عليه وسلم -: ((القاتل والمقتول في النار)) لما سئل عن هذا قال: ((إنه كان حريصاً على قتل صاحبه))[5]، فالمقصود: أن الشيطان إذا أغوى الإنسان بالفاحشة أو بالمنكر، فإنه يتذكر ما عند الله -عز وجل -، ولا يستمر عليه، بل يتوب مباشرة ويتذكر أن هذا بلاء نزل به من الشيطان، ويندم على ما عمل، فيكون حاله أحسن من حاله قبل اقتراف الذنب، لما يقع في نفسه من الندم والتوبة، أما الإنسان الغافل اللاهي الذي استحوذ عليه الشيطان فإنه كما قال الله -عز وجل -: {اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ} [سورة المجادلة(١٩)] فهو لا يرعوي ولا يكف، ولهذا قال بعده: {وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ}[سورة الأعراف(٢٠٢)]، أي: أن المتقين {إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ}، كفوا {وَإِخْوَانُهُمْ} أي: إخوان الشياطين من الإنس، يعني أن الإنسي أخ للشيطان من الجن، هذه الأخوة للمشابهة والمتابعة، كما قال الله -عز وجل - لمن شابه غيره أو سار على سننه وخطاه فإنه يكون أخاً له: {إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ} [سورة الإسراء(٢٧)]؛ لأنهم يسيرون على نهجهم، وشابهوهم، فهذا أحد المعاني في قوله تعالى: {وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا}[سورة الأحزاب(١٨)]، ويحتمل أخوة النسب، ويحتمل الأخوة بالأمر الجامع المشترك حيث إنهم يسكنون المدينة، ويحتمل أن يكون الأخوة في الدين حيث إنهم من المنافقين مثلهم، فقال: {وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ} أي: أنهم عكس هؤلاء تماماً، يدخل في المنكر ويدخل في الفواحش ويسترسل ويستمر عليها، ولا يكف عنها بحال.

وقوله: {تَذَكَّرُواْ} أي: عقاب الله وجزيل ثوابه ووعده ووعيده، فتابوا وأنابوا واستعاذوا بالله ورجعوا إليه من قريب، {فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ} أي: قد استقاموا وصحوا مما كانوا فيه.

وقوله تعالى: {وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ} أي: وإخوان الشياطين من الإنس، كقوله: {إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ} [سورة الإسراء(٢٧)]، وهم أتباعهم والمستمعون لهم، القابلون لأوامرهم.

هذه الآية فيها كلام كثير لأهل العلم ما المراد بقوله: {وَإِخْوَانُهُمْ}؟، أي: الشياطين يمدون الإنس بالغي، أو الإنس إخوان الشياطين من الجن يمدونهم، والسبب في اختلافهم هو عود الضمير في يمدونهم، لكن الأقرب هو ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله - {وَإِخْوَانُهُمْ} يعني: إخوان الشيطان تمدهم في الغي، لا يزال يزين

---

5 - رواه البخاري من حديث أبي بكرة رضي الله عنه برقم (٣١)، كتاب الإيمان، باب {وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما} فسماهم المؤمنين.

له الباطل والمنكر حتى يلقى الله -عز وجل- على ذلك، لا يكف ولا ينقطع ولا يرعوي ولا يقصر، -والله تعالى أعلم-.

{يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ} أي: تساعدهم الشياطين على المعاصي وتسهلها عليهم وتحسنها لهم، وقال ابن كثير: المد الزيادة، يعني يزيدونهم في الغي، يعني الجهل والسفه {ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ} قيل معناه: إن الشياطين تمد الإنس لا تقصر في أعمالهم بذلك، كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ} الآية، قال: لا الإنس يقصرون عما يعملون، ولا الشياطين تمسك عنهم.

{لاَ يُقْصِرُونَ} لا تفتر فيه ولا تبطل عنه، كما قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا} [سورة مريم(٨٣)]، **قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وغيره: تزعجهم إلى المعاصي إزعاجاً.**

قوله: **{يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ}** [سورة الأنعام(١٢٨)]، أي: فاستكثروا منهم بإغوائهم وإضلالهم، **{وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِيَ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ}** [سورة الأنعام(١٢٨)]، أي: أن الجن يستمتعون بطاعة الإنس لهم، وخوفهم منهم، وتعظيمهم لهم، فكان الواحد منهم إذا نزل وادياً قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه، فينتفش الجن ويتعاظمون، ويقولون: سُدنا الإنس والجن، وكذلك ما يتقربون به إليهم من القرابين كفعل السحرة والكهنة، والضُّلال من بني آدم حيث يتقربون للجن بالذبح والنذر وما أشبه ذلك، فإذا سكن أحدهم داراً ذبح على البحر أو ذبح في أسس هذه الدار أو نحو هذا مما يستمتع به الجن، واستمتاع الإنس بالجن -كذلك أيضاً- يكون بنشد الضالة، والتعاون مع السحرة والشياطين، وقد يحصل على مطلوبه، وقد يعرف العلة والمرض، أو يعرف سحر من سحره، أو يسحر هذا ويفسد عليه عيشه، وينغص عليه حياته، ويفرق بينه وبين أهله، أو يبتز ماله، أو نحو ذلك مما يحصل على يد هؤلاء بإعانة الشياطين لهم، فكل هذا من استمتاع الإنس بالجن، واستمتاع الجن بالإنس، فهذه أخوة بينهم **{وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ}**.

{وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُواْ لَوْلاَ اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يِوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [سورة الأعراف(٢٠٣)].

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله تعالى: {قَالُواْ لَوْلاَ اجْتَبَيْتَهَا} يقول: لولا تلقيتها، وقال مرة أخرى: لولا أحدثتها فأنشأتها، وقال ابن جرير عن عبد الله بن كثير عن مجاهد في قوله: {وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُواْ لَوْلاَ اجْتَبَيْتَهَا} قال: لولا اقتضيتها، قالوا: تخرجها عن نفسك، وكذا قال قتادة والسدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم واختاره ابن جرير.

قوله: **{لَوْلاَ اجْتَبَيْتَهَا}** أي: اصطفيتها واخترتها وأنشأتها من عندك، وهذه المعاني كلها متقاربة، فقالوا ذلك لأنهم يرون أنه يختلق ذلك ويفتريه، وتحتمل الآيات معنيين: يحتمل أن يكون المراد بها الآيات المتلوة التي تخبرهم عما سألوا عنه مثلاً **{لَوْلاَ اجْتَبَيْتَهَا}** واختلقتها، ويحتمل أن يكون المقصود به: الآيات التي يقترحونها على النبي -صلى الله عليه وسلم-، كأن يحول الصفا إلى ذهب، أو يزيح عنهم جبال مكة، أو ينزل عليهم

كتاباً من السماء يقرءونه، وما أشبه هذا من الأشياء التي اقترحوها.

ومعنى قوله تعالى: {وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ} أي: معجزة وخارق، كقوله تعالى: {إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّن السَّمَاء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ} [سورة الشعراء(٤)].

قال بعض أهل العلم في قوله: **{لَوْلاَ اجْتَبَيْتَهَا}** هذا في الآيات المتلوة، لما كان الوحي يتأخر يقولون: **{لَوْلاَ اجْتَبَيْتَهَا}**، أي: لولا اخترتها، لولا اختلقتها، وكانوا يسألون النبي -صلى الله عليه وسلم - عن أشياء فينتظر الوحي، فيقولون ذلك استهزاء وسخرية.

يقولون للرسول -صلى الله عليه وسلم -: ألا تجهد نفسك في طلب الآيات من الله حتى نراها ونؤمن بها؟، قال الله تعالى له: {قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يِوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي} أي: أنا لا أتقدم إليه تعالى في شيء، وإنما أتبع ما أمرني به، فأمتثل ما يوحيه إليّ، فإن بعث آية قبلتها، وإن منعها لم أسأله ابتداء إياها إلا أن يأذن لي في ذلك، فإنه حكيم عليم، ثم أرشدهم إلى أن هذا القرآن هو أعظم المعجزات وأبين الدلالات، وأصدق الحجج والبينات فقال: {هَذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [سورة الأعراف(٢٠٣-٢٠٤)]، لما ذكر تعالى أن القرآن بصائر للناس وهدى ورحمة أمر تعالى بالإنصات عند تلاوته إعظاماً له واحتراماً، لا كما كان يعتمده كفار قريش المشركون في قولهم: {لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ} [سورة فصلت(٢٦)] الآية، قال ابن جرير: قال ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه -: كنا يسلم بعضنا على بعض في الصلاة، فجاء القرآن: {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [سورة الأعراف(٢٠٤)].

قوله: **{وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ}** السين والتاء تدل على فرق بين السماع والاستماع، فالتاء تدل على طلب، بمعنى أن الإنسان يقصد الاستماع، والإنصات هو السكوت للاستماع، فلا ينشغل عنه بشيء، والذي عليه عامة أهل العلم من السلف -رضي الله تعالى عنهم - فمن بعدهم أن هذه الآية في الصلاة، إذا قرأ القارئ في الصلاة؛ لأن الإنسان مأمور بهذا، لحديث عبادة بن الصامت -رضي الله عنه - قال: كنا خلف رسول الله -صلى الله عليه و سلم - في صلاة الفجر فقرأ رسول الله -صلى الله عليه وسلم - فثقلت عليه القراءة فلما فرغ قال: ((لعلكم تقرءون خلف إمامكم؟)) قلنا: نعم يا رسول الله، قال: ((لا تفعلوا إلا بفاتحة الكتاب فإنه لا صلاة لمن لم يقرأ بها))[6]، وعن أبي قتادة -رضي الله عنه - أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم - قال: ((تقرءون خلفي؟))، قالوا: نعم، قال: ((فلا تفعلوا إلا بأم الكتاب))[7] فالشاهد: أن الإنسان في الصلاة مأمور بالإنصات، ومن أهل العلم من قال: إن ذلك في الصلاة وفي الخطبة، باعتبار أن الإنسان مأمور أن ينصت في الخطبة، وإذا قال لصاحبه أنصت فقد لغا، ومن مس الحصى فقد لغا، فلا يشتغل عن

---

6 - رواه أبو داود برقم (٨٢٣)، في كتاب الصلاة، باب من ترك القراءة في صلاته بفاتحة الكتاب، وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح (١/١٨٦)، برقم (٨٥٤).

7 - رواه أحمد في المسند (٣٧/ ٣٠٩)، برقم (٢٢٦٢٥)، وقال محققوه: صحيح لغيره، وهذا إسناد ضعيف لانقطاعه بين سليمان التيمي -وهو ابن طرخان - وعبد الله بن أبي قتادة.

الخطبة بشيء، وابن جرير -رحمه الله- حمل الآية على الأمرين، الإنصات في الصلاة، وفي حال الخطبة؛ لأن ذلك هو الذي أُمرنا به، في حال الصلاة وفي حال الخطبة، ولكن الأقرب أن الآية تحمل على أعم معانيها، والله -عز وجل- ما حدد شيئاً لا في الصلاة ولا في غير الصلاة، قال: {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ} فهذا الأمر معلق على شرط، فيحمل على أعم معانيه، فكلما وجد الشرط، وجد المشروط، وهذا من الأدب مع القرآن أن لا يشتغل الإنسان عنه بغيره إذا سمعه، فيستمع له وينصت، -والله تعالى أعلم-.

{وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ * إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ}[سورة الأعراف(٢٠٥-٢٠٦)].

يأمر تعالى بذكره أول النهار وآخره كثيراً، كما أمر بعبادته في هذين الوقتين في قوله: {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ} [سورة ق(٣٩)] وقد كان هذا.

كلام ابن كثير -رحمه الله- هو المتبادر من السياق، في قوله: {وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً} يأمر تعالى بذكره أول النهار وآخره كثيراً، وهو ظاهر القرآن، وابن جرير -رحمه الله- حمل ربط هذه الآية بالتي قبلها، قال: {وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً} عند سماع القرآن، في حال سماع القرآن، يقول: إذا قرئ القرآن فاذكر ربك في نفسك أي: عظّمه، فإذا كان في الآيات تخويف تخاف، وإذا كان في الآيات تعظيم لله -عز وجل- فإنك تعظمه، وتذكره في نفسك وتتذلل، وتستجيب وتنقاد وتؤمن بهذا الذي سمعته من كلام الله -عز وجل-، وهذا فيه بعد، فالآية في الذكر، وليس في حال سماع قراءة القرآن {وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً} اذكر ربك في نفسك يعني: سراً، وليس المعنى أن الإنسان يذكر في قلبه، وإنما يحرك الإنسان لسانه وشفتيه في الذكر، أما الذكر بإمرار ذلك بالقلب فقط، فإن هذا لا يكون من الذكر الذي يجزيه في القراءة، وقول الأذكار التي أمره الشارع بها، وليس كما يقال: يقرأ بعينه، أو يقول الأذكار في نفسه فقط دون أن يحرك لسانه بها، فلا يكون الذكر إلا بتواطؤ القلب واللسان.

وقوله: {تَضَرُّعاً وَخِيفَةً} يعني بضراعة وتذلل وخضوع وإخبات مع الخوف من الله -عز وجل-، لا تدعُ أو تذكر في حال كأنك مُدل ومتفضل على الله -عز وجل-، وإنما ذكْر المتضرع الذليل الخائف.

وقد كان هذا قبل أن تفرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء، وهذه الآية مكية.

يحتمل أن الصلاة كانت في أول النهار وفي آخره، ويحتمل أن يكون المقصود به الذكر عموماً.

وقال هاهنا: بالغدو وهو أول النهار.

الغدو معناه ما بعد الفجر وطلوع الشمس، ثم أطلق بعد ذلك بتوسع على أول النهار، فبعض أهل العلم وقف عند المعنى اللغوي في الألفاظ فقال في التهجير يوم الجمعة: يبدأ من الزوال، فالساعة الأولى تبدأ من بعد الزوال، والساعة الثانية والثالثة والرابعة والخامسة، قال بهذا جماعة من أهل العلم فأخذوا لفظ التهجير من الهاجرة، ثم صارت تطلق بمعنى أوسع من مجرد المعنى الأصلي الذي وضعت له ابتداء.

{وَالآصَالِ} جمع أصيل، كما أن الإيمان جمع يمين.

الآصال جمع أصيل وأُصل وهو ما بعد العصر، ويكون ذلك بصورة أوضح من بعد اصفرار الشمس.

وقفتُ فيها أُصَيْلاناً أسائلها *** عَيّتْ جواباً وما بالربع من أحد

بمعنى وقت الأصيل، بعد اصفرار الشمس، وهذا أفضل ما يكون في وقت الذكر، {بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ} فالغدو بعد الفجر إلى طلوع الشمس، {وَالآصَالِ} يقول أذكار المساء، المساء يبدأ من بعد زوال الشمس، هذا كله يقال له مساء، فلو قال الإنسان الأذكار بعد الظهر -أذكار المساء - لأجزأه؛ لأن هذا مساء، لكن الذكر كما قال الله -عز وجل -: {وَالآصَالِ} وهو بعد العصر، وآكد ما يكون ذلك وأحسن ما يقع فيه هو عند ذبول الشمس.

وأما قوله: {تَضَرُّعاً وَخِيفَةً} أي: اذكر ربك في نفسك رغبة ورهبة، وبالقول لا جهراً، ولهذا قال: {وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ}، وهكذا يستحب أن يكون الذكر، لا يكون نداءً وجهراً بليغاً.

الذكر يكون بصوت خافت بحيث يسمع الإنسان نفسه، ولا يؤذي الآخرين، فقد صح عن النبي -صلى الله عليه وسلم -: ((الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة، والمُسِرُّ بالقرآن كالمسر بالصدقة))[٨].

في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري -رضي الله عنه - قال: رفع الناس أصواتهم بالدعاء في بعض الأسفار، فقال لهم النبي -صلى الله عليه وسلم -: ((يا أيها الناس ارْبَعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصمّ ولا غائباً، إن الذي تدعونه سميع قريب، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته))[٩] والمراد: الحض على كثرة الذكر من العباد بالغدو والآصال، لئلا يكونوا من الغافلين، ولهذا مدح الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون فقال: {إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ} الآية.

قال الله -عز وجل - في الدعاء: {ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} [سورة الأعراف(٥٥)]، تضرعا: يعني بضراعة وذل واستكانة وخضوع وإخبات، {وَخُفْيَةً} لا ترفعوا أصواتكم في الدعاء إذا كان الإنسان يدعو لنفسه، وإذا كان خلفه من يؤمن عليه، فإنه يدعو بأدب دون رفع زائد للصوت فإن هذا من الاعتداء في الدعاء وسوء الأدب مع الله -تبارك وتعالى -، {تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً}، وقال في الذكر: {وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ} فذكر الخيفة وذكر الإسرار دون الجهر بالقول بالغدو والآصال، وقوله: {فِي نَفْسِكَ} يدل على أن المراد به الذكر، لا كما قال ابن جرير -رحمه الله - من أن ذلك في حال سماع القرآن، إذ كيف يكون بالغدو والآصال؟، -والله أعلم -.

وإنما ذكَرهم بهذا ليُقتدَى بهم في كثرة طاعتهم وعبادتهم، ولهذا شرع لنا السجود هاهنا لما ذكر سجودهم لله -عز وجل -، كما جاء في الحديث: ((ألا تصفّون كما تصفّ الملائكة عند ربها؟ يتمون الصفوف الأول

---

8 - رواه أبو داود برقم (١٣٣٣)، كتاب التطوع، باب رفع الصوت بالقراءة في صلاة الليل، والنسائي برقم (٢٥٦١) كتاب الزكاة، باب المسر بالصدقة، والترمذي برقم (٢٩١٩) وقال: هذا حديث حسن غريب، كتاب فضائل القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كلهم من حديث عقبة بن عامر -رضي الله عنه -، وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم (١٢٠٤)، وفي صحيح الجامع برقم (٣١٠٥).

9 - رواه البخاري برقم(٢٨٣٠)، كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من رفع الصوت في التكبير، ومسلم برقم (٢٧٠٤)، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، ورواه بدون زيادة: ((أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته)) فهي عند أحمد في مسنده (٣٧٤/٣٢) برقم (١٩٥٩٩)، وإسناده صحيح على شرط الشيخين، قاله محققو المسند، والنسائي في الكبرى برقم (٧٦٨٠).



فالأول ويتراصون في الصف))[10]، وهذه أول سجدة في القرآن مما يشرع لتاليها ومستمعها السجود بالإجماع.

10 - رواه مسلم برقم (٤٣٠)، كتاب الصلاة، باب الأمر بالسكون في الصلاة والنهي عن الإشارة باليد ورفعها عند السلام وإتمام الصفوف الأول والتراص فيها والأمر بالاجتماع، من حديث جابر بن سمرة -رضي الله عنه-.